

موسوعة الحضارة الإسلامية

٧

الحياة الاجتماعية

في الفكر الإسلامي

مباحث اجتماعية في نطاق الأسرة ، وفي نطاق المجتمع



تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كامبردج (إنجلترا)
ناذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الخامسة (١٩٨٦)

أشر : مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى - القاهرة



موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

٧

الحياة الاجتماعية

في الفكر الإسلامى

مباحث اجتماعية في نطاق الأسرة ، وفي نطاق المجتمع

تأليف

الدكتور أحمد شبلى

دكتوراه من جامعة كمبودج (انجلترا)

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الخامسة (١٩٨٦) مع كثير من التنقيحات والزيادات



مكتبة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

بإشرافها حسن محمد وأولاده
شباب عيسى باشا بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٩٦٨

الطبعة الثانية ١٩٧٣

الطبعة الثالثة ١٩٧٧

الطبعة الرابعة ١٩٨١

الطبعة الخامسة ١٩٨٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

الحضارة الإسلامية
منحة الإسلام هداية البشرية

كتب للمؤلف

أولا - موسوعة التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله ، من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى .

الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

١ - مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الإسلامى - تفسير التاريخ - هل التاريخ عام ؟ . . .
فلسفة التاريخ - فائدة التاريخ - مراحل تدوين التاريخ -
قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى - علم التاريخ
بين المسيحية والإسلام

- تاريخ العرب قبل الإسلام : البدو والحضر - حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

- السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدوّن لأول مرة . .
- الدعوة الإسلامية وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين .

٢ - الجزء الثانى : (الطبعة الثامنة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة الثامنة)

- الأندلس الإسلامية ، وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عن طريقها .
- المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا (من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر)
- السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة السابعة)

- مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر .
(تدوين جديد لتاريخ مصر وعرض " لأهم آثارها)
- الحروب الصليبية : دوافعها - أدوارها - نتائجها .
- الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — الجزء السادس : (الطبعة الخامسة)

- الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن :
- دراسة عن وسائل انتشار الإسلام :
- مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — للتجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .
- الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربي :
- غانة — مالي — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجرى — واداي — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .
- الدول الإسلامية الحالية :
- موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتي .

٧ — الجزء السابع : (الطبعة الثالثة)

- الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية ، والعراق :
- دول الجزيرة العربية من مطلع الإسلام حتى الآن :
- المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عُمان — دولة الإمارات العربية المتحدة — قطر — البحرين — الكويت .
- العراق من مطلع الإسلام حتى الآن .

٨ — الجزء الثامن : (الطبعة الثانية)

- الإسلام والدول الإسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الإسلام حتى الآن :
- إيران — أفغانستان — باكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا — بروناي — الأقليات الإسلامية في الهند والصين وروسيا والفلبين . . .

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — الجزء التاسع : (الطبعة الرابعة)

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر محمد نجيب — عصر جمال عبد الناصر

١٠ — الجزء العاشر :

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم ، عصر أنور السادات .

(ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الإسلام
لهداية البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد، وفي مجال الحياة الاجتماعية،
والتربوية، والعسكرية، والتشريعية، والقضائية، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة
التجريبية ، وأجزاؤها هي :

١١- الجزء الأول : تاريخ المناهج الإسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم في صدر الإسلام — انحرافاتنا في عصور الظلام — وجوب تصحيحها.

١٢- الجزء الثاني : الفكر الإسلامي : منابعه وآثاره مآثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية (الطبعة السابعة)

١٣- الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السادسة)

في الفكر الإسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤- الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السابعة)

في الفكر الإسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ - الإسلام والمسلمون في مواجهة المشكلة الاقتصادية .

٢ - مبادئ الإسلام الاقتصادية .

٣ - الإسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (الإيداع بالبنوك، شهادات الاستثمار...).

٤ - من تاريخ الاقتصاد في الإسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .

٥ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامي فيها .

١٥- الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة الثامنة)

نظمها - تاريخها - فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وأمكنته ،
ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ،
والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ،
وتوجيههم حسب مواهبهم . .

١٦- الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السابعة)

أسس تكوينه ، أسباب ضعفه ، وسائل نهضته

ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة ، تخطيط جديد ، مادة علمية جديدة ، أداء جديد .

١٧- الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الخامسة)

في الفكر الإسلامي

» في نطاق الأسرة : كالتحان وتحديد النسل وعمل المرأة . . .

» وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء . . .

١٨- الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الرابعة)

وتاريخ النظم القضائية في الإسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع ،

ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى .

١٩- الجزء التاسع : الإسلام والعلاقات الدولية (الطبعة الرابعة)

دراسات علمية توضح النهج الإسلامي في العلاقات بين الدول الإسلامية
والدول غير الإسلامية ، في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية .

٢٠- الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الرابعة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية .

كتب للمؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١- الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة التاسعة)

- دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بني إسرائيل ، عقيدة بني إسرائيل ، يهوه إله بني إسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، الثابوت والهيكل ، الكهنة والقرايين . . .
- مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .
- اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهاية .
- من صور التشريع في اليهودية .

٢٢- الجزء الثاني : المسيحية :

- المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .
- بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .
- شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، خرافة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون والمعادي ، حركة الإصلاح الديني ونتائجها ونقدها .

٢٣- الجزء الثالث : الإسلام :

- الله في التفكير الإسلامي ، النبوة في التفكير الإسلامي ، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الإسلام ، الرق وموقف الإسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الإسلام . آراء المفكرين الغربيين في الإسلام ورسول الإسلام .

٢٤- الجزء الرابع : أديسان الهندس الكبرى : (الطبعة التاسعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

- تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان في الهند .
- دراسة الكتب المقدسة الهندوسية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ، كيتا .
- أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والرفانا ، وحدة الوجود .
- تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ - كيف تكتب بحثاً أو رسالة (الطبعة الثامنة عشرة - مع ثلاثة ملاحق مهمة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .

٢٦ - الحروب الصليبية : بدؤوها مع مطلع الإسلام ، وامتداداتها حتى الآن .
كتابان باللغة الإنجليزية هما :

مكتبة النهضة المصرية	ISLAM : Belief Legislation - Morals	— ٢٧
	History of Muslim Education	— ٢٨
	وكتب باللغة الإندونيسية والماليزية :	
	Negara dan Pemerintahan Dalam Islam	— ٢٩
	Masyarakat Islam	— ٣٠
	Hukum Islam	— ٣١
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam I	— ٣٢
	Sedjarah dan Kepndajaan Islam II	— ٣٣
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam III	— ٣٤
	Perbandingan Agama (Jahudi)	— ٣٥
	Perbandingan Agama (Masihi)	— ٣٦
	Perbandingan Agama (Islam)	— ٣٧
	Perbandingan Agama (Agama 2 yang	— ٣٨
Pustahn National (Singapore)	Terbesar di India: Hindu-Jaina-Buddha)	
	Sedjarah Pendidikan Islam	— ٣٩
	Politik dan Ekonomi Dalam Islam	— ٤٠
	Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam	— ٤١
	Perkembangan Keagamaan Dalam Islam	— ٤٢
	dan Masehi .	
	Perang Salib	— ٤٣
	Kurikulum Islam Dalam	— ٤٤
	Perkembangan Sedjarah	
	Pengajaran Al Quraan	— ٤٥
	sedjarah Kehakiman Dalam Islam	— ٤٦

كتب للمؤلف

خامساً : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الإسلام، ومن التاريخ، والحضارة، وقصص القرآن...
للأولاد والشباب والسيدات والرجال، ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءاً) .

- | | |
|---------|---|
| ١ ج | محمد قبل البعثة . |
| ٢ ج | من غار حراء... إلى غار ثور (قصة الإسلام في مكة) . |
| ٣ ج | الإسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات . |
| ٤ ج | الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها . |
| ٥ ج | الرسول الداعية ومربي الدعاة . |
| ٦ ج (أ) | الرسول في بيته : زوجات الرسول — أسباب تعدد الزوجات . |
| ٧ ج (ب) | الرسول في بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجها —
الحجاب — أولاد الرسول — أحفاده — خدمه . |
| ٨ ج | الرسول بين أصحابه — الرسول يربي الفرد المسلم — الرسول يربي المجتمع الإسلامي . |
| ٩ ج | الرسول يربي القضاة، ويربي القوة العسكرية ، ويربي الولاة والحكام . |
| ١٠ ج | الرسول والشباب — الرسول والعمل . |
| ١١ ج | توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول —
الرسول والمنافقون . |
| ١٢ ج | الرسول والنصارى — الرسول واليهود . |
| ١٣ ج | الإسلام والقتال، وهل انتشر الإسلام بالقوة أو بالدعوة —
غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم أحداث غزوة بدر |
| ١٤ ج | غزوة أحد والهزيمة التي أخافت المنتصر — غزوة الأحزاب
وكلمة عن سلمان الفارسي ؟ |
| ١٥ ج | صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة
وبدء الصراع ضد الروم ؛ |
| ١٦ ج | فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة
في حياة الرسول ؟ |

الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ أجزاء)

- ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها .
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باني الدولة الإسلامية .
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته وأخلاقه والفتنة في عهده .
ج ٢٠ (٤) علي بن أبي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي واجهها .
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام .
ج ٢٢ (٧) سعد بن أبي وقاص . (٨) أبو عبيدة بن الجراح .
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمر .

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء) .

- ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحي — نزول القرآن وتدوينه
أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن
والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب في أدائه والتكشيب به .
ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التي جاء بها لخير الناس في الدنيا
والآخرة — إعجاز القرآن ومظاهر الإعجاز — معجزات
الرسول في ميدان المقارنة .
ج ٢٦ غير العرب والإعجاز البلاغي للقرآن — وجوه الإعجاز في
القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار في
القرآن : أسرارہ وإعجازه .
ج ٣٤ ، ٣٥ (ترقيم مؤقت ، وفي الطبعة الثانية إن شاء الله سيأخذان رقم ٢٧ و ٢٨
وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم

جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق، وتصنيفها، وشرحها شرحاً مبسوطاً؛

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

- ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن — قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنيتين — قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزيز — قصة أيوب عليه السلام .
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخسود .
ج ٣٢ قصة إسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج إلى إنصاف : (٥ أجزاء) .

- ج ٣٦ تاريخ الدولة الأموية : الانحراف في تدوينه ومحاولة إنصاف -
معاوية الخليفة الأموي الأول : عام الجماعة - الدهماء -
الإصلاحات الداخلية - التوسع .

- ج ٣٨ عبد الملك بن مروان :
أحد فقهاء المدينة الأربعة .
البطولة - السياسة - الإصلاحات الداخلية - التوسع

- ج ٣٨ نموذجان فريدان متعاصران : الوليد بن عبد الملك
عمر بن عبد العزيز

- ج ٣٩ التوسع العظيم في العهد الأموي وأهم ميادينه .
ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع - قصة استشهاد الإمام الحسين .

- ج ٤١ جزء عن : « من شهداء الإسلام » : حمزة بن عبد المطلب -
جعفر بن أبي طالب - عمار بن ياسر - عمر المختار .
ج ٤٢ جزء عن شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .

المجموعة السادسة : الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام وامتداداتها حتى الآن :

- ج ٤٣ من غزوة مؤتة إلى الحرب في لبنان والحرب بين العراق وإيران
و ٤٤
و ٤٥ (٣ أجزاء في مجلد واحد) .

المجموعة السابعة : الإسلام والمرأة (٦ أجزاء) .

- ج ٤٦ المرأة قبل الإسلام في الحضارات المختلفة - ماذا قدم الإسلام للمرأة ؟
ج ٤٧ المرأة العربية من الجاهلية للإسلام : الخنساء .
ج ٤٨ سيدات من بيت النبوة : السيدة زينب بنت الإمام علي .
بنات الحسين : نفيسة وسكينة .

- ج ٤٩ سيدات في البلاط العباسي : الخيزران - زبيدة - بوران .
ج ٥٠ سيدات في قصور مصر : قطر الندي - ست الملك - شجرة الدر :
ج ٥١ سيدات في قصور الأندلس وإماء برعن في الشعر والغناء .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعاً إن شاء الله)

(لم تدخل أعداد المكتبة الإسلامية ضمن العدد الخاص بكتب المؤلف)

كتب للمؤلف

سادساً : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٧— تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالإملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز الطالب إلى مرحلة متقدمة في القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملاً في هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الإسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمارين مفيدة .

٤٨— قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)

عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة .
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف .

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعاد طبعها

- ٤٩ — فى قصور الخلفاء العباسيين :
- أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ٥٠ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ٥١ — الحكومة والدولة فى الإسلام :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .
- ٥٢ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .
- ٥٣ — النظم الاقتصادية فى انعالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامى فيها .
- وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .
- ٥٤ — الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الإسلامى .
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
كتب للمؤلف	٢ - ١١
مقدمة الطبعة الأولى	١٧ - ٢٠
في تقديم الطبعة الثانية	٢١
مقدمة الطبعة الخامسة	٢٢ - ٢٣

الباب الأول

مباحث اجتماعية في نطاق الأسرة

٢٥ - ١٤٥

الزواج : دوافعه وأهدافه وحكم الإسلام فيه :

الازدواج أساس الكون ٢٧ - أهداف الزواج ٢٨ - الأم الآنسة ٣١ -
حكم الزواج في الإسلام ٣١ - حكم الزواج في المسيحية ٣٢ .

الاختيار عند الزواج :

الأسس التي تراعى في اختيار الزوجة ٣٦ - التقارب الفكري ٣٧ - تجنب
القرابة القريبة ٤٠ .

الزواج من كتابية :

لا زواج الآن من يهودية ٤٤ - المسيحية الذمية ٤٤ .

٤٧ الزواج من أجنبية :

٥٢ غير المسلم يدخل الإسلام ليتزوج مسلمة

المسلمة لا تتزوج غير مسلم ، لماذا ؟ ٥٢ .

الخطبة :

مراحلها ٥٦ - القدر الذي يراه الخاطب من خطيبته ٥٧ - حق الفتاة
وأهلها ٥٨ - الخطبة ليست ملزمة ٥٩ - متى يكون فسخ الخطبة حراماً ٦٠
- حكم الشبكة والهدايا بعد فسخ الخطبة ٦٠ .

حديث عن المهر والعقد :

عدم المبالغة في المهور ٦٣ - قيد الزواج في وثيقة رسمية ٦٤ - النقوط ٦٥

الصفحة

الموضوع

الأولاد :

تسمية الأولاد ٦٧ — التربية وحسن التوجيه ٦٧ — التسوية بين الأولاد
في العطاء والمعاملة ٧٠ .

٧٢

زوجة الأب

الحماة

الختان :

من تاريخ الختان ٧٩ — الإسلام والختان ٨٠ .

تحديد النسل أو تنظيمه :

للمسلم ألا يتزوج إذا أمن الفتنة ٨٣ — المنع من الحمل نهائياً ٨٤ — تأجيل
الحمل لمصلحة رضيع ٨٥ — تأجيل الحمل لمصلحة الوالدين أو الأولاد ٨٦
تأجيل الحمل لمجرد الاتفاق بين الزوجين ٨٧ — حرمة تحديد النسل ٨٧ —
كراهية تحديد النسل ٨٨ — إباحة تحديد النسل ٨٨ — المرأة العاملة والأولاد
٩٠ — الانفجار السكاني ٩٠ — غير المسلمين وتحديد النسل ٩٤ — إسقاط
الحمل ٩٤ .

ابن ليس من الصلب :

التبني ٩٦ — التلقيح الصناعي ٩٩ — الحل عند العقم كما يراه الفكر الإسلامي
١٠٠ — تحذير ١٠١ .

التكافل بين أفراد الأسرة :

حقوق كل من الزوج والزوجة تجاه الآخر ١٠٣ — التكافل بين الوالدين
والأبناء ١٠٧ — ذوو القربى والتكافل ١١١ — الخدم في الأسرة ١١٥ .

١١٩

أطفال الأنايب :

عمل المرأة :

المرأة عمالت منذ فجر التاريخ ١٢١ — العام والعمل ١٢٢ — مشكلات تواجه
المرأة العاملة ١٢٧ — حلول لمشكلات المرأة العاملة ١٢٩ — مرتب الزوجة
وحكم الإسلام فيه ١٣١ .

مزيد من الدراسة حول عمل المرأة :

إحصائيات ونتائج ١٣٢ — لبن الأم هو الأمثل ١٣٣ — عيوب في النطق
بسبب الرضاعة الصناعية ١٣٤ — عمل المرأة وأمراض الطفولة ١٣٥ —

الموضوع —
رسالة ماجستير قدمتها باحثة تدين عمل المرأة ١٣٥ — إعراض المرأة عن العمل ١٣٦ .

الوصية
الميراث الشرعي والوقوف عنده

١٣٩
١٤٢
مباحث اجتماعية
في نطاق المجتمع
١٤٧ — ٣٢٧

حماية المال العام أو رعاية المال العام :

نهب المال العام وسلبه ١٥٠ — الإهمال في رعاية المال العام ١٥٢ — الحرص على المال العام يؤدي للخير العام ١٥٣ — القرآن وخيانة العهد بين الموظف والمجتمع ١٥٤ — الحديث الشريف وخيانة الأمانة ١٥٥ — تعفف السلف الصالح ١٥٥ — وسائل حماية المال العام ١٥٧ .

الأعياد :

الأعياد ظاهرة اجتماعية قديمة ١٥٩ — عيد الفطر وعيد الأضحى ١٥٩ — الإسراء والمعراج ١٦١ — الهجرة للمدينة ١٦١ — غزوة بدر ١٦٢ — أعياد ابتكرها الفكر الفاطمي ١٦٢ — ميلاد الرسول صلوات الله عليه ١٦٣ — نصف شعبان ١٦٤ — تصحيح حول ليلة النصف من شعبان ١٦٥ — ليلة القدر ١٦٧ — عاشوراء (مخالفة اليهود لا متابعتهم) ١٧٠ — حكمة العيد ومظاهره ١٧٣ — الأعياد الخاصة ١٧٦ .

الأفراح والموسيقى والغناء :

إعلان الزواج ١٧٨ — الوليمة عند الزواج ١٧٩ — الموسيقى والغناء في الزواج ١٨٠ — كلمة عن تاريخ الموسيقى والغناء ١٨١ — رأى الإسلام في الموسيقى والغناء ١٨٢ — الإمام الغزالي والسمع ١٨٤ — أبو بكر البغدادي والسمع ١٨٥ — الإمام القشيري والسمع ١٨٧ — الإمام الشوكاني والسمع ١٨٨ — عبد الغني النابلسي والسمع ١٨٨ — الإمام شلتوت والسمع ١٨٩ — عبد الحى الكتاني والسمع ١٨٩ .

المآتم :

الدموع فقط ١٩١ — الإسلام والنعي ١٩٢ — التزامات الأحياء تجاه

الصفحة

الموضوع

الميت ١٩٢ — هيئة القبر ١٩٣ — العزاء وصورته الإسلامية ١٩٤ —
الصبر وثوابه ١٩٥ — زيارة القبور ١٩٦ — العادات الرذيلة عند الموت
١٩٧ — مسئولية الميت والأحياء ٢٠٠ .

٢٠٢

زواج الأب بعد وفاة زوجته

الأولياء والموالد وصناديق النذور وحلقات الذكر :

أولياء بالقرى والمدن ٢٠٥ — ما الولي ؟ ٢٠٦ — الكرامات ٢٠٩ — هل
يُعرف الولي أنه ولي ؟ ٢١١ — الموالد ٢١٥ — صناديق النذور ورأى الإسلام
في النذور ٢١٧ — النذر لله فقط وفي طاعة ٢١٩ — دراسة واقعية عن
حصيلة النذور وتوزيعها ٢٢٠ — حلقات الذكر ٢٢١ .

٢٢٤

مكبرات الصوت

٢٣٠

الترويح عن النفس والرياضة

الرياضة والتسلية ٢٣٢ — كرة القدم حالياً والتعصب لها ٢٣٧ — النطاح
وصراع الديكة ومصارعة الثيران ٢٤٠ .

٢٤٢

كلمة عن القمار

المرأة والمجتمع :

زى المرأة ٢٤٦ — الحجاب ٢٤٩ — حدود الاختلاط في الجامعة والعمل ٢٥٠
المرأة وولاية الأعمال ٢٥٢ — المرأة ونوع الوظائف التي تليق بها ٢٥٣ —
تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ٢٥٣ .

الخمر :

ما الخمر ؟ ٢٥٤ — التدرج في تحريم الخمر وحكمته ٢٥٦ — عقوبة شارب
الخمر ٢٥٩ — التداوى بالخمر ٢٦٠ — المفكرون الغربيون والتحذير من
الخمر ٢٦١ — كلمة عن مدمنى الخمر ٢٦٣ .

الحشيش والأفيون والكوكايين والهروين :

كل المخدرات خمور ٢٦٤ — العلماء في جميع العصور يحرمون كل
أنواع المخدرات ٢٦٥ — الحشيش والخداع ٢٦٨ — أعداء الإسلام
دفعوا المخدرات لأرض الإسلام ٢٦٨ — القات ٢٧٠

الموضوع	الصفحة
تحذير من السموم البيضاء	٢٧١
الدخان	
خطورة التدخين ٢٧٢ — أسباب ساذجة للتدخين ٢٧٣ تقارير خطيرة عن خطورة التدخين ٢٧٧ — التدخين والحكومات بالدول الإسلامية ٢٨٠ — ملاحظة للحقيقة والتاريخ وبدون تعاقب ٢٨١ .	
النظافة : نظافة الباطن والظاهر	٢٨٣
التسول :	
ظاهرة اجتماعية خطيرة ٢٨٦ — نماذج من المتسولين المحترفين ٢٨٧ — الإسلام يحذر المتسولين ٢٨٩ — واجب ولي الأمر تجاه التسول ٢٩١ .	
المساواة وحياة الطبقات :	٢٩٣
القضاء والقدر	٢٩٩
صورة المجتمع الإسلامي كما ينبغي أن يكون :	
الجار : من هو ؟ وما حقوقه ؟ ٣٠٩ — التعاون في نطاق القرية أو المدينة ٣١٠ — التعاون في نطاق المجتمع الإسلامي ٣١١ — رعاية المحرومين ٣١٣ — إغاثة الملهوف ٣١٣ — مجتمع سلام ٣١٤ — مجتمع متحاب ٣١٥ — إصلاح ذات البين ٣١٦ — إنعاش أخلاق الإسلام ٣١٧ .	
لمسات سريعة بالمجتمع :	
العام والعمل به ٣١٨ — الله والإنسان في السراء والضراء ٣١٩ — علاقة الإنسان بالإنسان ٣٢٠ — البخل بالكلمة ٣٢١ — البر والأرقام ٣٢٢ — التقليد في الشر والخير ٣٢٣ — هل تسعد بنجاحك أو تشقى به ؟ ٣٢٥ — طريقك لقتل الحسد ٣٣٦ .	
مصادر الكتاب	٣٢٩

مقدمة الطبعة الأولى

يارب . . . لقد تعلمتُ من أدب القرآن أن أنحني لك عند الخير شاكرًا ،
كما أني أُلجأ إليك في الضراء راجيًا ، وقد تحقق لي بالفراغ من هذا الكتاب
أملٌ طالما سعت لتحقيقه ، ووصلتُ به إلى هدف كان عزيز المنال ، فجئت
في مطلعهِ أشكر توفيقك ، وأعترف بعونك ، وأسجل أنه لولا يدك الكريمة ،
ولهامك الجُمُّ ، لتوقفتُ في السبل دون هذه الغاية .

يارب . . . بعد عشرين عاماً من العمل المثابر اكتملت «موسوعة النظم
والحضارة الإسلامية» بأجزائها العشرة على خير وجه . وهي تبرز بوضوح
أن هذه الحضارة منحة السماء لهداية البشرية ، وأن هذه الهداية تمتد إلى
مختلف الميادين ؛ في السياسة والاقتصاد ، وفي الحياة الاجتماعية والثقافية
والعسكرية ، وفي العلاقات الدولية . . .

يارب . . . كما ساعدت في إبراز هذا العمل وجعلته حقيقة واقعة ،
ساعد يارب في إيصاله إلى الناس وافتتاحهم به ، ليسيروا في الطريق الذي
رسمته قدرتك حتى يتحقق لهم خير الدنيا والآخرة .

يارب ... أنت وحدك الذي تعلم الجهد الذي بُدِلَ حتى تمَّ هذا العمل ،
فأحسنْ مكافأتنا عليه بما تراه نافعاً لنا .

* * *

وهذا الكتاب به من الفكر الإسلامي ما يواجه المسلم في حياته الاجتماعية ؛
فهو يشرح رأى الإسلام في المشكلات التي توجد في المجتمع سواء منها
ما اتصل بالمجتمع الصغير : مجتمع الأسرة ؛ كالزواج ، والأولاد ،
(م ٢ — الحياة الاجتماعية)

والختان ، وتحديد النسل ، وعمل المرأة أو ما اتصل بالمجتمع الإسلامي كله ، كراى الإسلام فى الأفراح ، والمآتم ، والأولياء والموالد ، والموسيقى ، والغناء ، والخمر ، والتدخين ، والقضاء والقدر . . .

ولإبراز رأى الإسلام فى هذه المشكلات الاجتماعية جميعاً ، شىء ضرورى حتى يعرف المسلم ماذا يفعل منها وماذا يدع ، فالإسلام كما ينظم للإنسان عقيدته ينظم حياته ، وكما يوضح شئون الدين يشرح أمور الدنيا ، والإنسان فى نظر الإسلام بشر ليست فيه عصمة الملائكة ، ولا طبيعة الحيوان الأعجم ، ويمكن بالتعليم والتدريب أن تسمو درجته ، كما أن الإهمال ينحط به إلى درك أسفل ، ويكبله إلى أسوأ ما فى الغرائز من بدائية وأنانية ، ومن أجل هذا ينظم الإسلام للإنسان من أمور حياته طعامه وشرابه وملبسه ، وينظم له خلقه وسلوكه ، ويشرح له الطريق السليم لمعاملة الآخرين ، فأية مشكلة تراها فى المجتمع فللإسلام فيها رأى ، فإن لم تجده منصوصاً عليه فى مصادر الإسلام الأولى ، فإنك ستجده فى قواعد الإسلام الكلية ، ومن الواجب أن يدرس العلماء — الذين هم أهل لـلإجتهد — هذه المشكلات ويقولوا فيها رأى الإسلام .

ولنعد إلى موضوعات هذا الكتاب لنقرر أن دراسة هذه الموضوعات ستبرز مدى الروعة واليسر والسباحة التى منحها الإسلام للبشرية ، فقد تعرض الإسلام للمشكلات التى تواجه الإنسان ، ونظم لها حلولاً تضمن السعادة للفرد وللمجتمع ، وتقود المسلم إلى خير الدنيا والآخرة ،

والحديث هنا عن الحياة الاجتماعية يرمى إلى إبراز سلوك الفرد وما يجب أن يكون عليه ، وبذلك يبعد هذا الكتاب عن كتابى « المجتمع الإسلامى : أسس تكوينه — أسباب ضعفه » وسائل نهضته » الذى يتكلم عن المجتمع ويدرس مشكلاته مجتمعه متكاملة .

ولهذا الكتاب ميزة تحببه إلى نفسه ، هى أنه كتاب ليس للخاصة وحدهم ، ولكنه كذلك للجاهل ، إنه يبحث المشكلات التى تحيا مع كل

فرد ، ونجيب عن هذه المشكلات في تودة ويسر ، وقد كنت أحاول دائماً في كتيبي أن أخرج عن دائرة المتخصصين إلى دائرة أوسع هي دائرة المثقفين ، وأراني في هذا الكتاب أدفع الدائرة لمزيد من الاتساع ليدخل في نطاقها الجماهير ، فقد كتبت هنا عن المرأة وعن العامل وعن الطالب والطالبة ، وعن الأب وعن الأبناء وعن الموسيقى والرياضة والأعياد والأفراح والمآتم ، وبودي أن يقرأ هؤلاء جميعاً ما كتبت لهم ، وأن يعيشوا معي في قراءة هذا الكتاب كما عشت معهم وأنا أجمع مادته وأدونه .

وتخصصي في مادة التاريخ جعل هذه الدراسة وثيقة الصلة بالتاريخ ، بل جعلها تنتفع بالتاريخ وأحداثه في كثير من الموضوعات ، ففي دراسة الأعياد سيرز أثر التاريخ في هذه الأعياد ، وفي الحديث عن المخدرات سنرى الدور الذي لعبته هذه المخدرات في التاريخ ، وفي موضوع التسول سنرى فلسفة الكرامية حوله وهكذا . وباختصار فإن عمده هذه الدراسة هي القرآن الكريم وأحاديث الرسول أولاً ، ثم هي ثانياً الفقه الإسلامي والتاريخ الإسلامي ودراسة الحياة الاجتماعية وتطورها والعوامل التي أثرت فيها .

وهذه الأفكار التي وردت في هذا الكتاب وضعت للتنفيذ ، وليست ترفاً تُقرأ وتترك ، إنها أسلوب حياة فرضه الإسلام وعرضناه على المسلمين لينفذوه ، وليس في أسلوب الإسلام حرمان من متعة طيبة ، بل بالعكس سيجد المسلم في هذه الآداب والمثل ما يحفظ عليه ماله ويرعى صحته وينمي خلقه الطيب ، وليس لمسلم بعد هذا أن يظل خاضعاً للتقاليد ، جارياً خلف العادات في شؤون الأسرة أو شؤون المجتمع ، فلنتبع في الزواج ، ومع الأولاد ، وفي الأفراح ، والمآتم ، هدى الإسلام ، لنرضى الله وننال الخير في الدنيا والآخرة .

* * *

ويمكن القول إن هذه الموضوعات لم تكتب من قبل على هذا النسق ، وقد بحث بعضها في مقالات أو فتاوى أو مذكرات ، واتجهت بعض هذه

الأبحاث اتجاهاً صحفياً أو خطابياً ، وقد عرضت كتبُ الفقه لبعض هذه المسائل ولكنها درست الجوانب الفقهية دون أن تربطه بدراسة المجتمع ، وقد حاولت أن أدرسها بتخطيط علمي متكامل ، وبعمق وإحاطة ما وسعني القوة ، وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا الهدف العظيم .

* * *

وعلى الرغم من أن تخطيط هذا الكتاب يرجع إلى الوراء عدة سنوات ، وإن إعداد مراجعه والقراءة له شغلت فترة طويلة من الزمن ، فإن كتابته أو كتابة أكثره تمت في السودان ، وقد سهل العلماء السودانيون بصدق وحاسة كل المشكلات التي اعترضتني وأنا أدونه ، وأسهم في ذلك أيضاً أمناء المكتبات وموظفوها بجامعة أم درمان الإسلامية وجامعة الخرطوم ، فقد أمدوني بسخاء بكل ما يتصل بهذه الموضوعات من مراجع ، وحسبي هنا أن أسجل الفضل لأبويه ، وحسبي كذلك أن أعمد هذا الكتاب خيطاً جديداً من الخيوط العديدة الوطيدة التي تربط شمال الوادي بالجنوب منذ فجر البشرية .

وفي ختام هذه المقدمة أتجه إلى الله أن ينفع بهذا الكتاب جماهير القراء وأن يثيب عليه كتابه ، وهو نعم المستول .

امتداد الخرطوم في ٢٢ من يناير سنة ١٩٦٨ .

دكتور أحمد شلبي

رئيس شعبة التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة أم درمان الإسلامية

فى تقديم الطبعة الثانية

كان سرورى بالغ الملى بهذا الكتاب ؛ فقد درست فى القضايا الاجتماعية المعاصرة ، ووضحت رأى الإسلام تجاهها ، وقد تلقاه الناس بكثير من الإقبال ؛ فعقدت الندوات لقراءته وتنفيذ ما فيه ، وكان مفكرو مدينة « المنيا » من أهم من أحسنوا استقباله ، فقد جلسوا إليه ، وكتبوا لى ، وعملوا على تحقيق ما نادى به .

و درست هذا الكتاب ببعض الكليات ، وسعدت لأنى استطعت به أن أنقل طلابى من زمرة المستسعين لى جماعة المفكرين والباحثين ، فأصبحوا إذا جرى أمامهم حديث عن تنظيم النسل أو رأى الإسلام فى الموسيقى، أو غير ذلك ، يُبدلون فيه برأىهم بعد أن كانوا يستقبلون ما يقوله الآخرون .

شكراً لله واهب النعم على حسن توفيقه ، ودعاءً أن يكون الله معنا لنقدم للدين والوطن ما يحتاجه الدين والوطن ، وبخاصة فى هذه الآونة القاسية التى يمر بها ديننا الحنيف ووطننا العزيز .

والله ولى التوفيق . .

دكتور أحمد شلبى

فى الثانى من يناير ١٩٧٣

مقدمة الطبعة الرابعة

يسرني غاية السرور أن أقدم الطبعة الرابعة من هذا الكتاب الذي يصور للمسلم دستور تحياته في شئون الأسرة والمجتمع ، فالإسلام يُعنى بجانبين مهمين : أولهما علاقة الإنسان بربه ، وثانيهما علاقة الإنسان بالإنسان وبالمجتمع ، وهذا الجانب الثاني هو موضوع هذا الكتاب .

ولهذا كان هذا الكتاب شديد الارتباط بكل مسلم أياً كان اتجاه ثقافته ، ليعرف هذا الجانب المهم من جوانب المعاملة في الإسلام .

وكنيت في الطبعة الثالثة من هذا الكتاب أضفت إضافات مهمة نتيجة البحث المتصل والجهود الدءوب مثل « دراسات جديده عن عمل المرأة » ومثل « حماية المال العام » .

وكنيت كذلك حذف جانب المال وألحقته بكتابي « الاقتصاد في الفكر الإسلامى » لنجمع العناصر الاقتصادية في الإسلام في كتاب واحد ، وبخاصة تلك الموضوعات المثيرة مثل « شهادات الاستثمار » « والإيداع » « والتأمين » . . .

وفي هذه الطبعة الأخيرة مزيد من الإضافات ، وبخاصة عن الأحداث التي يعانى منها المجتمع الإسلامى بوجه عام بل المجتمع البشرى كله ، وتعانى منها بلادى الحبيبة بوجه خاص ، ولهذا قدمت هنا دراسات موثقة طبية وشرعية عن السموم البيضاء ، وإضافات ذات بال عن التدخين والمخدرات ، لعل رأى الإسلام في هذه الشئون ينير الطريق للبشرية التي تلعب بها يد السوء .

ووضحت أن شباب مصر ضرب الصليبيين في « حطين » وضرب الصهاينة في العاشر من رمضان ، ولهذا تتجه الأيدي الآثمة لضربه من الخلف .

وفى هذه الطبعة أيضا دراسات عن « نظافة الباطن » فليست نظافة الظاهر هي وحدها الذى يريد بها الإسلام عند الحديث عن النظافة .

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب مؤلفه وقارئه ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

دكتور أحمد شاذلي

المعادي في الثانى والعشرين من يناير سنة ١٩٨٦

الباب الأول
مباحث اجتماعية
في نطاق الأسرة

الزواج

دوافعه وأهدافه وحكم الإسلام فيه

الأزدواج أساس الكون :

تفيد نصوص القرآن الكريم أن الزوجية (الازدواج) لا الفردية هي طبيعة المخلوقات في هذا الكون، وكان مبدأ الكون أن خلق الله سبحانه وتعالى آدمَ ثم خلق منه حواء ليبدأ الازدواج مع بدء الكون، قال تعالى « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » (١) .

وسارت الزوجية على هذا المنوال ، فشملت عناصر الكون كاه من الإنسان والحيوان والنبات ، ومن غيرها مما لا نعلم ، قال تعالى :

— ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٢) .

— سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون (٣) .

وعندما عصا قوم نوح دعوة نبيهم، وحققت عليهم كلمة الله أن يبتلعهم الطوفان تلقى نوح من ربه أن يأخذ في السفينة من كل زوجين اثنين قال تعالى : « فاسلك فيها من كل زوجين اثنين » (٤) .

ومن هنا يفهم أكثر الباحثين أن الزوجية هي سنة كونية دقيقة واسعة المدى ، اتخذت مكانها في أفراد الكائنات، وقسمت كل نوع قسمين ، وحلت في أحد القسمين بسر يخالف السر الذي حلت به في القسم الآخر ، ولا تعطى سنة الله ثمرتها إلا إذا التقي السهران، وبدون هذا اللقاء تظل سنة

(١) سورة النساء الآية الأولى .

(٢) سورة الداريات الآية ٤٩ .

(٣) سورة يس الآية ٣٦ .

(٤) سورة المؤمنون الآية ٢٧ .

الله معطلة ، ويظل الحنين الأزلى ينازع كل فرد من أفراد الزوجين إلى اللقاء بالفرد الآخر (١) .

وكان ذلك السر هو أبرز دوافع الزواج .

أهداف الزواج :

وأهداف الزواج تتمشى مع هذه الفطرة ، فهي تُكْمَل في الرجل حاجته إلى المرأة ، وفي المرأة حاجتها إلى الرجل ، لتم الزوجية التي أشرنا إليها ، ومعنا آية كريمة وضحت هذا أدق إيضاح قال تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢) ، وقد بينت هذه الآية أن كلا من الزوجين يجد السكن والطمأنينة والاستقرار في الآخر ، وأن ذلك يؤدي إلى المودة والرحمة ، أي إلى الحب والتسامح مجتمعين .

وإذا صبح ما يقوله علماء النفس أن البنت تكون أكثر ميلاً إلى أبيها ، والابن يكون أكثر ميلاً إلى أمه ، لوجود بذور طبيعية من ميل الذكر إلى الأنثى والأنثى إلى الذكر ، فإن الزواج يحقق هذا الميل تحقيقاً مشروعاً برابط أقوى وأعمق توضحه الآية الكريمة « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » (٣) .

وحسب البقاء هدف أسمي يحققه الزواج ، فالإنسان مع رغبته في حياة أطول يدرك أنه بالضرورة فان ، ولذلك يسعى إلى تحقيق بقائه عن طريق الأولاد والحفدة الذين يعتبرون في الحقيقة امتداداً له ، قال تعالى « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » (٤) .

وبتحقيق هذه الغاية يظل الكون في عمران .

ومن أهداف الزواج إنجاب الأولاد ، والأولاد متعة صورها القرآن الكريم أدق تصوير في قوله تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٥) وفي

(١) انظر منهاج الإسلام في الزواج والطلاق . للأستاذ البهي الخولي ص ١٠ .

(٢) سورة الروم الآية ٢١ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

(٤) سورة النحل الآية ٧٢ .

(٥) سورة الكهف الآية ٤٦ .

قوله « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » (١)، وعَدَّ الرسول صلى الله عليه وسلم الأولاد الصالحين من خير ما يخلفه الأب عندما قال : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، وصديقة جارية ، وولد صالح يدعو له .

والزواج تبدأ به الأسرة، وبالأسرة يبدأ الرجل في تحمل مسئوليات أوسع وأدق ، ويرى الباحثون أن الزواج والأولاد تدريب على تحمل المسئوليات ، وخطوة لتحمل تبعات أوسع تجاه الوطن وتجاه الإنسانية ، وعلى هذا فالرجل ذو الأسرة أشد حرصاً على سلامة وطنه لأنه عميق الجذور فيه ، وعلى العكس من ذلك نجد أن الرجل الذى لا أسرة له ولا أولاد ليس عميق الإحساس فى تحمل المسئولية تجاه وطنه وتجاه الإنسانية جمعاء ، وعندما خربت فرنسا تحت أقدام ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية صاح «بيتان» فى قومه بقوله « لم تريدوا أطفالاً وهجرتم حياة الأسرة وانطلقتم وراء الشهوات تطلبونها فى كل مكان ، فانظروا إلى أى مصير قادتكم الشهوات » .

على أن بعض الناس يتخذون الزواج وسيلة لقضاء الرغبة الجنسية ، وربما تناسوا ما عداها من أهداف ، وقد يُنعت هؤلاء بأن تصرفهم حيوانى ، ولكننا نقول بأن هذا النعت غير دقيق لأن الحيوان يمارس الجنس للتكاثر فى أكثر الأحوال وليس للذة المجردة ، فالذين يتخذون الزواج للرغبة الجنسية فقط ينحطون إلى درك أسفل من الحيوان .

بل يسير أناس آخرون إلى مدى أكثر انحلالاً فينظرون للرغبة الجنسية على أنها هدف ، ويعملون لتحقيقه بما يرونه أيسر وأسهل من الزواج ، فيهممون على وجوههم ، يقضون اللذة هنا مرة ، وهناك أخرى ، ثم ينسحبون بعد ذلك وهم يجرون أذيال الخيبة والضياع ، وهؤلاء نماذج ينبغى القضاء عليها لصالح الفرد

ولصالح المجتمع ، فالإنسان ينبغي أن يتزوج للمعانى الكثيرة التي أشرنا إليها وليحظى بلذة أدوم وأطول ، لا في لحظات العلاقة الجنسية فحسب ، ولكن في كل ساعات العمر ، وإننا لنسائل هؤلاء : ماذا يكون حالهم عندما يضعف الجنس أو ينقضي ؟ والجواب أنه لا جواب عندهم إلا الوحدة والوحشة والضياع ، وأعرف شخصاً أعرض عن الزواج متخذاً من مسئولياته تجاه أخواته اللاتي تزكهن له أبوه ذريعة لذلك ، وشغل فراغه بالأندية والرحلات ، وكان العقلاء من رفاقه يصيحون فيه : تزوج لشيخونختك . وظل هذا متردداً ، ولكن سرعان ما انفضت أخواته عنه ، بأن التحقت كل منهن ببيت الزوجية الذي قدر لها ، وعاق تقدم السن هذا الشخص عن الاستمرار في طوه ورحلاته ، فكان يمر عليه اليوم واليومان لا يخرج من البيت ولا يدق بابه أحد .

ونعود لحديث أطول قليلاً عن اللذة الجنسية التي تصحب الجنس لنقرر أن بعض العلماء يراها خديعة الطبيعة للذكر والأنثى ، فالأولاد مسئولية كبرى يتحملها الأب والأم ، والحمل والولادة والتربية عبء ضخم تتحمله الأم والأب ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المتاعب بقوله « ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كُرهاً ووضعته كُرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » (١) وفي آية أخرى « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين » (٢) وربما تأثر بعض الناس بذلك فامتنعوا عن الزواج ، ولذا تدخلت الطبيعة بخديعتها على نحو ما تفعل الزهرة لتجذب لها النحل للقاح ، وكانت الخديعة هذه المرة في اللذة التي تصحب عملية الجنس ، ومن هنا ينبغي ألا يتورط الإنسان في هذه الخديعة فيجعلها هدفاً وليست في الحقيقة بهدف .

على أن غريزة الجنس لا يمكن إغفالها وهي موجودة في الإنسان والحيوان ، ويقضيها الحيوان بشكل غير منظم ، وفي العصور القديمة كان

(١) سورة الأحقاف الآية ١٥ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٤ .

الإنسان الأول يقضيها على هذا النحو ، وقد عرف العرب وغيرهم من الشعوب عملية الاشتراك في المرأة أو تعدد الأزواج إن صح أن نسميهم أزواجاً ، وعرف الغرب في هذه الأيام صوراً من إباحية الاتصال الجنسي ، ومن الواضح أن هذا يخلق اضطراباً كبيراً في المجتمع ، ويدع في النهاية امرأة ضائعة بعد أن تفقد جاذبيتها في هذه الحياة الممجة ، كما يدع الطفل الذي قد يحىء نتيجة لهذه الاتصالات وليس هناك أب يتحمل مسؤوليته ، وقد شرعت الأديان الزواج لتنظيم هذه الغريزة ، ولتنقل الإنسان إلى المستوى الذي يناسب خلقه ، قال تعالى « ولقد كرّمنا بني آدم » (١) ولا شك أن من تكريمهم أن يرفعهم عن درجة الحيوان وعن درجة الحياة البدائية التي هي أقرب إلى الحيوانية .

الأم الآنسة :

وقد ذكرنا في كتاب « الإسلام » من سلسلة « مقارنة الأديان » أن الإعراض عن الزواج في الغرب والاكتفاء بالاتصال الجنسي بدون زواج عود إلى الحياة البدائية ، وهو يخلق مشكلة تهدد الأسرة وتهدد مستقبل الجيل القادم ، فقد نتج عن الصلات غير المشروعة وعن ما يسمونه « الأم الآنسة » آلاف المواليد الذين لا يعرفون لهم آباء ، وقد ذكرت الإحصائيات الرسمية أنه بين كل تسعة أطفال ولدوا في لندن خلال عام ١٩٦٠ طفل لم تزوج أمه وتُسَمَّعُ المواليد عدد كبير جداً ، فقد أثبتت هذه الإحصائيات أن عدد المواليد في لندن خلال ذلك العام بلغ ٥٧,٣٦٨ طفلاً (٢) ، ومن هنا يبدو أن الزواج - كما هو ضروري للفرد - ضروري للمجتمع .

حكم الإسلام في الزواج :

وهذا يصل بنا إلى إبراز أن الزواج في الإسلام واجب إن احتاجه الإنسان وقدر عليه ، قال تعالى « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » (٣) وقد فسر الإمام القرطبي ذلك بقوله : زوجوا من لا زوجة له

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠ .

(٢) الإسلام : ص ٢٣٧ من الطبعة الثامنة .

(٣) سورة النور الآية ٣٢ .

منكم فإنه طريق التعفف (١) فإذا لم يقدر المسلم على تكاليف الزواج ، وتحركت رغبته الجنسية فإن الرسول يصف له العلاج ليوقف هذه الرغبة ويكسر حيلتها قال صلى الله عليه وسلم : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » فإذا لم يتزوج القادر على الزواج ، المحتاج إليه ، فهو عاص آثم . قال عليه السلام : من كان موسراً لأن يتزوج ثم لم يتزوج فليس مني . فإذا أمن المسلم على نفسه العنت لم يعد الزواج واجباً بل يصبح مندوباً إليه أو مباحاً بحسب حالة الإنسان من الرغبة أو عدمها . ومن اليسر والعسر (٢) . وليس في الإسلام أن يُستخذى الإعراض عن الزواج مظهراً من مظاهر التقربى والورع ، قال عليه السلام : ليس في ديني ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع .

وقد صح أن أناساً جاءوا إلى زوجات الرسول يتعرفون عن طريقهن ألوان العبادة التي يقوم بها صلى الله عليه وسلم ، والتي سببت أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وقد روى أن هؤلاء بدعوا يعلنون استعدادهم للتضحية بمتع الحياة ظانين أن في ذلك ما يقربهم إلى الله ، فقال أحدهم : إني لا أكل اللحم أبداً ، وقال آخر : وأنا لا أتزوج النساء أبداً . وقال ثالث : وأنا أقوم الليل ولا أنام على فراش . فلما عرف الرسول ذلك خرج وصاح فيهم : ما بال قوم يقولون كذا وكذا ، والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني .

حكم الزواج في المسيحية :

والإسلام بهذا يبعد عن المسيحية بعداً شاسعاً ، لأن المسيحية تحت أتباعها على عدم الزواج ، ولا تبيحه لهم إلا عند خوف الزنا ، وقد روى «متى» عن عيسى قوله : يوجد نخصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد

(١) تفسير القرطبي .

(٢) ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج ٢ ص ٣ .

نخسبان نخساهم الناس ، ويوجد نخسبان نخسوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يقبل فليقبل (١) .

ويزيد بولس هذا الموضوع شرحاً فيقول : حسن للرجل ألا يمس امرأة ، ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته ، وليكن لكل واحدة رجلاً وأقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا ، ولكن إذا لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن الزواج أصلح من التحرق في النار بسبب الزنا (٢) .

وتأثراً بهذه التعاليم أصدر مجمع الفيرا Elvira بأسبانيا في القرن الرابع الميلادي قراراً بتحريم الزواج والابتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة ، وفي أواخر القرن الحادي عشر أصدر البابا جريجورى السابع أمراً بوجوب العزوبة وتحريم الزواج على جميع القساوسة والرهبان كبارهم وصغارهم « حتى لا تتدنس صفاتهم الكهنوتية بالاتصال الجنسي » ومع أن هذا القرار قد لاقى في مبدأ الأمر معارضة شديدة في كثير من المناطق المسيحية ، فإنه لم يكده ينهى القرن الثالث عشر الميلادي حتى كان نظاماً مقررأ في الكنيسة الكاثوليكية ومطبّقاً على جميع القساوسة والرهبان من الرجال ، والراهبات من النساء (٣) .

(١) متى ١٩ : ١٢ .

(٢) كورنثوس الأولى ١٧٧ : ٢ و ٨-٩ .

(٣) انظر كتاب المسيحية للمؤلف ص ١٢٦ من الطبعة الثامنة .

الاختيار عند الزواج

يقضى الإسلام بأن الاختيار في الزواج حق يشترك فيه الفتى والفتاة وأهل الفتاة ، ورضاء هؤلاء الثلاثة ضروري لتمام الزواج ، وإذا كانت التقاليد تقضى بأن يتقدم الفتى لأهل الفتاة يطلب ابنتهم ، فإن ذلك هو ظاهر الأمر ، ولكن الأمر يكون حقيقة قد دُبّر بين الأطراف الثلاثة قبل ذلك .

وربما كان الحياء — وهو أعز شيء لدى الفتاة — يمنعها من أن تعلن اختيارها ، ولكن ذلك لا ينطبق في الإسلام على أهل الفتاة ، فالتاريخ الإسلامي يرينا أن والد الفتاة كان يخطب لابنته ، فيروى أن عمر بن الخطاب ذهب إلى عثمان بن عفان يعرض عليه ابنته حفصة ، ولكن عثمان سكت ولم يرحب بالعرض ، فذهب عمر إلى الرسول يشكو له الأمر ، وفي هذا اللقاء حصل عرض جديد على عثمان فقبل قال الرسول لعمر: يتزوج ابنتك من هو خير لها من عثمان ، ويتزوج عثمان من هي خير له من ابنتك ، وبهذا خطب الرسول حفصة لنفسه وخطب عثمان لابنته ، فاختيار أهل الفتاة زوجاً لها شيء مهم حفاظاً على حياتها وحرصاً على خيرها ، ومن الواضح أن الأم تكون صدى لرأي ابنتها ، فالبنت لا تهمل أبداً ، ورأيها يكون دائماً معروفاً عن طريق أمها .

ذلك هو التفكير الإسلامي في الاختيار ، وإذا استبد أي جانب من هذه الجوانب الثلاثة أوقفه الإسلام ليأخذ كل حقه ، قال صلى الله عليه وسلم : لا تزوج الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن ، وقال : الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن في نفسها ، وإذنها صممتها ،

ومما جاء في الثيب ما ورد في الصحيحين أن خنساء بنت جوزان ، زوجها أبوها وهي كارهة فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد نكاحها ، وروى ابن ماجه أن رجلاً يدعى خزاما زوج ابنته له فكرهت اختيار أبيها ،

فأثت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك ، فرد عنها هذا الزواج ، فتزوجت أبا لبابة بن عبد المنذر . وروى يحيى بن سعيد أنها كانت ثيبا ، وعن البكر يروى ابن عباس أن بكراً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالت يا رسول الله إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته (لم تذكر أنها كارهة لهذا الزواج) فجعل الرسول الأمر إليها ، أى إن شاءت أقرت الزواج ، وإن شاءت أبطلته فقالت : قد أجزت ما فعل أبى ولكنى أردت أن يعلم النساء أن ليس الأمر للآباء . ويوضح ابن القيم حق المرأة بقوله : إن البكر البالغة العاقلة الرشيدة لا يتصرف أبوها فى أقل شىء من ملكها إلا برضاها ، ولا يجبرها على إخراج اليسير منه ، فكيف يجوز له أن يتصرف فيها هى بدون رضاها ؟ ومعلوم أن إخراج مالها كله بغير رضاها ، أسهل عليها من تزويجها بمن لا تريد (١) .

وإذا استبدت الفتاة واختارت لنفسها دون رضا الأب فإن الإسلام يقر لها ذلك الحق مادامت قد أحسنت الاختيار ، ولم تخدعها مظاهر كاذبة ، أما إذا انحرفت فى الاختيار وتزوجت غير كفء أو بدون مهر المثل ، فإن للأب حق الاعتراض لأن عقد الزواج وقيمة المهر لهما اتصال بالأسرة وبمستقبل البيت بما قد يخفى عليها فى طيش شبابها ، فلأولياء فى ذلك الأمر بعض الشأن ، فإن شاءوا اعتبرضوا وحالوا دون هذا الزواج ، أو أبطلوه إن كان قد تم ما دامت الفتاة قد أساءت استعمال حقها (١) . وفى حياتنا المعاصرة ذكرت الأنباء أن فتاة من أسرة كبيرة استهواها فتى رياضى ، لم تكن عنده ميزة أخرى غير ميزة البراعة فى الرياضة ، فأرادت أن تزوج به ، واستعمل أبوها حقه فى منعها وأيده المفكرون المسلمون لأن مثل هذا الزواج لو تم يكون قصير العمر ، فستفيق الفتاة بعد قليل لتجد أن بيت الزوجية لا يضمن لها شيئاً من الراحة والاستقرار ولا مطالب الحياة ، وينبغى أن يتضح أن الاعتراض بعدم الكفاءة فى الزواج حق للولى الأقرب ، فليس للأخ حق الاعتراض مع وجود الأب ورضاه ، وهكذا .

(١) أعلام الموقعين .

(٢) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : الإسلام فقيدة وشريعة ص ٢٤٣ .

الأسس التي تراعى في اختيار الزوج :

ما الأسس التي تراعى في اختيار الزوج واختيار الزوجة ؟

في الإجابة عن هذا السؤال نورد مجموعة من الأحاديث الشريفة التي تلقى ضوءاً وأضحاً على هذا الموضوع ، وتوجّه المسلم إلى الطريق القويم ، قال صلى الله عليه وسلم :

- إياكم ونخسراء الدمن ، قالوا : وما نخسراء الدمن يا رسول الله ؟

قال المرأة الحسناء في المنبت السوء .

- تنكح المرأة لأربع : لمالها ، وحسبها ، وجمالها ، ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك .

- لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يردين ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل .

- من تزوج امرأة لحسنها لم يزد الله إلا دناءة .

- إنما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة .

- تزوجوا الودود الولود فلأنى متكاثر بكم الأمم يوم القيامة .

- ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرتة ، وإن أقدم عليها برته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله .

ومن هذه الأحاديث يظهر أن الرسول يختار لنا الخير ، فهو يأخذ بيد المسلم ليضعها على الدين والخلق ، وهما كل الثراء في المرأة ، فإن وُجد معهما مال أو حسب أو جمال فلا خوف ، لأن المرأة المتدينة ذات الخلق الطيب لن يطغىها المال ولا الجاه ولا الجمال ، وستجعل هذه الأشياء وسائل لإسعاد الحياة الزوجية ،

وإذا لم توجد هذه الأشياء مع الدين والخلق فلا خير . لأن هذه الأعراض

من طبيعتها الزوال ، ومن الخطأ أن يسعى الإنسان لثرائل ، بل عليه أن يخطب
أعلى ما يطلبه الزوج وهو دين المرأة وخلقها ، وكم من أناس أعماهم المال
أو الجاه أو الجمال فخطبوا المرأة لذلك ، ولكن لم ينفعهم المال ولا الجاه
ولا الجمال ، وسرعان ما تراهم يفتحون عيونهم على اللب الذي وقعوا فيه
ويحاولون الفرار منه .

وعلى هذا فالإسلام ليس عبو المال ولا الجاه ولا الجمال ، ولكنه يحذر
أن تكون هذه العوارض هي الدافع الرئيسي ، بل ينبغي أن يتذكر الفتى أن
الزواج — كما قلنا — سكن ومودة وتراحم وأولاد ، فيلزم أن يخطب المرأة
التي بها هذه الصفات ، وبعد ذلك لا مانع من صفات الجمال أو الجاه . . .
فإنها هنا وسائل للقربى ، ولكنها إن انفردت وحدها كانت وسائل للقطيعة .

ومثل هذا يقال في اختيار الزوج ، فدينه وخلقه أصل لا يحصى عنه ،
ولا ضرر أن يفضل بعد ذلك ذو المال ليستطيع أن يراعى الأسرة ويضطلع
تربية الأولاد ، قال صلى الله عليه وسلم : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه ،
فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ، وجاءته فاطمة
بنت قيس تستشيره وقد خطبها ثلاثة أحدهم أسامة بن زيد ، فاختار الرسول
لها أسامة وقال عنه إنه أكثرهم مالا وأحسينهم عشرة ، وقال عن الأول
إنه فقير ، وعن الثاني إن به قسوة . وهكذا كان للمال وزن عند التساوي
في الصفات الأخرى (١) .

التقارب الفكري :

وهناك شيء مشترك ينبغي أن يلاحظ عند اختيار الزوج واختيار الزوجة ؛
ذلك هو التقارب الفكري والتقارب الثقافي ، ولنا نقصد المستوى العلمي
ولذلك استعملنا كلمة الثقافة دون كلمة العلم ، كما أننا لا نقصد أن يكون
الزوجان في مستوى واحد ، ولذلك استعملنا كلمة التقارب ، والزواج

(١) ابن رشد : بداية المجتهد ج ٢ ص ٤ .

الذى يبعد فيه المستوى الفكرى والثقافى بين الزوجين زواج لن يحقق السكن والتواد وتنظيم شئون الأولاد على النحو الذى أشرنا إليه ، ولن يضمن استقراراً عائلياً . فستكون مشكلات الزوج بعيدة عن مستوى الزوجة ، وأفكار الزوج نائية عن أفكار الزوجة ، فلا تضمهما مشاورة ولا تواد ، ويعيش كل منهما فى عالمه الخاص وإن ضمها جدار واحد ، وأذكر أن شاباً التحق بكلية الهندسة ورغب أهله فى تزويجه وهو فى سنيه الأولى فى هذه الكلية وخطبوا له فتاة قروية فيها مسحة من جمال ، وأذكر أننى اعترضت على أن يتم هذا الزواج للتباعد الثقافى الذى إن لم يكن شاسعاً عند الخطبة ، فإنه سيظهر مع الأيام ، وتم الزواج على أى حال ، وأثمر بعض الأطفال ، ومراً الزمن وأصبح الزوج مهندساً له مكانة فى وسطه الاجتماعى ولم تستطع القروية المسكينة أن تلحق به ، وعاشت ردىاً من الزمن فى شبه انعزال عنه ، فقد كان يزور ويزار ويرحل ويعود دون أن تشترك فى ذلك ، وجاءت النتيجة التى كنت أتوقعها إذ تزوج الزوج من أخرى تستطيع أن تملأ فراغ حياته وفشلت الزيجة الأولى .

وربما كان الزواج مع تباعد الثقافة محتملاً فى الأيام الماضية ، يوم كانت الزوجة قعيدة البيت ، وازوجها انطلاقته خارج البيت ، أو بعبارة أخرى يوم كانت مهمة الزوجة مقصورة على مشكلات المنزل ، وهى مشكلات يراها الإسلام أقل من السكن ومن التواد ومن التراحم ، وأقل من المشاركة فى أمور الحياة ومشكلاتها ، تلك التى تجعل الأسرة بحق نواة طيبة للمجتمع الكبير ، وتذكر لنا سيرة الرسول أنه بعد صلح الحديبية أمر عليه السلام أصحابه أن يفكوا إحرامهم ويحللوا شعورهم وينحروا ، فلم يستجب المكثرون له لشدة رغبتهم فى دخول مكة آنذاك ، وعدم التأجيل لعام قادم ، ودخل الرسول إلى زوجته المرافقة له فى هذه الغزوة وهى أم سلمة ، وقد أخذ الغضب منه كل مأخذ ، وراح يقول : « هلك المسلمون ، أمرتهم أن يحلقوا وأن ينحروا فلم يفعلوا » فقالت : يا رسول الله إنهم راموا أمراً فى الله فلم ينالوه ، فكان حزنهم لما فاتهم حزناً عظيماً ، فإن أردت أن تحملهم على طاعة الله ورسوله ، فاخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة ، حتى تنحر بدنتك

وتدعو حالقك فيحلقك .» فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى المسلمون ذلك انقطع أملهم في دخوله مكة ، فقاموا ونحروا ، وجعل بعضهم يخلق بعضاً ، وهكذا كان فكز الزوجة في مستوى الأحداث ، فاشتركت في الأحداث بنجاح . . .

ومن واجب الزوج بلا شك أن يأخذ بيد زوجته ، وأن يحاول أن يقرب فكرها من فكره إن كانت أقل منه ، ذلك حق لا مراء فيه ، ولكن استجابة الزوجة في كثير من الحالات تكون عسيرة لو كان الفرق الثقافي شاسعاً ، فالمهندس الذي أشرنا إليه آنفاً كان يمكن أن يأخذ بيد زوجته لو كانت لها ثقافة متوسطة أو ثقافة قريبة منها ، ولكنه ما كان يستطيع أن ينقلها من الأمية والتخلف الاجتماعي إلى حياة تناسبه ، وقليل من الأزواج من له صبر المعلم ، ولذلك يحسن أن يحرص الفتى والفتاة على نوع من التقارب العقلي والثقافي حرصهما على التقارب الاجتماعي والخلق الطيب . . .

وكما يوصى الفتى باختيار فتاة قريبة الثقافة منه ، فإن الفتاة توصى كذلك ألا تقبل فتى أقل منها في الثقافة ، وأمامي الآن مجلة مصرية ، وفي إحدى صفحاتها تتحدث المحررة عن سؤال طرحته على عدد من خريجات الجامعة فيهن الطبية والمهندسة والمحاسبة . . . وكان السؤال هو : . . .

عامل استطاع بجهده أن يصل إلى مرتب قدره مائة وخمسون جنيهاً شهرياً (كان هذا المبلغ آنذاك كبيراً جداً) ، يعمل بطريقة المناوبة ، وتبعض نوبات عمله مسائية ، هل تقبلين الزواج منه ؟ . . .

ولم تكن مسألة المناوبة والعمل المسائي ذات بال عند الفتيات ، فإنهن يعرفن ذلك عن طريق الأطباء والضباط والصيادلة الذين يقومون أحياناً بنوبات عمل مسائية ، ولكن الموضوع الملهم هو « العامل » وكل الفتيات مجدين للعمل فذلك هو اتجاه الفكر واتجاه العصر ، وكل الفتيات سألن لعاهن عنه ذكور المائة والخمسين جنيهاً التي كانت كبيرة جداً آنذاك ، ولكن لم تقبل واحدة منهن أن تزوج منه ، واتفقن جميعاً على أن مستوى تفكيره لن يضمن

للزوجية حياة استقرار ، وأن الخلاف بين الزوج والزوجة سيظهر في كل مشكلات الحياة ، وأن طريقة الكلام ، وطريقة المعاملة ، وطريقة تربية الأولاد ، وطريقة الصلة بالناس ، واختيار الأصدقاء . . . كل هذه ستكون مثار متاعب .

وأنا أوافقهن على هذا الاتجاه ، ولكنى كنت أتمنى أن تفكر إحداهن في ثقافة العامل ، فقد يكون كفاحه امتد إلى جانب الثقافة فنال منها طرفاً مناسباً رفع مستواه العقلي والاجتماعي ، وقد كان ييفن وزير خارجية إنجلترا في بعض سنوات العقد الخامس من هذا القرن يدير سياسة العالم ، وكان في يوم من الأيام عاملاً . وأعتقد أن عمالنا يوم يتجهون إلى تثقيف أنفسهم مستفتح لهم الأبواب . وتفتح لهم القلوب .

تجنب القرابة القريبة :

وهناك شيء مهم ينبغي أن يلاحظ عند اختيار الزوجة ، ذلك هو ألا تكون شديدة القرابة للزوج ، أو بعبارة أدق ألا تكون الفتاة والفتى منحدرين من أصول يقل فيها الدم الأجنبي ، وقد عبر الحكيم الأعظم صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله « اغتربوا لا تَضُؤُوا » بمعنى أنه من الخير للفتى أن يختب فتاة بها دم يختلف عن دمه وبذلك يضمن سلامة الأولاد ، وقد أثبت الطب الحديث صحة هذا الاتجاه . ففي حالة القرابة القريبة قل أن ينجو الأطفال من الأمراض الموجودة بالأسرة أو العيوب الموروثة ، ولكن إذا كان الفتى من أسرة والفتاة من أسرة أخرى فإنه يكثر أن ينال الأطفال خير ما في الأسرتين ، وأن يفلتا من عيوب أهل الأب وأهل الأم ، ولمزيد من إيضاح هذه المسألة وتطبيقها على الواقع ، نذكر أن هناك في بعض الجزر النائية بالمحيط الهادئ توجد قبائل عاشت غير مختلطة بسواها من القبائل الأخرى عدة مئات من السنين ، وكان الزواج يتم داخل أفراد القبيلة ، فإذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أن القبيلة مالت إلى الانقراض والضعف وأصبح أكثر رجالها أقزماً ضعاف العقول .

وليس ذلك نخاصاً بالجزر النائية أو القبائل المنعزلة ، فهنا في حياتنا قبائل وأسر عزلت نفسها باسم التقاليد والترفع عن سواها من القبائل والأسر ، وظل الزواج حتمياً داخل أفراد القبيلة لا يتعداها ، وبمرور الزمن برزت عيوب صعبة للغاية ؛ ضعف في البصر ، وقصور في التفكير ، وأحياناً تَغْيِيرٌ واضح في لون البشرة وكذلك في لون رموش العين والحواجب ، يحمل نتيجة أمراض الأسرة التي انحدرت من جيل إلى جيل ، وقد رأيت مثل هذه الحالات في السودان وقال لي ذووها إن الأطباء أعادوا هذا إلى تسلسل الزواج في دائرة ضيقة عدة أجيال .

وليس معنى هذا أن هناك ما يمنع أن يتزوج الفتى ابنة عمه أو ابنة خالته ما دامت زوجة عمه من أسرة غريبة وزوج خالته من أسرة نائية ، وكل ما نحسُّ عليه هو البعد عن تسلسل الزواج في دائرة ضيقة دون دم جديد .

والاغتراب عند الزواج لا يحقق نتائج صحية وعقلية فحسب ، بل يحقق أيضاً نتائج اجتماعية كبيرة ، وهي خلق صلات جديدة بسبب الزواج ، ولنا في هذا الاتجاه أسوة بالرسول الكريم . فقد تزوج صلى الله عليه وسلم من جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق عقب حرب طاحنة بين المسلمين وبين هؤلاء قتل فيها أبو جويرة . وقد قيل في أسباب هذا الزواج إن الرسول أراد به أن يزيل الحفيظة من قلوب بنى المصطلق وأن يحرر نساءهن اللاتي كن وقعن في الأسر ، فإن المسلمين خجلوا أن تظل نساء بنى المصطلق سبايا في أيديهم وقالوا : أصهار رسول الله ، وأعتقوهن تكريماً لهذا الزواج (١)

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ وابن القيم : زاد المعاد : ج ١ ص ٢٧ .

الزواج من كتابية

في طريقنا إلى الكلام عن حكم الإسلام في الزواج من الكتابية ، نذكر كلمة موجزة نقرر فيها أن الإسلام يحرم زواج المسلمين من اللادينيّات ، ومن عبدة الأوثان ، ومن أتباع الأديان الطبيعية أي الذين يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأنهار ، كما يحرم الزواج من عبدة النار « المجوس » ، وإن كانت لهم شبهة كتاب ، فكل هؤلاء أشركوا مع الله إلهاً سواه ، والله سبحانه وتعالى يقول فيهم « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن » (١) ويقول « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » (٢) ، ولم يبح الإسلام الزواج من مشركة لأن الزواج سكيّنة ومودة ، ولا يمكن أن تتحقق السكيّنة والمودة مع هذا الاختلاف الشاسع في الاعتقاد .

ونجىء بعد ذلك للكلام عن الكتابية ، وبإحدى ذى بدء نحب أن نوضح أننا سنعقد حديثاً خاصاً للكلام عن « الزواج من أجنبية » أي من امرأة من أهل الكتاب ومن رعايا دولة غير إسلامية ، ونحن بذلك لا نريد أن يختلط الأمر ، فكثير من الدراسات نجده عند الكلام عن الزواج من كتابية يتجه إلى الحديث عن الزواج من أجنبية وهو اتجاه لا نوافق عليه ، وفي ضوء هذا يتضح لنا التقسيم الذي سنتبعه وهو :

أولاً :

الزواج من مسلمة في دولة إسلامية موضع إجماع في حله ، وفي أفضليته على سواه ، وقد قلنا دولة إسلامية لأن الأمة الإسلامية في نظر الإسلام أمة واحدة ، قال تعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٣)

(١) سورة البقرة الآية ٢٢١ .

(٢) سورة الممتحنة الآية العاشرة .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٢ .

وعلى هذا فلا فرق في نظر الفكر الإسلامى بين زوجة من إندونيسيا وبين زوجة من المغرب أو زوجة من أى قطر من الأقطار الإسلامية الواقعة بين إندونيسيا والمغرب ما دامت الزوجة مسلمة .

وتلحق بهذا النوع المرأة المسلمة في دولة غير إسلامية ، على ألا يكون إسلامها من أجل الزواج ، بل يكون إسلامها أصيلاً ، إسلام أسرة أو إسلام عقيدة ، أما الإسلام من أجل الزواج فلنا معه حديث آخر سيأتى فيما بعد ، والإسلام الذى حددناه لهذه المرأة (إسلام الأسرة أو إسلام العقيدة) يعطى هذه الفتاة حقوق المسلمة تماماً ، ويجعل نقلها إلى قطر إسلامى عملاً يدعم حياتها ويوجه كل إخلاصها وولائها لبلاد زوجها .

ثانياً :

الزواج من كتابية ، ونحب هنا أن نخصصها بالذمية أى التى تعيش في بلاد خاضعة لأحكام الإسلام كزواج المصرى من فتاة مسيحية أو يهودية تعيش في مصر أو في بلد إسلامى آخر .

ثالثاً :

الزواج من كتابية أجنبية أى من كتابية من رعايا بلاد غير إسلامى .

وفي هذا الضوء نبدأ الحديث عن الزواج من كتابية ذمية :

تقول الآية الكريمة « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل بكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » (١) ، وهذه الآية كان الاتجاه العام إلى جواز زواج المسلم من ذمية ،

(١) سورة المائدة الآية الخامسة .

والإسلام بذلك يقرر مبدأ لم يسبق إليه ، وهو أن الإيمان بالله يمكن أن يصبح دعامة تقام الأسرة عليها ، وهدف الإسلام من ذلك خلق لون من الترابط بين الدمين والمسلمين ، والعمل على أن تنتشر المحبة والألفة بين هؤلاء وأولئك ، والذمية في ظل الإسلام ستباشر تعاليم دينها دون اعتراض من الزوج ، وستجد الزوج يحترم نبيها ويحترم الكتاب الصحيح المنزل عليه ، لأن الإسلام يحتم عليه ذلك ، وقد تؤدي هذه الأسس إلى جذب المرأة نحو الإسلام لإحساسها بضيق المسافة بين عقيدتها وعقيدة زوجها ، ويقرر الإسلام أن الأولاد يتبعون الدين الأعلى أى دين الإسلام ، ويلزم أن تكون تربيتهم وتنشئتهم حسب الفكر الإسلامى وتعاليمه .

لا زواج الآن من يهودية :

ذلك هو أصل الاتجاه الإسلامى ، بيد أن أهـ ورآ جمة ينبغى أن تراعى لمباشرة هذا الاتجاه ، وفي كلمة موجزة يمكننا أن نقرر أن هذا الحكم يلزم وقف العمل به الآن مع اليهودية الذمية ، فليس هناك ضمان على الإطلاق لجعل ولاء اليهودية تاماً إلى أسرتها الإسلامية في هذه الأيام ، ويغلب أن تستغل مكانتها من الأسرة لخدمة أبناء دينها ، ثم إن اليهودية لا يوثق بها ألبتة في موضوع تربية أولادها فلن تربيتهم تربية إسلامية ، ومن الملاحظ أن أكثر الكتاب عند حديثهم عن الكتابية ، لم يعرضوا للحديث عن اليهودية ، مع أنها في رأى الإسلام من أهل الكتاب ، ولذلك عرضنا لها لنقفل هذا الباب .

المسيحية الذمية :

ونجىء إلى المسيحية الذمية لنقرر — بعد أن ذكرنا لإباحة الزواج منها — أن الرجل الذى يريد الزواج ينبغى عليه أن يتذكر الأسس التى أوردناها من قبل عن المرأة التى يزعم اختيارها ، فقد حثناه هناك أن يكون شديد الحرص على تدين المرأة وخلقها وأن يفضل ذات الدين على ذات الجمال والحسب والنسب ، وأوردنا له قول النبى صلى الله عليه وسلم : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » ، ونحن هنا

نعود فنذكره بذلك، فالمسلمة المتديّنة الحريصة على دينها أفضل للمسلم ، ويقرر الأحناف والمالكية أن الذمية يكره نكاحها تنزيهاً ، وقد عللوا لذلك بأن الذمية لا يحرم عليها شرب الخمر ولا أكل لحم الخنزير ، ولا الذهاب إلى الكنيسة وليس لزواجها منعها من ذلك ، ويخشى أن تغذى الأولاد به فيشبهوا على مخالفة الدين ، ويرى مذهب مالك أن هذه الأشياء إن اشتهرت وكثرت فلا يجوز الزواج من الذمية معها ، ويكون الإقدام على العقد محرماً (١)

وجانب آخر يثيره بعض الباحثين من المسلمين ، فإنهم يزعمون ضرورة ملاحظة تكامل التشريع ؛ فالإسلام الذي أباح للمسلم أن يتزوج ذمية وضع القوامة في يد الرجل ، قال تعالى « الرجال قوامون على النساء » (٢) وهذه القوامة تضمن سلطان الرجل على الأسرة ونفاذ رأيه فيما يتعلق بتنشئة أولاده ، فإذا وَهَنَ أمر القوامة ، وقلَّ سلطان الرجل على الأسرة كما تميل بعض الأوساط التي تدعى المدنية في العهد الحاضر ، فإن إباحة الزواج من ذمية ينبغي أن تتوقف حرصاً على سلامة منزل الزوجية وسلامة الأولاد (٣) .

وجانب ثالث يثيره بعض الباحثين ، هو أنه إذا كان عدد المسلمين قليلاً في بلد - كجالية من الجاليات مثلاً - فالأرجح هنا أن يحرم على رجالهم زواجهم بغير المسلمات لأن زواجهم بغير المسلمات في هذه الحال ، مع حرمة زواج المسلمات من غير المسلمين ، قضاء على بنات المسلمين أو على فئة غير قليلة منهن بالكساد والبوار ، وفي هذا ضرر محقق على المجتمع الإسلامي ، وهو ضرر يمكن أن يزال بتقييد هذا المباح وتعليقه إلى حين (٤) .

ويمكن أن نضيف جانباً آخر لا نراه أقل أهمية من هذا الجانب الذي سقناه آنفاً ، هو أنه في الأقطار أو المدن أو الأقاليم التي لا تبدو فيها الإسلام

(١) الجزيري : الفقه على المذاهب الأربعة : ج ٤ ص ٧٦ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٣ .

(٣) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : الفتاوى ص ٢٧٩ - ٢٨٠ بتصرف .

(٤) يوسف القرضاوى : الحلال والحرام في الإسلام ص ١٢٩ .

أغلبية. عددية واضحة ، ينبغي ألا يتزوج المسلم من ذمية فإنه إن فعل في هذه الحال أضعف جبهة المسلمين .

وكلمة ختامية ترمى إلى حسم الموضوع هي رأى عبد الله بن عمر وبعض التابعين ، ويرى هذا الرأى منع تزوج المسلم من الذمية شأنها شأن المشركة ، وحجتهم في ذلك أن الكتابية إذ غيرت وبدلت أو قبلت التغيير والتبديل في دينها فقد أشركت بالله ، ويستند هؤلاء في المنع إلى آيات بيِّنات يستنبطون منها هذا الحكم ، وهي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم فإِنَّه منهم » (١) وقوله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » (٢) .

ويقول ابن عمر في ذلك إن الله تعالى حرَّم المشركات على المؤمنين ولا أعلم من الإشراك شيئاً أكثر من أن تقول المرأة إن ربها عيسى وهو عبد من عباد الله عز وجل (٣) .

فلذا تزوج المسلم كتابية على رأى من يبيح ذلك ، ولكنه قصر في مراقبة تربية أولاده فإن ولايته على الأولاد تزول ، ويستند الإشراف عليهم إلى من من ينفذ تعاليم الإسلام حتى ينشأ الأولاد نشأة إسلامية سلمية .

(١) سورة المائدة الآية ٥١ .

(٢) سورة الممتحنة الآية الأولى .

(٣) ابن حزم : المحلى ج ٩ ص ٤٤٥ :

الزواج من أجنبية

اتضح مما سبق أن حديثنا هنا سيكون خاصاً بالمرأة الكتابية في دولة غير إسلامية ، وفي مطلع القرن العشرين كان العالم الإسلامي كله تقريباً خاضعاً للمستعمر الأوربي ، وهذا الخضوع خلق في بعض القلوب ولعاً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده وجعل المغلوبين ينظرون للمستعمر كقدوة وكمثل أعلى في الكمال أو ما يقرب منه (١) .

وعندما بدأت بذور النهضة العلمية في العالم الإسلامي ، تطلع الناس إلى أوروبا فانهالت عليها البعثات من البلاد الإسلامية ، وكان المبعوثون هم أنصح ما في البلاد الإسلامية من الشباب ، وقبل أن نعبث البحار إلى أوروبا مع هؤلاء الشباب ينبغي أن نقف وقفة قصيرة لنقرر أن الفتاة الإسلامية في ذلك الوقت كانت قليلة الثقافة ، فباسم الاستعمار والحجاب وضعت الحواجز بين المرأة والتعليم ، ولم تفتح لها منافذ ثقافية على الإطلاق ، اللهم إلا مبادئ أولية كان الموسرون يعملون على تقديمها لبناتهم عن طريق المعامير الخصوصيين ونذهب الشاب المسلم إلى أوروبا ، وفي ذهنه هذه الصورة الكالحة عن المرأة الإسلامية ، فوجد هناك كثرات من النساء يعملن ويتعلمن ، فقامت زمالات وصداقات بين الشباب المسلمين وهم زعماء المستقبل الإسلامي وقادة الفكر فيه وبين كثرات من هؤلاء الفتيات ، وعاد كثير من الشباب وفي إحدى يديه الدرجة العلمية التي ذهب إليها ، وفي اليد الأخرى امرأة تزوجها باسم ما أباحه الإسلام من الزواج بالكتابيات ، ولا شك أن بعض هؤلاء الزوجات نجحن في مكانتهن وأخلصن الود لحياتهن الجديدة ، ولكننا لا نبحث بنجاح حالة أو بضع حالات فكثيرات من هؤلاء فشلن ، فعدن إلى بلادهن ، أو بقين حيارى غريبات لم يندمجن في المجتمع ، ولم يصرن أعضاء صالحات فيه ، وإذا كنا نعرف صوراً من الناجحات فإننا نعرف

(١) الفصل الثالث والعشرون من الباب الثاني من مقدمة ابن خلدون .

كذلك صوراً من الفاشلات ، ولكن دراستنا هنا على أى حال دراسة للمستقبل
وهى ترمى إلى البناء لا إلى الهدم ، ولذلك فهى ترسم الطريق لمن لم يتزوج بعد ،
أما الأسر التى تقوم فعلاً على الزواج من أجنبيات فليس لنا معها إلا الدعاء
بالتوفيق ، وإلا تذكير الزوج بمسئوليته تجاه بيته وتجاه أولاده إن كان
فى حاجة إلى التذكير ، قال تعالى : « وذكّر فإن الذكرى تنفع
المؤمنين » (١) .

ونحب أن نقرر أنه إذا كان الرعيل الأول من المبعوثين قد أغزاهم
ما وصلت له المرأة الأوربية من ثقافة ، وبخاصة إذا قيست بالمرأة فى العالم
الإسلامى آنذاك ، فإن شبان العهد الحاضر يخلفون وراءهم بالبلاد الإسلامية
جحافل من المثقفات برزن فى نواح شتى من نواحى العلم والمعرفة ، وخطون
خطوات واسعة فى مجال الحضارة والمدنية ، فيجب على الجيل الحاضر أن
يتردد طويلاً قبل أن يقدم على الزواج من أجنبيات ، وإنه ليدور بخلدنا
خاطر ينبغى أن نبرزه ، هو أنه يقل جداً أن يتزوج شاب مسلم مصرى من
فتاة مسيحية مصرية مع ما بين الاثنين من رباط الوطنية واللغة والعادات ،
فليت شعرى كيف لا يتم هذا ويتم الزواج من كتابية أجنبية مع البعد الشاهق
فى البيئات والتقاليد واللغة والعادات والسلوك والأخلاق ، بالإضافة إلى
الدين وهو القاسم المشترك فى الناحيتين .

هل الجمال يكون هو السبب فى هذا الزواج ؟ ربما ، ولكننا نعرف فى
بلادنا الإسلامية ألواناً من الجمال لا يقل فتنة وسحراً عن جمال الأوروبيات ،
والشرق معروف بفتنته وسحره ، وهذه الكلمات تكتب وأنا بقلب إفريقية
وطالما رأيت شاباً إفريقياً يتأبط ذراع فتاة شقراء ، وهو تناقض لن
تختفى جذوره ، وأشهد أن بين الإفريقيات شابات فيهن جمال ورقة
لا تراهما مع الشقراوات .

وفي دراستنا عن « الزواج من كتابية » أوردنا تدرجاً من الإباحة إلى التحريم ، والأجنبية الكتابية التي نتكلم عنها هنا هي كتابية قبل كل شيء ، ولذلك ينطبق عليها ما ذكرناه هناك من آراء ، ونزيد هنا بعض دراسات تخص هذه الأجنبية .

وأول ما نورده هو أن الزواج هو الوسيلة للقربى بين جماعات فرق النسب بينهم ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك « لم يُرَ للمتحابين مثل النكاح » (١) فعندما توجد روابط ود بين أسرتين ليس بينهما نسب فالزواج وسيلة لخلق النسب ، ولكن الزواج من أجنبية يضيع هذه الثمرة ، فالولد لا يعرف أحواله إلا معرفة طفيفة إن تمت مرة فلن تتم أخرى .

وقد انتهى عهد الاستعمار ، وخلف صراعاً مريعاً بين الدول الإسلامية والدول الاستعمارية ، ولت شعري ماذا يكون إحساس الزوجة الغربية وبين بلادها وبلاد زوجها حرب إن توقفت اليوم فإنها تعود للاشتغال غداً ، ولا يبدو أن هناك نهاية قريبة لهذا الصراع الدامي ؟

وللمرأة الأوربية الآن مطامع اجتماعية تعدت ما حدده الإسلام من حقوق للمرأة ، فهي تعتبر البيت مملكتها وهي مديرة وسيدة ، ومعنى هذا أن القوامة التي وضعها الإسلام في يد الرجل انزلت إلى يد المرأة ، فأصبحت تسمى الأولاد بأسماء قومها ، وتربط في صدورهم شعار أهلها ، وتنشئهم على ما لها من عادات في المأكل والمشرب والاختلاط ، وغير ذلك مما لا يعرف الإسلام ولا يرضاه ، أو مما يعتبر الرضا به والسكوت عليه كفراً وخروجاً عن الملة والدين (٢) .

وقد حسم الأحناف القول في هذا الموضوع فقالوا : يحرم تزوج الكتابية إذا كانت في دار حرب ، غير خاضعة لأحكام المسلمين ، لأن ذلك فتح

(١) ابن ماجه في باب النكاح .

(٢) الأستاذ الشيخ شلتوت : الفتاوى ص ٢٧٩ .

لباب الفتنة ، فقد ترغمه على التخلق بأخلاقها التي يأبأها الإسلام ، أو يعرض الابن للتدين بدين غير دينه ، . . . فالعقد وإن كان يصح إلا أن الإقدام عليه مكروه تحريماً لما يترتب عليه من المفساد (١) .

وإذا عدنا للتاريخ الإسلامى وجدنا زواج الخلفاء والملوك بزوجات أجنبيات كان من أهم أسباب التدهور السياسى والاجتماعى والخلق الذى نزل بالمسلمين ، فكم من زوجة من هؤلاء عملت جاسوسة لنويها ، وكم من زوجة فتحت الطريق لأهلها ليشغلوا بغير حق أهم المناصب فى دولة زوجها ، وكم من زوجة جعلت لأهلها سلطاناً كبيراً على المسلمين ، وأحالت بذلك الحياة إلى صراع .

يقول آدم مترز (٢) : كان اتخاذ الخلفاء نساء من غير مبالاة بأديانهم سبباً فى إيجاد كثير من الاضطراب فى البلاط وفى المناصب الإدارية العليا ، فكانت كل سيدة تحاى من يتصل بها من الأقارب والأولياء ، وترفعهم ما استطاعت ، ومن أمثلة ذلك أن الخليفة المهدي كتب إلى عامل (جرش) فى إشخاص الخطريف بن عطاء أخى الجيزران أم الهادى والرشيد ابنيه ، وكان الخطريف غلاماً لرجل من أهل (جرش) فأعتقه ، وكان يؤجر نفسه ، فلما وصلت رسالة المهدي إلى عاماه أحضر العامل الخطريف وأكرمه وكساه وحماه إلى المهدي ، فرفع منزلته ، ثم ولاه على اليمن (٣) .

وكان للمقتدر خال رومى يسمى غريب ، وكان له نفوذ كبير ، وكان يخاطب بالإمرة (٤) .

وكانت أم الحاكم بأمر الله الفاطمى مسيحية ، وكذلك كانت زوجة أبيه أم أخته ست الملك ، وكان لهذا أثره فى اضطراب البلاط الفاطمى كما

(١) الفقه على المذاهب الأربعة للجزيرى ج ٤ ص ٧٦ .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٥٤ .

(٣) تاريخ يعقوبى ج ٢ ص ٤٨١ .

(٤) غريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٤٩ .

أوضحنا ذلك في مكان آخر (١) وكانت أم المستنصر إفريقية ، فأكثر من جلب الإفريقيين إلى جيش الفاطميين ومنحتهم السلطة والنفوذ ، مما أحدث خلافاً كبيراً بين عناصر الجيش آنذاك (٢) .

وتزوج سلاطين العثمانيين كثيرات من بنات أمراء الغرب المغلوبين ، وقد خلق هذا الزواج قبل كل شيء عيوناً للغرب في بلاط الخلفاء المسلمين ، وطالما أفشت هؤلاء الزوجات من أسرار السلاطين ما سبب لهم الهزائم في حروبهم ، وسبب كشف خططهم (٣) .

وفي كلمة ختامية نرى أن الزواج من أجنبية وبخاصة من الدول الاستعمارية ينبغي أن يتوقف أو على الأقل يحصر في دائرة ضيقة جداً على أن يتحمل الزوج تبعة رعاية أولاده وتنشئتهم تنشئة إسلامية صحيحة .

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٥ (انظر عصر الحاكم) .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٥١٨ .

غير المسلم يدخل الإسلام ليتزوج مسلمة

لا يُجيز الإسلام للمسلمة أن تتزوج غير مسلم سواء كان ذمياً ، أو كتابياً في دار حرب ، أو مشركاً ، قال تعالى « ولا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا » (١) وقال : « فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ؛ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » (٢) ، وهكذا كان الحكم صارماً وحاسماً ، فالمؤمنة لا تتزوج غير مؤمن ، وإن أسلمت زوجة وبقي زوجها على غير الإسلام فُبرِّق بينهما ، وإن ارتد مسلم — معاذ الله — طَلقت زوجته .

وقد سبق أن قلنا إن المسلم يجوز له — على العموم — الزواج من كتابية وهنا لا يجوز العكس ، أى لا يجوز للكتابي أن يتزوج مسلمة ، والسبب في ذلك واضح فإن الإسلام يضع القوامة في يد الرجل ، ولكن قوامة المسلم تخضع لتعاليم الإسلام ، فالزوجة الكتابية مع الزوج المسلم لا يجوز — بحكم الإسلام — إكراهها على ترك دينها ، ولها حريتها في العقيدة ، ولها حريتها في ممارسة ما أحله لها دينها ، ونبيها موضع احترام الزوج ، وكتابها الصحيح موضع إجلاله ، وعلى هذا تستطيع المرأة الكتابية أن تعيش في كنف الرجل المسلم في سر وهدوء ، لهذه الأسباب ولما حتمه الإسلام على الأزواج من حسن العشرة وتأدية حقوق الزوجات .

المسلمة لا تتزوج غير مسلم :

فإذا افترضنا العكس وأخنا للمسلمة أن تتزوج غير مسلم ، وغير المسلمين لا يعترفون بمحمد نبياً ، ولا يُجِلُّون القرآن ولا تشريعات الإسلام ، فلا شك أن ضرراً كبيراً سيقع على الزوجة ، لأن القوامة في يد الرجل كما أسلفنا ؛ ولأن هذا الرجل لا يعترف بالإسلام ، وبالتالي لا يحل تشريعاته ، فالمرأة

(١) سورة البقرة الآية ٢٢١ .

(٢) سورة المتحنة الآية العاشرة .

المسلمة في كنف رجل غير مسلم ، سينزل بها الضرر في عقيدتها وفي المبادئ التي تسير عليها ، ولا يباح لها أن تباشر مناسك الدين الإسلامي ومستلزماته .

هذا جانب ، وجانب آخر هو أن الإسلام يحتم أن يتبع الأولاد الدين الإسلامي إذا كان أحد الأبوين مسلماً (١) ، فإذا تزوج مسلم كتابية ، فالمفروض أن "تحقيق قوامه" الرجل هذا المبدأ الإسلامي ، ويصبح الأولاد بذلك مسلمين ، لكن إذا تزوجت المسلمة غير مسلم فإنها لا تملك هذه السلطة ، ويغلب أن تغلب على أمرها ، ويصبح أولادها غير مسلمين أو على الأقل لا يستطيعون ممارسة التكاليف الإسلامية ، وهي نتيجة تحتم عدم إجازة مقدماتها .

ذلك هو التفكير الإسلامي في هذا الموضوع ، وتلك هي أسبابه الواضحة ، بيد أن البشر أخذوا يختالون للعشور على مخرج يهربون من حكم الله ، ويقنعون البشر بسلامة ما يقدمون عليه ، ولكنهم هم أنفسهم في الغالب يعرفون أنهم يمارسون حيلة ، ولا يعملون عن عقيدة ، وقد مرت أمامي تجربة من هذا النوع ، أسردها للقارئ بدقة وإنصاف :

في أصيل يوم من الأيام اتصل بي أحد أصدقائي واستأذن أن يزورني ومعه رفيق له ، فرحبت بهما ، وسرعان ما قدما ، وبعد فترة من اللقاء قال صديقي لرفيقيه : اسرد على الدكتور فكرتك ، وبدأ ذلك الشاب يتكلم ، قال : إنه مسيحي وإنه يرغب في أن يدخل دين الإسلام ، وقد جاء لهذا الغرض ، قلت له على الفور أن باب الإسلام مفتوح لكل الراغبين في اعتناقه ، وليس هناك مفتاح في يد أي فرد من الناس ، وما عليك إلا أن تعتقد بوحدة الله وبصدق رسالة محمد ، وأن تقرر ذلك ، وبعد ذلك هناك إجراءات شكلية قضت بها النظم الحكومية ، يمكنك أن تباشرها وفقاً تشاء ، وأضفت للشاب مؤكداً ما ذكرته آنفاً من أن الإسلام يقتضي الاعتقاد بوحدة الله

(١) كأن يكون الأب مسلماً من أول الأمر أو تدخل الأم الإسلام ويبقى الزوج على غير الإسلام .

وصدق رسالة محمد ، وسألني الشاب : هل المطلوب الاعتقاد أو الشهادتان ؟ قلت : وكيف تشهد على ما لا تعتقد ؟ وأحسست أن في الأمر شيئاً ، فسألته : لماذا تريد الدخول في الإسلام ؟ وقال صديقي له : تكلم بصراحة ، فأجاب الفتى : أريد أن أتزوج فتاة مسلمة ، قلت له : إن نطقك بالشهادتين واتخاذك الإجراءات الرسمية سيبيح لك الزواج من الفتاة ، ولكنك ستظل مسئولاً أمام الله عن حيلة احتلتها دون عقيدة ، وعن كلمات قلتها دون إيمان ، وإذا استطعت أن تهرب من الناس فإنك لن تستطيع أن تهرب من نفسك ، ولا أن تهرب من الله ، وشملت الجوفَ كآبةً ، فقد كان الفتى يظن أن الأمر هن ، وأنه سيخرج من بيتي بعد كلمات يقولها ليتجه إلى بيت الفتاة ، وسأل الفتى : وما الرأي ؟ قلت له : لا أستطيع أنا ولا يستطيع سواي أن يؤخر لحظة واحدة رغبة راغب في الدخول في الإسلام ، ولا شأن لنا بقلبك ، ولكن إذ كنت تتكلم بصراحة ، وإذ جعلتني أحس بأن المسألة اصطناع وليست حقيقة ، فإنني أنصحك أن تقرأ عن ديننا شيئاً ، وعن كتابنا ونبينا ، وبعد ذلك تقرر رأيك عن عقيدة وإيمان دون أن تكذب على نفسك وعلى الناس ، وسألني الشاب ماذا اقرأ ؟ وبدأنا في تخطيط للعلاج ، وحددت له كتباً وأبحاثاً ، وراح الفتى يقرأ بهم ، ودام اتصاله بي فترة جاء بعدها ليقرر إعجابه بهذا الدين ورغبته في اعتناقه ومشاركة المسلمين معتقداتهم ، وأضاف الفتى رغبته في الإحجام عن الزواج بهذه الفتاة حتى لا تشوب إسلامه شائبة ، قلت له : ليكن إسلامك إسلاماً دون قيد ولا شرط ، وإن من فضل هذه الفتاة أن دفعتك إلى هذه الدراسة التي قادتك إلى هذا الطريق ، فمن حقها عليك أن تكون معك ، واعتنق هذا الرفيق الإسلام عن عقيدة وتزوج الفتاة .

تلك صورة ينذر جداً أن تم على هذا النمط ، أما الصورة التي تتكرر من حين إلى حين فهي الوضع الاصطناعي ، فكم من شاب أوروبي أو أمريكي أعجب بفتاة مسلمة من « الفنانات » أو سواهن من مثيلاتهم ، وأعجبت به الفتاة ، ووجدوا أن عائق الدين يحول دون زواجهما ، وسرعان ما تخطر فكرة الكذب على الله وعلى الناس ، فينطق ذلك الشاب بالشهادتين دون إيمان بما يقول ، على نمط « الإسكاف المسيحي » الذي كان نخصف

نعال الناس أمام مسجد من مساجد بغداد ، وكان يجعل الشهادتين والقسم بالله وسيلته للدعاية وللقرى من الجماهير ، والعجيب أن التجارب وضحت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا اللون من الزواج فاشل ، وأن اعتناق المسيحي للإسلام كان صورياً ، وفي كثير من الحالات التي أعرفها ويعرفها القراء عادت الفتاة بعد فترة قصيرة تجر أذيال الخيبة ، واستمر الفتى على مسيحيته أولاً دينيته دون أن يتأثر لحظة واحدة بهذا الموقف الصوري الذي وقفه يوماً من الأيام ناطقاً بالشهادتين دون عقيدة ودون إيمان. ومع هذا فلا تزال هذه المسألة تتكرر لأن قليلين من ينتفعون بتجارب الآخرين .

إن حكم الله واضح ، والاحتياال عليه إثم كبير .

الخطبة

هناك مراحل ثلاثة في الطريق إلى الزواج :

المرحلة الأولى : هي تعرف كل من الفتى والفتاة على الآخر .

والثانية هي : الخطبة وهي نوع من الارتباط بين الاثنين والأسرتين .

والثالثة هي : العقد وبه تتم الخطوات إلى الزواج والعشرة ، .

وعلى هذا فالفتى عندما يتجه نحو فتاة ، ويحس بميل نحو الزواج منها ، يلزمه أن يتعرف عليها فيتلمس الطريق ليعرف تدينها وخلقها وبيتها ، فإذا أطمأن لذلك ، كان عليه أن يتعرف على شخصيتها وشكلها ليتأكد من ملاءمتها له في ثقافتها وفي جمالها .

وله أن ينظر إليها بعلمها وعلم أهلها ، كما أن له أن ينظر إليها دون أن تعلم هي أو يعلم أحد من أهلها ، ما دام ذلك بنية الخطبة ، وقد قال جابر ابن عبد الله عن زوجته « كنت أتحبها لها خلف شجرة لأراها . وفي حديث موسى بن عبد الله . . لا جناح عليه أن ينظر منها إذا كان إنما ينظر إليها لخطبة وإن كانت لا تعلم (رواه أحمد) وقال محمد بن مسلمة عن امرأته : كنت أتحبها إليها في نخل لها . فقيل له : أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا ألقى الله في قلب امرئ خطبة امرأة ، فلا بأس أن ينظر إليها .

وقد أجاز للفتى أن يلاحظ الفتاة ويتساءل عنها ويرأها خلسة أو علناً قبل الإقدام على الخطبة ليتمكن بذلك من أن يراها في حالة طبيعية ، ودون التظاهر الذي يتضح من الفتى والفتاة عندما تكون هناك إجراءات خطبة ، ويلزم أن يقف هذا التعرف عند حد ، فلا يظل الفتى يتابع الفتاة ويتفرس فيها ، فليس له ذلك التهاذي .

فإذا رجح المديه جانب الإيجاب، واطمأن إلى أن أخلاق الفتاة وشخصيتها ونواحيها المختلفة تلائم رغباته، فإنه يتقدم للمرحلة الثانية أى يتقدم لخطبتها، وتجري العادة أن يقدم الفتى شيئاً يرمز للارتباط، وهو ما يسمى فى الاصطلاح العام « الشبكة »، وبالخطبة يبدأ طور جديد فى العلاقة بين الفتى والفتاة يبيح الفكر الإسلامى خلاله مزيداً من التعرف حتى تكون الخطوة التالية حاسمة، ويكون الزواج على أساس متين، وقد وضع الرسول صلوات الله عليه الإطار لهذا المزيد من التعرف بقوله: إذا خطب أحدكم المرأة فليدبر أن ينظر منها بعض ما يدعو إلى نكاحها فليفعل، وقوله للمغيرة ابن شعبه وقد خطب امرأة: « اذهب فانظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أى فإنه أحرى أن تحصل بينكما الموافقة والملاءمة إذا تم الزواج

القدر الذى يراه الخاطب من خطيبته:

ولم يحدد رسول الله صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبه القدر الذى يراه من مخطوبته بل أطلق له ذلك فى حدود ما يسيغه عرف البيئة.

وقد اختلف المفكرون المسلمون بين متشدد ومتسامح، ولعل أوسع تحديد هو ما ذكره الأستاذ الهبى الخولى بقوله: المعروف أن الإسلام لا يجيز للرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية إلى غير الوجه والكفين، أما ما عداهما فلم يجزه إذ لا تتعلق به ضرورة من ضرورات الآداب أو المعيشة، فضلاً عما فيه من الإثارة ودواعى الفضول والفساد مما لا يرضاه الإسلام لمروءات أهله، ولكن الإسلام استثنى من ذلك ظرف الخطبة، فقال عليه الصلاة والسلام: « إذا خطب أحدكم المرأة فليدبر أن ينظر منها بعض ما يدعو إلى زواجها فليفعل » ولم يحدد الرسول المقدار الذى يجوز للمخاطب أن يراه من الفتاة وترك ذلك للعرف، وما دام الأمر محدوداً بقيود الذوق العام، وتقاليد أهل البيئة، فللمخاطب فى عصرنا الحالى أن يراها فى الملابس التى تظهر بها لأبيها وأخوها ومحارمها بلا حرج... بل له - فى نطاق الحديث الشريف - أن يصحبها مع أبيها أو أحد محارمها وهى بزىها الشرعى إلى

ما اعتادت أن تذهب إليه من الزيارات أو الأماكن المباحة ، لينظر عقلها وذوقها وملامح شخصيتها ، فإن ذلك داخل في مفهوم « البعضية » التي تضمنها قوله عليه السلام : « فقدّر أن ينظر منها بعض ما يدعو إلى زواجها » وهي بعضية إذا أباحت للمخاطب أن يرى نحو الذراعين ، فأولى أن تبيح له معرفة الخلق والفضيلة ، ومدى لباقتها في بعض أنواع التصرف فإن ذلك أحرى - كما يقول الرسول عليه السلام - أن يؤدم بينهما .

وإطلاق الأحاديث النبوية في شأن الخطبة على هذا النحو بدون تحديد ، له مدلول معين ، وهو من المرونة التي امتاز بها الإسلام ويسر بها لأهل كل عصر أن يعيشوا في نطاقها بما يلائم عرفهم وآدابهم ومصالحهم (١) .

ذلك هو أقصى ما يمكن أن يقال إن الإسلام يبيحه للمخاطب مع خطيبته ، وقد سار بعض الباحثين في طريق أقل سعة ، فلم يجز للمخاطب إلا ما يجيزه للغريب ، باعتبار أن الخطبة لا تخلق جديداً من الناحية الشرعية بين الفتى والفتاة .

وقد أورد ابن رشد أربعة أقوال في ذلك ، في بعضها تشديد ، وفي بعضها سعة ، قال : أجاز مالك النظر إلى الوجه والكفين فقط ، وأجاز غيره النظر إلى جميع البدن ما عدا السوأتين ، ومنع ذلك قوم على الإطلاق ، وأجاز أبو حنيفة النظر إلى القدمين مع الوجه والكفين (٢) وقريب من ذلك ما أورده الشوكاني (٣) .

حق الفتاة وأهلها :

وينبغي أن يكون واضحاً أن تلك الفرصة التي أباحتها الخطبة للفتى ليقرر الإقدام والإحجام ، هي أيضاً ممنوحة للفتاة ولأهلها ليقرروا الإقدام

(١) الأستاذ البهي الخولي : منهاج الإسلام في الزواج والطلاق ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) بداية المجتهد ج ٢ ص ٤ .

(٣) نيل الأوطار ج ٦ ص ١١١ .

أو الإحجام كذلك ، بل ربما كانت الفرصة أكثر فائدة للفتاة ، لأن الفتى تتاح له ظروف التساؤل عن الفتاة ومحاولة التعرف عليها بطرق شتى بما فيها الاختباء ، ولكن هذه الظروف صعبة بالنسبة للفتاة ، فالخطبة ستتيح لها الجلوس معه والحديث إليه ، لتعرف كنهه شريك المستقبل ، وعلى هذا فالخطبة حلقة بين الرغبة وبين العقد ، يتقرر فيها العدول عن الرغبة أو السير نحو العقد من أى من الطرفين ، ولكن ينبغى أن يكون واضحاً أن بيوت الناس وأعراضهم وسمعة الفتيات شيء له قدسيته وجلاله ، ومعنى هذا ألا يقدم الفتى أو الفتاة على الخطبة إلا إذا رجح السير بها إلى العقد ، فإذا كان هناك أدنى تردد فينبغى أن تؤجل الخطبة حتى يزول هذا التردد نهائياً ، فالخطبة تجيء بعد الاختيار وهدفها مزيد من الدراسة وهى بذلك فترة يوضع فيها القرار النهائى حتى يكون الزواج على أساس متين ، وفى رأى أن حوالى ثمانين فى المائة من التراضى والقبول ينبغى أن يسبق الخطبة حتى تكون الخطبة فى الغالب مؤدية إلى الزواج ، وليس إلا عشرين فى المائة أو أقل تترك لفرصة الخطبة ليتقرر الاستمرار أو الانفصال .

وينبغى ألا تطول فترة الخطبة لأن طولها يعطى فرصة للملل والتراخى ، ولأن فلك الخطبة بعد وقت طويل يدعو للقليل والقال ويسبب للفتاة ، وقد صح فى الحديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم : من بركة المرأة سرعة تزويجها ويسر مهرها .

الخطبة ليست ملزمة :

ومما ذكر آنفاً تبدو لنا حقيقة أقرها الفقهاء وهى أن الخطبة ليست ملزمة لأى من الخطيبين ، فلكل منهما أن يعدل عن هذه الخطبة ، لأن الزواج ينبغى أن ينبنى على أساس متين ، وضرر الانفصال قبل الزواج أيسر بكثير من السير فى إجراءاته على الرغم من النفور الذى قد يبدو فى فترة الخطوبة ، تلك الفترة التى تمتاز عادة بطابع التسامح ، فإذا عجز التسامح فى هذه الفترة ، فهو بعد الزواج أحجز ، وإنما كانت الخطبة ليست ملزمة لأنها ليست إلا مجرد وعد بالزواج ، والشريعة الإسلامية لا تعتبر الوعد ملزماً ، وقد مال بعض

الفقهاء إلى القول بأن الوعد ملزم ولكن هؤلاء استثنوا الوعد بالزواج من هذه القاعدة .

متى يكون فسخ الخطبة حراماً :

بيد أن هناك نوعاً محرماً من فسخ الخطبة ؛ ذلك عندما يكون سبب الفسخ أعراض الدنيا ، كأن يظهر للفتاة شاب أوسع مالا أو أعلى سلطناً ، أو تظهر للفتى فتاة أملح جمالا أو أرقى حسياً ونسباً ، فمثل هذا يجعل الزواج صفقة تجارية تسعى للكسب المادى وتجعل أعراض الدنيا مصدر ترجيح ، وما أوهى هذه الأعراض وأسرع زوال هذه الأسس ، فليحذر الفتى والفتاة أن ينقضوا وعدهم سعيّاً وراء هذه الأعراض الزائلة ، وليلجثوا إلى ولاية الله ففهي كل الثراء وكل الجاه ، والحصول عليها يوضحه الحديث الشريف : من نكح لله وأنكح لله فقد استحق ولاية الله .

والأثر المهم الذى يترتب على الخطبة هو أنه يحرم على غير الخاطب أن يتقدم لخطبة هذه الفتاة ، وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم « المؤمن أخو المؤمن فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه ، ولا أن يخطب على خطبة أخيه »

حكم الشبكة والهدايا بعد فسخ الخطبة :

ونعود للحديث عن الخطبة التى عدلَ عنها لندكر كلمة عن استرداد المهر الذى قد يكون دفع للفتاة وكذلك عن استرداد « الشبكة » والهدايا التى قدمها الخاطب لخطيبته فى أثناء الخطبة ؛ فعن المهر نقور أن الخاطب يسترده بذاته ، أو يسترد مثله إذا حصل تصرف فيه ، ولكن إذا كان العدول من جانب الفتى ، وكانت الفتاة قد اشترت جهازاً أو ما يماثله بالمهر ، فإن للفتاة أن تعطى بدل المهر ما يساويه من الجهاز مع اعتبار القيمة عند الشراء ، أما إذا كان العدول من جانب الفتاة فإن الخاطب يسترد المهر بذاته أو يسترد مثله

ولا شأن له بالجهاز ، أما عن « الشبكة » والهدايا فإنه إذا كان العدول من جانب المفتي فإنه لا يسترد شيئاً منها ولا يسترد قيمتها ، وإذا كان العدول من جانب الفتاة فإن الخاطب يستردها جميعاً إن كانت موجودة ويسترد قيمتها إن كانت غير موجودة ، وذلك مذهب مالك وهو أوفق المذاهب فيما نرى .

ذلك هو موقف الإسلام فيما يتعلق بالخسارة التي لحقت بالخطاب ، وهناك خسارة مادية تلاحق أحياناً بالخطيبة ويتحملها الخاطب ، وذلك في حالة ما إذا كانت المخطوبة أعدت جهازاً معيناً بناء على طلب الخاطب ، ثم عدل الخاطب عن الخطبة ، فإنه في هذه الحالة ملزم بتعويض هذه الخسارة بمثلها ، لأن الضرر لحق الخطيبة نتيجة تغدير ، والتغدير يوجب الضمان (١) .

ويقول المفتي : إن الخاطب إذا قال إنه دفع الشبكة على أنها من المهر فإنها في هذه الحالة تأخذ بحكم المهر لا بحكم الهدايا ، أى ترد عند فسخ الخطبة من أى منهما ، لأن الخاطب هو الدافع لها والقول له بيمينه ، ومن دفع شيئاً على أنه واجب ، فظهر أنه ليس بواجب فله استرداده (٢) .

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع للأستاذ محمد أبو زهرة ص ٧١ .

(٢) حسنين مخلوف : فتاوى شرعية ج ٢ ص ٥ .

حديث عن المهر والعقد

المهر مقدار من المال أو المتاع يقدمه الفتي للفتاة ، قال تعالى « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » (١) وقد وضعت هذه الآية الكريمة أسساً جديدة مهمة فيما يتعلق بالمهور ، وتلك الأسس هي :

أولاً : المهر منحة وعطاء ولكنه عطاء واجب ، وبهذا تكون الآية القرآنية رائعة في فصاحتها ، فإنها أثبتت أن المهر نحلة أى عطية ، ولما كان من شأن العطاء أن يكون اختيارياً فقد ألزمت الآية تقديم هذا العطاء بفعل الأمر في أولها .

ثانياً : يقدم الرجل هذا العطاء تكريماً للمرأة ودليلاً على رغبته في الاقتران بها وإقباله التام عليها ، مع ما في ذلك من تضحية يدفعها بادية ذى بدء .

ثالثاً : تقرر الآية فساد العادات التي لا تزال متبعة في أوربا وفي غيرها من البلدان والتي تلزم والد الفتاة أن يقدم « دوطه » إلى الفتي الذي يتقدم للزواج من ابنته .

رابعاً : تضع الآية حداً لأخلاق الجاهلية التي كانت تقضى بأن يستولى والد الفتاة أو وليها على المهر الذي يقدمه الفتي ، وتجعل الآية الكريمة هذا المال حقاً خالصاً للفتاة .

ذلك هو مكان المهر في التفكير الإسلامى ، وليس استعماله في تأثيث البيت في العهد الحاضر إلا تجاوزاً أو عرفاً لا يتنافى مع التفكير الإسلامى

(١) سورة النساء الآية الرابعة .

ما دامت المرأة راضية عنه ، بأن أقدمت على المساهمة في إعداد عش الزوجية بهذا المال أو بسواه ، وإلا فالتفكير الإسلامى يقضى بأن يدفع الفتى مهرًا للفتاة ، وأن يقوم — بجانب ذلك — بإعداد بيت مناسب للزوجية .

ويحدد المهر بالتراضى بين الطرفين ، ويجوز أن يتم العقد دون تحديد المهر ، وفي هذه الحالة يعتبر مهر المثل ، أى يحدد للفتاة مهر مماثل لمهر أختها أو ابنة عمها بشرط أن تكونا متساويتين في الظروف المختلفة ، وإذا حدد مهر دون علم الولي بأن تراضت الفتاة والفتى على مهر وكان أقل من مهر المثل فإن للولي أن يعترض على ذلك ويلتزم مهر المثل في هذه الحالة لأن المهر يمس الأسرة كلها من ناحيته الأدبية ، وإن كان للمرأة من ناحيته المادية .

والمفروض أن يقدم المهر كله عند العقد ، ولكن قد يجرى العرف أن يقدم نصفه أو ثلثاه ويؤخر الباقي إلى أقرب الأجلين . الطلاق أو وفاة أحد الزوجين .

عدم المبالغة في المهور :

ويتجه الفكر الإسلامى إلى عدم المبالغة في المهر ، قال صلى الله عليه وسلم « خير المهر أيسره » وقال « أعظم الزواج بركة أيسره مئونة » أما تحديده بالضبط في إطار عدم المبالغة فإن الظروف المختلفة تتحكم فيه ، وقد دفع النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم مهرًا إلى أم حبيبة قدره أربعة آلاف درهم « مائتا دينار » وفي حالات أخرى دفع النبي مهرًا أقل من ذلك بكثير ، قال عمر بن الخطاب : لا تغالوا في صداق النساء ، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى لله ، كان أولاكم وأحقكم بها محمد صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق امرأة من نسائه ، ولا أصدق امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية ، وإن الرجل لسيثقل عليه صداق امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه . ويقول : قد كلفت إليك علق القربة « أى تحملت في سبيلك كل الشدائد » (١) ،

ولذلك يكره للرجل أن يصدق المرأة صداقاً يضر به إن نقده ، ويعجز عن وفائه إن كان ديناً (٢) .

ويروى أن شاباً فقيراً جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام فذكر له أنه تزوج على مائة وستين درهماً ، فاستكثرها الرسول عليه ، وقال : كأنكم تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ، ويتحتم هنا أن نذكر أن ما يجرى أحياناً بين الناس من مساومة حول المهر بعد التراضي على مبدأ الزواج عمل غير لائق ، وأكثر منه أن تُفك الخطبة بسبب عدم الاتفاق على المهر ، فالتفكير الإسلامى لا ينظر للأعراض الزائلة ويهتم بكنه النفس البشرية ، فالأرواح فى نظر الفكر الإسلامى جنود مجندة ، وعندما يأتلف روحان أو يقربان من الائتلاف يجب ألا تقف المادة دون تمام الألفة ، أو يقف المهر حائلاً أمام الزواج .

وإذا كنا قد صرخنا هذه الصرخة فى وجه أولياء أمور الفتيات ، فإننا نصرخ صرخة مماثلة فى أوجه الفتيان الذين يطمعون فى أنواع من الأثاث تشق على النفس ، ويلزمون به الزوجة وأهلها ، فمرة أخرى ذلك عرض زائل والجوهر الحق هو الفتاة نفسها .

تقييد الزواج رسمياً :

ونتحول عن المهر لنتكلم كلمة عن الخطوة التى تليه وهى العقد تبعاً للعنوان الذى وضعناه لهذا الموضوع ، فنقرر أن العقد يحتاج إلى إيجاب من ولى يزوّج ، وقبول من المتزوّج أو وكيله ؛ على أن يكون ذلك فى حضرة شاهدين ، ولكن القوانين فى أكثر البلاد الإسلامية تحتم أن يتم الزواج بوثيقة رسمية يحررها موظف مختص « المأذون » فإذا لم توجد هذه الوثيقة ، فإنه لا تسمع عند الإنكار دعوى نفقة أو إثبات نسب أو غيرها مما يرتبط بالزواج ، ومن أجل هذا نقرر أن الزواج الذى خلا من الوثيقة الرسمية وهو الزواج

(١) المرجع السابق .

العرفي كما يسمونه ، زواج — وإن كان صحيحاً من الناحية الشرعية — لا يحقق الاستقرار للأسرة ، ولا الضمانات للأولاد ، فينبغي ألا يتجه له الناس وهم ينشدون الحياة الهادئة السعيدة .

ولا تكون المرأة ولياً في النكاح فلا يجوز أن تزوج نفسها ولا تزوج ابنتها أو عبيدها، وإنما تكون الولاية الطبيعية لأقرب الرجال لها (١) وللأب أن يزوج ابنته الصغيرة البكر بغير إذنها، فإذا بلغت لا يجوز تزويجها بغير إذنها، أما الثيب قبل البلوغ فيرى ابن حزم عدم إعادة تزويجها حتى تبلغ وتأذن؟ إذ لا يجوز تزويجها بدون إذنها ولا إذن لها قبل البلوغ (٢) ويرى الإمام الشافعي أن تستأذن الثيب على أي حال . ويمكن للمرأة البالغة أن توكل عدلاً غير الولي لتزوجها .

النقوط :

بقيت نقطة تتصل بهذا الموضوع أي بالعقد وما يتلوه من زفاف ، وتلك النقطة هي « النقوط » الذي يدفعه الناس في مناسبات الزواج لبعضهم البعض ، فهل يُعَدُّ هذا « النقوط » قرضاً يتجتم سداً ؟ أو هبة لا يلزم سداً ؟ يرى أكثر الباحثين أن « النقوط » تمليك لمال على أن يرد مثله ، فهو بذلك يأخذ بحكم القرض ، ويكون موعد سداً مرتبطاً بمناسبات مماثلة تحدث عند دفع « النقوط » ويرى آخرون أنه هبة لا تستلزم السداد ، ويمكن القول بأن العرف هو الذي يحدد مكان « النقوط » بين القروض والهبات ، فعند التماثل في المستوى الاجتماعي يعتبر « النقوط » قرضاً ، وعند التفاوت البارز يعتبر « النقوط » هبة ، فالثري عندما يقدم « نقوطاً » لبعض الفقراء لا ينتظر له رداً في العرف ويعد ذلك هبة في هذه المناسبة بخلاف التماثلين في الغني فإنهم يتبادلون تقديم « النقوط » في هذه المناسبات .

(١) ابن حزم : المحل ج ٩ ص ٤٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

الأولاد

الأولاد ثمرة الزواج وهدف مهم من أهدافه، وهم يمثلون حياة جديدة للإنسان بعد انقضاء حياته، فالأب يعيش فيهم وفي أولادهم فترات طويلة بعد انقضاء أجله ، وإذا كان الهدف السريع للزواج هو أن يجد الزوج زوجة يسكن إليها ويطمئن لها ، وأن تجد الزوجة زوجاً تسكن له ، فإن الأولاد هم الوسيلة لتثبيت هذا السكن وتلك الطمأنينة ، ويقول علماء النفس إن الفتور يطرأ على كثير من الزوجات بعد فترة طويلة أو قصيرة ، وإن الأولاد هم الذين يعوضون هذا الفتور ، والإنسان يحب زوجته لنفسها أو يحبها لولدها ، ومن هنا كانت حالات الطلاق بين الآباء والأمهات أقل جداً من حدوث الطلاق بين زوجين لا أولاد لهما ، ليس فقط من أجل الأولاد بل من أجل الحب الجديد الذي يخلقه الأولاد في كثير من الحالات بين الزوج وزوجته .

ومسئولية الأب تجاه الأولاد كبيرة جداً ، ويبدو أن هذه المسئولية ناتجة عن مكانة الأب من الأولاد أو مكانة الأولاد من الأب ، تلك المكانة التي عندها القرآن الكريم بقوله « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » (١) فمع أن الأولاد هم بالتأكيد أولاد الأب والأم ، ولكن في الآية الكريمة لمحة عن مزيد من الارتباط بين الآباء وأولادهم ، وبالتالي مزيد من المسئولية ، وهذا يبدو واضحاً إذا وقع الطلاق بين زوجين ، فإن التزام الأب بتكاليف الحضانة لا ينفك ، ولكن الأم تستطيع أن تتزوج ، وبالتالي لا تلتزم بالحضانة .

وحقوق الأولاد تبدأ من عهد مبكر ربما يرجع إلى ما قبل الولادة ، أو حتى ما قبل الزواج ، فقد صح عن الرسول قوله يوصي بحسن اختيار

١ (١) سورة النحل الآية ٧٢ .

أم الأولاد : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » وهكذا تبدأ حقوق الأولاد مبكرة ، وتستمر حتى يبلغ الواحد منهم الرشد أو يزيد ، وتشمل حسن تسميتهم والإشراف على تربيتهم إشرافاً يهتم بالناحية الصحية والعقلية والنفسية جميعاً ، وسنعود عند الحديث عن « التكافل بين أفراد الأسرة » لإبراز مقارنة دقيقة بين مسئولية الآباء عن الأبناء وبين مسئولية الأبناء عن الآباء وموقف القرآن في هذا الشأن ، فلنرجع هذه النقطة الآن ، ولنسرف في دراسة نقاط أخرى تتعلق بالأولاد .

تسمية الأولاد :

وأول نقطة تقابل الوليد هي حسن تسميته فقد روى عن الرسول قوله :
إنكم تُدْعَوْنَ يوم القيامة بأسمائكم فأحسنوا أسماءكم . وإذا سُمي وليد باسم قبيح لسبب أو لآخر فينبغي تغيير هذا الاسم في أقرب فرصة ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة أن زينب كان اسمها برة فسمها الرسول زينب ، وكان لعمر بنت اسمها عاصية فسمها الرسول جميلة (١) .

وفي بعض البيئات يُطَاق على الوليد لقب يقصد به دفع السوء أو الحسد عنه وذلك شيء مكروه وينبغي التخلص منه في أقرب فرصة ، وإذا سُمي الوليد بعمر أو طارق أو نحوهما فينبغي أن يشرح له عندما ينمو ألوان من شجرة عمر بن الخطاب وطارق بن زياد رجاء أن يسير على هذا النهج .

التربية وحسن التوجيه :

ومن أهم النقاط التي يلزم أن يُعنى بها الآباء عندما يشب أبنائهم أن تكون رعاية الآباء للأبناء متفقة مع صالحهم ، بمعنى أن يلاحظ الأب مواهب ابنه ويتعرف عليها بطريق أو بآخر ولو بمساعدة الآخرين ، ثم يوجهه وجهة تناسب مع هذه المواهب ، ليكون في حياته المستقبلية أكثر انسجاماً مع مواهبه وتناسقاً مع طبيعته .

(١) النووي : تهذيب الأسماء : القسم الأول ج ١ ص ١١ :

ولهذا فإننا ننتقد بعنف اتجاه الكثرة الغالبة من الآباء للدفع أولادهم تجاه الجامعة ، ولا شك أن قلة قليلة من بين هؤلاء الأولاد هي التي ينبغي أن تعرف طريقها إلى الجامعة ، وعلى الأكثرين أن يولوا وجوههم شطر أعمال متعددة أخرى يكونون فيها أكثر نجاحاً ، وقد رأيت شاباً أمضى في الثانوية العامة أربع سنوات وكان ينجح في كل سنة بدرجات قليلة ، ولكن أهله كانوا يريدونه طبيباً فكانوا يدفعونه إلى المدرسة الثانوية مرة أخرى ، وأخيراً حصل على درجات دفعته لكلية الطب ، ولكن هذا — في أغلب الظن — سيتعثر في دراسته ، وإذا فرض أنه صبر وصابر حتى أصبح طبيباً ، فإنه لن يكون طبيباً موفقاً وسيظل شبح صراعه وفشله يقف بينه وبين النجاح .

وإذا كنا نلوم الآباء والأبناء على هذا الاتجاه ، فإننا نرجو أن تساعد الحكومات الآباء على الاتجاه القويم ، فإننا نرى بصراحة أن الأبواب مفتوحة على مضاريعها لخريجي الجامعات ، كأن الشهادة الجامعية صك مرور نحو المجد ، أما أولئك الذين لم يحصلوا على هذا الصك فإنهم يتعثرون في سيرهم مهما كانت مواهبهم ومهما كان استعدادهم الطيب في بعض نواحي الحياة العملية أو العلمية

وهكذا نقولها جاسمة : إن أبواب الجامعة ينبغي أن تقفل إلا في أوجه الموهوبين الذين لهم قدرات ممتازة على البحث والدراسة ، وإن أبواب الحياة العملية ينبغي أن تفتح على مضاريعها للأكفاء ولو من غير الجامعات ، ونحن بهذا نيسر حياة الأسرة المسلمة ، فإن الملاحظ أن فترات الامتحان وإعلان النتائج تكون فترات حدة وخوف في أكثر الأسر ، ذلك لأنهم زجوا بأولادهم في طرق وعرة ، فهم دائماً يخافون عليهم ، إن حياتنا تحتاج إلى تجار وصناع وزراة وأرباب حرف ، أكثر من حاجتنا إلى موظفين وإلى بعض خريجي الجامعة الذين يقفون صفاً طويلاً يترقبون قراراً تصرف لهم بمقتضاه الرواتب ، ولا أقول بإسناد أعمالهم ، لأن قرار التعيين لا يرمى في الغالب إلا إلى دفع مرتب لمن يقفون في هذا الصف الطويل .

هذا جانب من البحث يرمى إلى تحقيق إسعاد الأولاد وتيسير طريقهم ، وهناك مسألة أخرى نراها في المجتمع من حين إلى حين ، وينبغي أن نثيرها

هنا لعل في إثارتها خيراً للآباء والأبناء ، ففى مجتمعاتنا صور لآباء أوتوا سبعة من المال وهم يرون أنهم يجمعون المال لأولادهم ، بيد أن أولادهم لا ينالون حظاً مناسباً من هذا المال فى حياتهم ، وليت شعرى لماذا حرص هؤلاء الآباء على أن يرتبط بموتهم استمتاع أبنائهم بهذا المال ؟ وربما أدّى ذلك إلى انحراف فى خلق الأولاد فتمنوا موت الآباء لينالوا ما هم منه محرومون ، وأمنية كهذه مرض وبيل ينخر عظام الأسرة ، ويقضى على ما يجب أن يكون بين أفرادها من حب وتعاطف ، ويروى أبو هريرة أن رجلاً جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : نبئنى يا رسول الله عن مالى ، كيف أتصدق فيه ؟ قال : نعم ، والله لتُسنَبَنَّ ، أن تصدق وأنت صحيح ، تأمل العيش وتحاف الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت نفسك ههنا ، قلت مالى لفلان ، ومالى لفلان ، وهو لهم وإن كرهت .

وإذا كنا نهيب بالآباء ألا يحرموا أولادهم ، فلإننا نهيب بهم كذلك ألا يعلموهم السرف ويدللوهم بمنحهم كل ما يطلبون أو أكثر ما يطلبون إذا كانت مطالبهم مبالغاً فيها أو إنفاقهم يتسم بالتبذير ، وقد صادفت فى حياتى صوراً أحسست باستنكارها لأنها فيما أرى تشجيع على الإسراف ، وهى صورة من صور ظلم الأبناء للآباء ، رأيت شيخاً تقدمت به السن ، وأثرت السنون على صحته ، وتعمقت الأنحاديذ فى وجهه ، وكان له ابن يشغل منصباً مناسباً ، ولكن الأب كان لا يزال يسعى ويكدح ليمد الابن بمزيد من المال ، وهكذا رأيت فى الصورة المريرة ، شيخاً يجاهد ويصارع ليكسب مالاً يقدمه إلى شاب ينال به مزيداً من الترف والنعيم ، وإذا دفعت شفقة الأبوة الأب ليلي رغبة ابنه فكيف جاز للابن أن ينعم بمجهود أبيه وعرقه ؟ واعتقادت أن قطرات العرق التى تساقطت من ذلك الأب ، وأنفاسه التى لم تفتأ تضطرب كان جديراً بها أن ترد ذلك الفتى عن مطالبه حتى يرحم شيخوخة أبيه ، ولو كان هذا الأب غنياً يدفع من ثرائه لابنه لكان ذلك محتملاً حتى ولو اتسمت حياة الابن بشيء من الترف ، ولكن ليس من المقبول ولا من المستساغ أن يعمل الشيخ ويكدح لينعم الشاب بمزيد من رغبة العيش ،

وقد تكررت هذه الصورة أمامي فكان لا بد من تذكير الأبناء بواجبهم تجاه الآباء .

وفي جملة واحدة ينبغي على الآباء أن يحققوا مع أبنائهم ذلك المعنى العظيم الذي نادى به الآية الكريمة «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط» (١) وما أجمل أن يرى الإنسان أبنائه وهم يستمتعون بالحياة في ظله دون إسراف أو تقتير .

التسوية بين الأولاد في العطاء والمعاملة :

وننتقل الآن إلى نقطة مهمة في علاقة الأب بأبنائه ، وهي نقطة ينزلق فيها الأب أحياناً فيشعل ناراً حولَه ، ويشعل ناراً بين أبنائه ، تلك هي عدم التسوية بينهم في النفقات والعطاء في أثناء حياته ، ولعمري أن الابن الذي يكسب بأحسن من كسب إخوته أو يعطى أكثر منهم يفقد من حبه أضعاف ما نال من فضل في المال ، ويروى أن زوجة بشير بن سعد الأنصاري طلبت إليه أن يخض ولدها النعمان بمنحة مالية ، وأرادت توثيق هذه الهبة ، فطلبت من زوجها أن يشهد عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب لها بشير وذهب للرسول يطلب شهادته على ذلك ، فقال له الرسول : هل للنعمان إخوة ؟ قال بشير : نعم . فسأله الرسول : فكأنهم أعطيت مثل ما أعطيت ؟ قال بشير : لا . فقال الرسول : ليس يصلح هذا ، وإننى لا أشهد إلا على حق فلا تشهدنى على جور ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم ، كما لك عليهم من الحق أن يتزوك ، اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم . ويروى هذا الحديث عن النعمان بن بشير نفسه قال : إن أباه نحله غلاماً وأنه جاء النبي صلى الله عليه وسلم يشهده ، فقال : أكل أولاده نحل ؟ قال : لا ، قال : فأردده .

ذلك هو الاتجاه العام في علاقة الأب بأبنائه في أثناء حياته ، بيد أن هناك

ظروفاً أجاز العلماء أن يخص الأب فيها بعض أبنائه بشيء ؛ كأن يكون أحدهم أكثر حاجة لمرض ، أو كثرة عائلة ، أو لاشتغاله بالعلم عن الكسب ، أو نحو ذلك ، وقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه نحل السيدة عائشة في حياته نحلة خصها بها عن إختوتها ، ولكن السيدة عائشة لم تسلم النحلة ، وقبيل وفاة أبى بكر قال لها : يا بنية ، إني كنت نحلتك نحلة ، فلو أنك احتزتها كانت لك (١) . . . وهذا يدل على جواز أن يخص الأب أحد أولاده في حياته بشيء لسبب يراه .

وإذا تسلمه المعطى له أصبح حقه ، على أنا نعيد هنا ضرورة أن يكون هناك سبب مقبول يجعل الأب يخص بعض أولاده بشيء ، وفي هذا المجال لا نرى داعياً لكثير من الحرج ، فإن العطاء لواحد من الأولاد قد يصل أحياناً إلى حد الوجوب ، كأن تشتد حاجة ابن إلى العون لكثرة أولاده أو لحادث طارئ عليه .

ومن الملاحظ أننا كررنا عبارة في أثناء حياته أى أنه أعطى ونفذ العطاء في حياته ، وهذا بخلاف ما قد يوصى به لينفذ بعد وفاته ، فلذلك حديث آخر سيأتى عند الكلام عن « الوصية »

وهناك كذلك ظروف تدفع الأب للتقليل من حظ أحد أبنائه في حياته أيضاً ، كأن يكون فاسقاً أو مبتدعاً أو كأن يستعين بالمال على ارتكاب المعاصي ، وقد وضع الإمام أحمد هذا المعنى في جملة وأفية حين قال : لا يأنس بالتفاضل إذا كان الحاجة ، وأكرهه على سبيل الأثرة والعطية (١) . . .

وفي حال الحاجة التى تستدعى تفاضلاً ، ينبغى أن يكون التفاضل بقدير هذه الحاجة بحيث لا يشير حقداً ولا يحرك ضغينة ، وينبغى على المفضل أن يقتدر الحاجة التى دعت إلى هذا التفاضل

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٦٤

(٢) المغنى : ج ٥ ص ٦٠٥ .

ولا يكتفى المفكرون المسلمون بدم المفاضلة في الإنفاق والعطاء ، وإنما يدمون أيضاً المفاضلة في الملاطفة والمعاملة ، فينبغي أن يسير الأبوان على نمط دقيق لا يثير حقد أحد من الأبناء على أحد ، ولا يقلل من تماسك الأسرة والتواد بينهما .

وتكون الحاجة للعدالة والمساواة ملحة لو كان الأبناء من زوجات متعدّدات ، فإن أى المحراف من الأب سيثير حقد هذه الزوجة أو تلك ، ولن يُحتمل محملاً حسناً بوجه من الوجوه ، وفي بيت نبوة أحس بعض أبناء يعقوب بتفضيله يوسف وأخاه عليهم فجرت الأحداث التي أوردتها سورة يوسف مبتدئة بالآية الكريمة « إذ قالوا (إخوة يوسف) لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى آبَائِنَا مِنَّا ، وَنَحْنُ عَصَبَةٌ ، إِن أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » (١) . .

زوجة الأب

في بعض الأسر توجد ظاهرة كثيرة الانتشار هي ظاهرة « زوجة الأب » وهو موضوع يتصل بالأولاد ، وقد تدخل زوجة الأب البيت على أولاد زوجة ماتت أو أولاد زوجة طلقت ، وسواء في هذه الحالة أو تلك فإن هذا الوضع يحتاج إلى دقة في المعاملة وإلى قيادة الأسرة بحكمة بالغة ، ولعل من حق الزوجة الجديدة أن تستقل بحياة بعيداً عن أولاد زوجها ، فإذا قبلت أن تعيش معهم كان ذلك منها تضحية ومساهمة في تيسير الحياة ، ولكن ذلك يتطلب منها تضحية حقيقية ومساهمة واضحة داخل البيت ، فإذا كانت الزوجة السابقة قد ماتت كان على زوجة الأب أن تدرب نفسها على الحنان والعطف لتعوض ما فقده أولاد زوجها من حنان أمهم وعطفها ، وإذا كانت الزوجة السابقة قد طلقت فينبغي أن تدرك الزوجة الجديدة أنها في حاجة إلى كثير من الحكمة لتسير دفة الحياة بهدوء ، وعليها أن تشعر الأولاد بأن مسألة طلاق أمهم لا تُسأل هي عنها وإنما مسئوليتها تقع على أبيهم أو على أمهم أو عليهما جميعاً .

(١) سورة يوسف الآية السابعة وما بعدها .

ويجب على زوجة الأب ألا تتوقع من أولاد زوجها أن يكونوا كأولادها ، فإنها إن فعلت ذلك طالبت الطبيعة البشرية بأكثر من طاقتها ، وعليها كذلك أن تدرك أنها تساعد زوجها بما تبديه من تساهل وتسامح ، وأن تشدها سيضع زوجها في حرج ، ولن تسلم هي من العاقبة الضارة .

وهناك واجب مقدس تتحمل زوجة الأب مسئوليته الكبرى هو ألا تخص أولادها بشيء تحرم منه أولاد زوجها ، حتى ولا الكلمة الطيبة أو الابتسامة الهادئة ، فإن في يدها أن تضع بذور الحب بين أولادها وأولاد زوجها أو أن تضع بينهم بذور البغضاء ، وسيجنى أولادها بالتأكيد النتائج المريرة لأي تصرف أحرق من جهتها ، وقد يكون هذا التصرف حائلاً دون العلاقات الطيبة بين أولاد الرجل الواحد ، وإذا كنا في الإسلام نوصي وصية خاصة بأولاد العم وأولاد الأخ وغيرهم من أفراد الأسرة ، فلا نزاع أن هذه الوصية تتجه بادىء ذي بدء إلى أولاد الرجل الواحد وإن اختلفت الأمهات .

ونمشي مع زوجة الأب خطوة أخرى نخوفها بأن أولادها قد يصبحون لسبب أو لآخر في رحاب زوجة أب ، وفي هذه الحالة فإن أعمالها مع أولاد زوجها يغلب أن تنعكس على أولادها ، فإن أحسنت لأولاد زوجها أرسل الله لأولادها زوجة أب تحسن إليهم ، وإن أساءت يغلب أن يساء لهؤلاء ، والآية الكريمة تقرر هذا المعنى عندما تحذر من أكل مال اليتيم ، قال تعالى « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » (١) .

وبعد ، لقد سرنا شوطاً طويلاً في الحديث متجهين إلى زوجة الأب ناصحين ومحذرين ، ولسنا بذلك متأثرين بالفكر الشائع الذي يلقي المسئولية في مثل هذه العلاقة على زوجة الأب ، ولكننا نقرر أن زوجة الأب تحمل

أكبر قسط من المسؤولية في تسيير دفة الحياة في مثل هذه الحالات ؛ بيد أن قسماً كبيراً يحمله أولاد الأب كذلك ؛ إنهم يعتبرون زوجة الأب وافداً غريباً على البيت ، أو عنصراً مغتصباً ، وهذا خطأ بطبيعة الحال ، فليست زوجة الأب كذلك ، فقد أصبحت بزواجها من الأب عنصراً أساسياً في البيت ، بل أنها تأخذ في التجلة والاحترام مستوى الأب ، وأشهد أنني رأيت في حالات كثيرة عدواناً يبدأ به الأولاد ضد زوجة أبيهم قبل أن تجيء إلى البيت وبعد حضورها إليه ، فقد كان لنا صديق توفيت زوجته واه منها بنات متعدّدات ، وكان الأب في مطلع العقد الخامس ، به بقية من شباب وبه نشاط قوى ، والعجيب أن بناته أهملن أموره المنزلية تماماً ، فكان يفتقد القميص النظيف فلا يكاد يجده ، وكان يترك حجرة نومة إلى عمله ويعود فيجدها كما تركها في شعث واضطراب ، ونصبخناه بالزواج ولو بأن تبقى الزوجة بعيداً عن هؤلاء الفتيات ، ولكن الفتيات اعترضن على زواجه بإصرار ، واتخذن جانب العداء لأبيهن وللمرأة التي أشيع أنه سيتزوجها ، وكانت مشكلة أرغم الأب فيها على نوع من القسوة ضد بناته اللاتي كن يتصرفن دون عقل ودون رشد .

وهكذا في حالات متعددة نجد الأولاد يبدأون بالعدوان ويشيرون الشغب ، وينعكس هذا على البيت كله ، ينغمس فيه الأب وزوجة الأب والأولاد ، وليس ذلك إلا لسوء تصرف الأولاد ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الأولاد يلقون على زوجة الأب مسؤولية طلاق أمهم إن كانت أمهم مطلقة ، ولا تحمل زوجة الأب هذه المسؤولية ، بل تحمل الأم قسطها الأكبر لأنها لم تعرف أن تسوس أمرها ، أو حتى تتنازل عن بعض حقوقها إبقاء على مصلحة أبنائها وخيرهم .

ولعل من مصادر الخلاف بين الأولاد وزوجة أبيهم أن الأولاد يريدون من هذه المرأة أن تكون كأهمهم حدياً واحتمالاً ، وهذه مبالغة من الأولاد ينبغي ألا يصلوا إليها ، فيكفي من زوجة الأب أن تجامل وأن تتساهل ، أما أن تحب وتصبح كالأم فهذا هدف سام لا يصل إليه إلا القليل من السيدات .

وليفهم الأولاد أن أية زوبعة يثيرونها سيعود عليهم الكثير من آثارها ،
وأن جزءاً كبيراً منها سيعود على الأب الذي كثيراً ما يقع بين شِقَئِي الرّحى ،
وإلّا في زوجات الأب وأولاد الزوج يصدق شطر كبير مما حذرت منه
الآية الكريمة « إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » (١) .

وهناك جانب آخر في هذه المشكلة هو علاقات أولاد الزوجات بعضهم
ببعض ، فهؤلاء ينبغي أن يعامل بعضهم البعض بحب الأخ لأخيه وجديه عليه ،
وإلا يتأثر أحداً منهم في علاقته بأخيه بموقف هذه الأم أو تلك ، ومن الواضح
أن الأولاد الكبار أكثر مسئولية في هذا المجال ، ولا شك أن حسن صلتهم
بإخوتهم الصغار وحديثهم عليهم ورعايتهم لهم ستستميل لهم قلب الأم مهما كان
هذا القلب قاسياً .

وأخيراً فالأب يمسك الزمام بيده ، وسيكون حزمه وعدله خير علاج
لهذا الأمر ، ولن يفلت الزمام من يده طالما تمسك بخلق الحزم والعدل ،
وليدرك أنه — بالإضافة إلى مكانته من الأسرة — حلقة الاتصال بين زوجته
من جانب وأولاده من جانب آخر ، وسيكون الله معه ما بقي هو مع
القسطاس المستقيم .

وأعرف عدة حالات حلت زوجة الأب فيها محل الأم حقيقة ، كحدّ بَت
على أولاد زوجها وأحسنّت معاملتهم ، وأحبّها الأولاد وأقبلوا عليها ، ومثل
هذه الزوجة تجني ثمرة سلوكها الطيب في حياتها سعادة وهناءً ، ويجازيها الله
على عملها خيراً وثواباً .

الحماة

وهناك موضوع مهم يتصل بالأولاد أيضا، ذلك أن صبيان اليوم هم شباب الغد ، والأم تتطلع إلى ابنها بكثير من الأمل وهو ينمو ، وتتعجل شبابه ورجولته ، حتى إذا دق أبواب الشباب وطرق شاربته أسرع أمه تعلن ما كانت تخفى ، فتحدث زوجها في ضرورة الفرخ بابنها ، وتتحمس الأم في الخطبة لابنها ، وتغنى وترقص وهي تزف له عروسه ، ثم يهدأ البيت ، لتبدأ بعد قليل عاصفة حمقاء في أكثر البيوت ، تثيرها الأم غالبا ، وقد تثيرها زوجة الابن ، ويظل هذان يصطرعان ، ويقف الشاب بين شد وجذب ، وتنتهي الأزمة بأحد طريقين : الطلاق أو خروج الشاب مع زوجته من هذا البيت .

والخلاف بين الزوجة وحماها خلاف عريق الأصول في البيئات الشرقية ، ولا يكاد يوجد في الغرب ، ذلك لأن روابط الأسرة في الشرق أقوى ، وكثيرا ما يتزوج الشاب في بيت أبيه وأمه ، وبذلك يُدخِل امرأة غريبة إلى البيت ، وتقع منافسة بين أم الشاب وبين زوجته ، فالأم تريد أن تستأثر بحب ابنها ، وتريد أن تظل موضع سره ، ولكن المرأة الجديدة تنازعها هذه المكانة ، فتعمل على أن تنال حب زوجها وكل عطفه ومودته ، وتجذب إليها قلبه وسره ، وتبدأ الخصومة بعد ذلك وبسبب ذلك ، ولكن هذه الخصومة تنسب أمام الناس لأسباب وتعللات كاذبة .

ولا يكاد يوجد مثل هذا الخلاف بالغرب ، لأن انفصام الأسرة وتقطع أوصالها لا يدع للأم صلة تذكر بابنها منذ يشب ، فهو يغادر البيت قبل الزواج بزمان طويل في الغالب ، وتكون له أسراره الخاصة وأصدقائه ، حتى إذا تزوج لا تحس أمه أن شيئا ضاع منها ، لأن هذا كان قد ضاع قبل ذلك ، واجتذبت سهراته وأعماله ورحلاته وأصدقائه .

وفي الأدب العربي نظائر لهذه الحالة الشائعة ، فقد وقع خلاف مزروع بين أم قيس بن ذريح وزوجته الحبيبة لبنى ، وانتهى هذا الصراع بطلاقها ، وهذا الطلاق نفس قيس المسكين فلم تستطع أمه بعد ذلك أن تنتفع به ، ولم تدّر وهي تحارب زوجة ابنها أنها في الوقت نفسه تحارب ابنها العزيز (١) .

وهكذا نريد أن نلفت نظر الأم إلى أنها لن تستطيع أن تكره زوجة ابنها وتحب ابنها ، وأن حبها لابنها يستلزم أن تحب زوجها وتعطف عليها وتحملها محل بناتها ، ثم إن من حق الزوجة أن تستقل مع زوجها ، وللزوج أن يعطف على أبيه وعلى أمه ما استطاع ، ولكن على أن تكون زوجته في بيت مستقل عن أهله ، فإذا قبلت الزوجة أن تعيش مع حماتها فهذا نوع من التضحية لابد أن يقابله عطف من الأم وحنان من الأب .

على أن الزوجة الشابة ليست بعيدة عن المسئولية ، وفي بعض الحالات تكون عليها مسئولية تفوق مسئولية الأم ، فمن واجبها أن تحمل حماتها محل أمها ، وإذا كانت تحب زوجها وتريد أن تشاركه حياته ، فينبغي أن تحب آله وتبر والديه ، وكما قلنا مع الأم ، لا يمكن للزوجة أن تحب زوجها وتكره أمه ، فهذا اضطراب واضح ووضع للزوج المسكين في مكان حرج ينغص عليه حياته ، ويضعف همته ، ويقلل نشاطه .

ولسنا ننسى أن نسر بكلمة إلى الشاب ، ففي اعتقادنا أن سلوكه من استقامة أو انحراف ، ومن قوة أو ضعف يكون له أكبر الأثر في إشعال هذه النار أو في إضعافها وإخمادها ، ولو كان هذا الشاب واسع السياسة ، كبير القلب ، يمسك زمام أمره بنجاح لأعطى أمه حقها وزوجته حقها ، ولقلل من المنافسة بين الاثنين ولأرضى نوازع الحب في هذين الشخصين اللذين يحبانه ويتجاذبان به بجهل وعناد .

(١) انظر حديث الأربعاء للدكتور طه حسين ج ١ ص ٢٠٤ .

ومثل ذلك قد يحصل بين الرجل وحماته (أم زوجته) وبخاصة إذا كانت هذه كثيرة التدخل بين طرفي الأسرة الجديدة ، ويطلق المصريون بوجه خاص كثيراً من النكات التي تصور انزعاج زوج البنت من حماته وقلقه من تدخلها وتأثيرها . واعتقادي أن مشكلة الزوجة مع حماتها أقسى من مشكلة الزوج مع حماته ، وهي مشكلة من نوع واحد على العموم . على أن آداب الإسلام تحث الرجل على صلة أقارب زوجته وإكرامهم والإحسان إليهم ، وفي الحديث يقول تعليه السلام : أحق ما يكرم عليه الرجل ابنته وأخته (١) .

هذه لمحات عن بعض المشكلات الاجتماعية المرتبطة بالأولاد ينبغي أن يلاحظها الآباء ، وأن تكون موضع اهتمامهم وتقديرهم ، ليؤدوا بذلك حقوق الله وحقوق الأبناء ، وليضمنوا للأسرة حياة طيبة سعيدة .

(١) رواه الخمسة إلا الترمذي وانظر تفسير الشوكاني لهذا الحديث في نيل الأوطار

الختان

من تاريخ الختان :

الختان للذكر والأنثى عادة تنحدر من أعماق التاريخ ، لا نستطيع أن نعرف متى بدأت ، وقد عرفه سكان المكسيك القدماء ، كما عرفته قبائل إفريقية ، وفي تاريخ هيرودوتس أن الختان كان جارياً عند المصريين ، وكان الاختتان في أول الأمر مقصوراً على الكهنة والحكماء ، ثم انتشر بين عامة المصريين ، وتوجد في معابدهم رسوم تمثل عملية الختان ، وكان هدفه عند المصريين القدماء الوقاية الصحية من الأقدار التي تتعرض لها الأعضاء التناسلية بسبب الزوائد التي يزيلها الختان (١) .

وقبل أن يتصل اليهود بالمصريين كانت عادة الضحايا البشرية معروفة عند اليهود ، فكان اليهودى يقدم أحياناً ضحية ضمن القرابين الأخرى من الحيوان والثمار ، واستمر أخذهم بهذه العادة فترات طويلة امتدت إلى عهد الانقسام حيث قدم الملك آخاز ابنه قرباناً للآلة (٢) ، ومن قديموا ضحايا للآلة أيضاً من اليهود ابنة جفثة (٣) ، ثم اتصل اليهود بالمصريين ورأوهم يختنون فاقتبس اليهود منهم هذه العادة ، وأعلن الرهبان اكتفاء الآلة بما يُقتطع في عملية الختان بدلاً من أن يضحى بالإنسان كله ، فأصبح ما يُقتطع في الختان يحرق قرباناً للآلة أمام المعبد مع بواكير الحيوان والثمار . (٤) .

وانتقل اليهود بالختان لخطوة أخرى ، فقد خرجوا أو أخرجوا من فلسطين ، وساحوا في الأرض واختلطوا بأجناس شتى من البشر ، وخيف أن ينمعو في الشعوب ، فجعلوا عملية الختان فريضة يحتمها الولاء للجنس ،

(١) تاريخ هيرودوتس (الترجمة العربية) ودائرة معارف البستاني ج ٧ ص ٣٤٠ .

(٢) الملوك الثاني ١٦ : ٣ .

(٣) Charles Foster Kent A History of the Hebrew people P 96

(٤) انظر كتاب اليهودية للمؤلف ص ٢٠٥ .

وأصبح على اليهودى أنى كان أن يختن ليكون ذلك قاطعاً على أنه يهودى ،
ويظل ذلك فرقاً بيناً بين اليهود وبين الشعوب التى اختلطوا بها ، وأحس
اليهود قبيل عهد المكابيين أن الختان عملية تميزهم عن الناس ، وأن ذلك يُنزِل
بهم الضرر أحياناً ، فاتجهوا إلى جعل عملية الختان بسيطة للذكر والأنثى
بحيث يستطيع اليهودى أن يدعى أنه غير مختون ، وبالتالي يدعى أنه غير يهودى
ليبقى بذلك ما ينزل باليهود من أذى ، ولكن الكهنة فى عهد المكابيين أدركوا
أن ذلك سيؤدى باليهود إلى اللؤبان فى سواهم ، فأمر هؤلاء الكهنة أن تُزال
الغلفة عن آخرها حتى لا يمكن لليهودى أن يندمج فى سوى اليهود من الشعوب (١)

وظهر السيد المسيح نبياً إلى بنى إسرائيل ، وجاء بعده بولس فجعل
المسيحية ديناً عاماً ، ودفعها إلى أوربا حيث لا يعرف الناس الختان ، وأدرك
بولس أن عملية الختان قد تعوق دخول الناس فى هذا الدين ، فعمل جاهداً
لإيقاف اعتبار هذه العملية شيئاً ضرورياً لاتباع دينه ، وطالما صرخ فى رسائله
بقوله : ما هو نفع الختان (٢) ؟ وراح يدلل على عدم وجوب الختان بقوله :
« دعى أحد وهو مختون فلا يصير أغلف ، ودعى أحد فى الغرلة فلا يختن ،
ليس الختان شيئاً ، وليست الغرلة شيئاً ، بل حفظ وصايا الرب (٣) » .

الإسلام والختان :

تلك لحظة سريعة عن تاريخ الختان وتطوره قبل الإسلام ، أما فى الإسلام
فإن الباحثين المسلمين يفرقون فى الختان بين الذكر والأنثى ، ويرتبط
تفكيرهم بالالتزامات الإسلامية الواجبة على المسلم والمسلمة ، فالطهارة
من الجنابة تستلزم — فى رأى المالكية والشافعية والحنابلة — غسل ما تحت
القلقة للأقلف ، وبدون الختان يعتبر الوصول إلى تطهير الجزء الداخلى عملاً

(١) انظر : (١) — قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٥ و ٣٧١ والهامش بالصفحة الأخيرة .

(ب) — كتاب « اليهودية » من سلسلة « مقارنة الأديان » للمؤلف من ٢٠٥

و ٢٩٦ — ٢٩٧ من الطبعة السابعة .

(٢) انظر مثلاً رسالته إلى أهل رومية ٣ : ١ .

(٣) كورنتوس الأولى ٧ : ١٧ — ١٩ .

صعباً أو غير مقدور عليه ، ولذلك اتجه أكثر الفقهاء إلى القول بلزوم الختان للذكر تبعاً للقاعدة الأصولية التي تقرر أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ومن هنا كان ختان الذكر واجباً عند أكثر المفكرين المسلمين ، ويقول الشافعية في ذلك : يجب إيصال الماء إلى ما تحت القلفة ، فإذا لم يمكن غسل ما تحتها إلا بإزالتها فإن إزالتها يجب ، وإن تعذرت إزالتها يكون حكم صاحبها محكم من فقد الماء والتراب الذي يتيمم به ، ويقال له : فاقب الطهورين ، وبذلك يعلم أن الاختتان واجب عند الشافعية (١) .

ويضاف إلى ذلك ما يقرره الأطباء والمجربون من أن ما تحت القلفة يعد منتبأً خصباً لتكوين الإفرازات التي قد تسبب للجسم ألواناً من الأمراض فإذا صح هذا كان الختان للذكر واجباً ككل شيء وقائي يحفظ على الإنسان حياته .

أما الحديث عن المرأة فيختلف عن ذلك ، فليس لدى المرأة هذه العوامل التي تغطي جزءاً من الجسم يلزم غسله من الجنبانة ، أو تتكون فيه الإفرازات الضارة التي تصعب إزالتها ، وكل ما عند المرأة هو نوع من الزوائد البارزة قليلاً ، وهناك عن هذه الزوائد يختلف اتجاه الباحثين ، فبعضهم يراها لازمة لاستكمال حيوية الفتاة ، وأن وجودها يعطي المرأة حقها في علاقاتها الجنسية بالزوج ، وأن القضاء عليها يحرم المرأة ذلك الحق أو يجعله صعب المنال ، ويراها آخرون زوائد تجعل حساسية المرأة حادة وينصحون - بسبب ذلك - بإزالتها ، وقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم العلاج الصحيح لهذا الداء ولذلك ، فقد أوصى (في حديث أم عطية) بأن تهذب هذه الزوائد ، بحيث لا تفقد المرأة حيويتها وبحيث لا تشتد حدتها ، وفي هذا الحديث الشريف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه المرأة التي كانت تقوم بختان الفتيات : « أَسِمِّي وَلَا تَهْكِي » قال ابن الأثير في النهاية : شبه القطع اليسير بشم الرائحة ، والنهك بالمبالغة فيه ، أي اقطعي البعض ولا

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ١١٤ .

تستأصله ، وقال الشعراني في كشف الغمة : كان صلى الله عليه وسلم يقول لمن تختن الجوارى : إذا خفضت فلا تنهكى ، فإنه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج . وفي رواية : فإنه أحظى للمرأة وأحب للبعل ، وفي رواية أحسن للوجه وأرضى للزوج (١) .

ونحن نصرخ في وجه القابلات والحكيمات وغيرهن ممن يقمن بعملية الختان للفتيات أن يتبعن السنة الرشيدة التي وضعها للمسلمين الحكيم الأعظم صلوات الله عليه وهي الإشمام أى القطع اليسير جداً وعدم الإنهاك على الإطلاق .

ويميل بعض المفكرين وأنا من هؤلاء إلى قفل الباب من أساسه ، بترك ختان المرأة ، فترك ختانها أيسر جداً من المبالغة في الختان . أما الفتى فيجب ختانها كما شرحنا من قبل ولا خلاف في القدر الذى يقطع منه عند الختان .

(١) ابن الأثير : البداية والنهاية، والشعراني : كشف الغمة ، وابن تيمية . الفتاوى

تحديد النسل

لقد آثرنا أن نستعمل هذا العنوان الذى شاع الآن استعماله ، لنحاول أن نعرض رأى الإسلام واتجاهات المفكرين المسلمين فى موضوع يشغل رأى العام فى هذه الأيام ، فاعتقادنا الذى أثبتناه عدة مرات أن للإسلام رأياً قيادياً ورشيداً فى كل المشكلات التى تواجه المسلم ، وموضوع التحكم فى تعداد النسل موضوع عرفه المسلمون منذ حياة الرسول ، وكانوا يتحدثون عنه باسم « العزل » وعرفوه بأنه الإنزال خارج الفرج ، وهو ما طوره العلم الحديث بأن جعل العزل يتم بواسطة كيس من الغشاء الرقيق يستعمله الرجل ، أو بواسطة طريق آخر من الطرق الطبية ، ولا يتم بذلك حمل .

ولست أفهم من التعبير بـ « تحديد النسل » أن المقصود تحديد النسل بفرض قانون على كل الأزواج ، فذلك شئ غير طبيعى ، وإنما أفهم أن المقصود إشاعة نوع من الثقافة العامة بين الجماهير ليقدّموا على الإنجاب أو على العزل بناء على تدبر وفكر ، حتى لا يتم الإنجاب على غير هواهم وبدون أى استعداد للوليد الجديد ، وتمشياً مع هذا الفهم يفضل كثير من الباحثين أن يتكلموا عن « تنظيم النسل » بدلا من الكلام عن « تحديد النسل » والمدلول على كل حال واحد فيما نرى ، ولذلك ظللنا مع التعبير الشائع .

وليس فى هذا الموضوع نص واضح فى دلالة ، وتكتنفه اعتبارات مختلفة ، ومن أجل ذلك اختلف الباحثون فيه قديماً وحديثاً ، وليس فى ذلك عيب ، بل إن الاختلاف هو فى الحقيقة طبيعة البحث فى مثل هذا الموضوع ، وتلك هى طريقة الإسلام فى تشريع الأحكام ، فالذى لا تختلف فيه المصلحة باختلاف الأوقات والبيئات والاعتبارات يرد النص على حكمه قاطعاً لا يترك فيه مجالاً للنظر والاجتهاد كالميراث والمحرمات فى الزواج ، أما الذى تخضع المصلحة

فيه للظروف فإن الإسلام يَكِلُهُ إلى أرباب النظر والاجتهاد وتقدير المصالح « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الدين يستنبطونه منهم » (١)

وفي ضوء هذه السياسة التشريعية لديننا الحنيف تأخذ في دراسة هذا الموضوع وعرض وجهات النظر فيه ، وأول ما يطالعنا رأئاً يربط الحكم هنا بالحرية التي منحها الإسلام لتابعيه في حدود معينة ، فيقرر هذا الرأي أن للزوجين مطلق الحرية في تحديد نسلهما أو قطعه بالمرّة ما دام راضيين متراضين ، فإذا انعدم الرضا عند أحدهما وقفت حرية الراغب في التحديد لأصطدامها بحق الشريك الآخر الذي لا يريد التحديد ، وأما ما ورد في السنة من الترغيب في استكثار النسل فليس من باب الوجوب الذي يقيد حرية الزوجين ، وإنما هو ترغيب يستجيب له مَنْ توفرت عنده أسباب الإجابة في الصحة واليسر ، فإذا لم تتوفر كالمريض يخشى أن يورث نسله عاهة من عاهاته ، أو الفقير يخشى أن يزداد بكثرة الأولاد عسراً ، كان للزوجين مطلق الحرية في تحديد النسل ، فالأمر متروك لخيارهما ، وكل ذلك يرجع إلى مفهوم الحرية في الإسلام (٢) .

ذلك رأى مجمل عن « تحديد النسل » ربطه كاتبه بالحرية ، وللفقهاء تفصيل دقيق عن التحكم في النسل ، سواء أكان ذلك التحكم بمنع النسل نهائياً أو بتأجيله ، وقد آن لنا أن نعرض هذه الآراء :

المنع من الحمل نهائياً :

يرى الفكر الإسلامي ضرورة منع الحمل منعاً باتاً إذا كان بالزوجين أو بأحدهما داء عضال من شأنه أن يتعدى إلى النسل والذرية ، فإذا لم يتوقف الزوجان في هذه الحالة عن الإنجاب كان لولي الأمر الحق في التفريق بينهما جرياً على القاعدة : إن على ولي الأمر سدّ أبواب الضرر الذي يصيب الأفراد

(١) سورة النساء الآية ٨٢ وانظر « الإسلام عقيدة وشريعة » للأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ٢٠٦ .

(٢) نديم الجسر : فلسفة الحرية في الإسلام ص ٣٧ .

أو الأمه ، ويرى الفكر الإسلامى كذلك منع الحمل منعاً باتاً إذا قرر الأطباء أن الحمل فيه خطورة على حياة الأم ، بل إذا كانت الأم حاملاً فعلاً وثبت من طريق موثوق به أن بقاء الحمل فيه خطورة على الأم فإن الشريعة الإسلامية بقواعدها تأمر بارتكاب أخف الضررين ، فإن كان في بقاءه موت الأم وكان لا منقذ لها سوى إسقاطه ، كان إسقاطه في تلك الحالة متعيناً ، ولا يضحى بها في سبيل إنقاذه لأنها أصله (١) .

تأجيل الحمل لمصلحة رضيع :

من المعروف طبياً أن لبن المرأة الحامل يضر بالرضيع ، وأن هذا الضرر أو على الأقل احتمال وقوعه يظل يهدد الرضيع حتى بعد نموه لأن بذور هذا الغذاء الفاسد تترك أثرها في جسمه ، وقد نبه نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، فسمى الوطء في حالة الرضاع وطء الغيل أو الغيلة ، كأن الذى يتسبب في جعل المرضعة حاملاً يغتال الرضيع في جنابة سرية مقصودة أو غير مقصودة ، ففي حديث أسماء بنت يزيد : لا تقتلوا أولادكم سرّاً ، فوالذى نفسى بيده إن الغيل ليدرك الفارس فيدعثره (أى يقضى عليه) . وفي حديث آخر : لقد هممت أن أنهى عن الغيلة حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم ، ويعلق ابن القيم على الحديثين بقوله إن حديث أسماء على وجه الإرشاد والاحتياط للولد حتى لا يتعرض لفساد اللبن بالحمل الطارئ عليه ، ولهذا كانت عادة العرب أن يسترضعوا لأولادهم غير أمهاتهم ، والمنع منه غايته أن يكون من باب سد الذرائع التى قد تفضى إلى الإضرار بالولد ، بيد أن وطء المراضع مما تعم به البلوى إذ يتعذر على الرجل الصبر عن امرأته مدة الرضاع ، فسدت الدريعة لا يقاوم المفسدة التى تترتب على الإمساك عن وطء النساء مدة الرضاع ، ولا سيما من الشباب وأرباب الشهوة التى لا يكسرها إلا مواجهة النساء (٢) .

(١) الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٢٢١ والفتاوى

ص ٢٩٠ .

(٢) ابن القيم : المعاد ج ٤ ص ١٨ ومفتاح دار السعادة ص ٦٢٠ .

والطريق للتوفيق بين الاتجاهين هو العزل أو ما يماثله إذا كان هناك رضيع ، ففي ذلك ضمان أو شبه ضمان لعدم الحمل وبالتالي لسلامة الرضيع ، وفيه إتاحة الفرصة لقضاء حاجة الرجل مع زوجته في فترة الرضاع ، وفترة الرضاع الكامل كما حددها الإسلام عامان قال تعالى « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » (١) وبعد الفطام يمكن أن يبدأ حمل جديد ، فتكون المدة بين كل ولدين حوالى ثلاث سنوات

تأجيل الحمل لمصلحة الوالدين أو الأولاد :

رأينا فيما سبق أن إسقاط الحمل أو منعه نهائياً ممكن إذا كان في الحمل خطر يحقق على صحة الأم ، وهنا نريد أن نضيف أن الحكم يتدرج بتدرج حالة الأم ، فإذا كان الحمل سيؤذيها أذى لا يؤدي بحياتها ولكنه يرهقها ، فإنه يجوز بل ربما يستحب لها تأجيل الحمل حتى تستطيعه بدون إرهاق ، عملاً بالقانون الإسلامى العام الذى حدده القرآن الكريم « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٢) وذكره الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : لا ضرر ولا ضرار ، ومثل ذلك أن يكون في كثرة الأولاد إرهاق للأسرة ووقوع حرج دنيوى قد يفضى إلى الحرج في الدين ، كأن يقبل الأب الحرام ، أو الرشوة ، أو يرتكب المحظور من أجل الأولاد ، قال تعالى « وما جعل عليكم في الدين من حرج » (٣) أو على الأقل يرهق نفسه جهداً وكفاحاً لسد حاجة أولاده وتربيتهم ، ففي هذه الحالات يجوز أو يستحب تأجيل الحمل بحسب كل حالة من الحالات ، وبحسب مقدار الحرج ومقدار الإرهاق .

ومن الحالات التى يجوز فيها تأجيل الحمل أن يكون الزوجان أو الأم وحدها على سفر ، أو أن تكون في بلاد يصعب فيها علاج الأولاد أو تربيتهم

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٣) سورة الحج الآية ٧٨ .

تربية إسلامية ، فيؤجل الحمل حتى نهاية السفر أو العودة إلى بلاد الإسلام ، ويكون ذلك مستحباً أو واجباً حسب الظروف ، فإذا تأكد لديهما أن الأطفال سيكونون فريسة الأوبئة ، وأن التطعيم ضد هذه الأوبئة ليس متوفراً ، أو تأكد لديهما انحراف التعليم في المكان الذي ينزلان فيه ، فإن تأجيل الإنجاب قد يصل إلى درجة الواجب حسب الحالات والظروف .

ومن مصلحة الأولاد ما يذكره علماء التربية من أنه ينبغي أن توجد مدة كافية بين كل طفلين ليحس كل طفل بمكانته من أخيه السابق واللاحق ؛ فيحترم الصغير الكبير ويعطف الكبير على الصغير ، إذ أن المدة لو قصرت فإن فارق السن يختفي بعد قليل ، ولا يرى الصغير للكبير حقاً ولا يحس الكبير بواجب عليه تجاه الصغير ، والمدة التي يميل إليها أكثر علماء التربية هي حوالي ثلاث سنوات بين كل طفلين ، وهي المدة التي يراها الفكر الإسلامي كما مر

تأجيل الحمل لمجرد الاتفاق بين الزوجين :

رأينا فيما سبق أن الحمل يؤجل أو يمنع لسبب من الأسباب ، وإذا كان السبب خاصاً بالزوجة كالخوف على حياتها أو صحتها ، أو خاصاً بالزوج كتوقع الحرج أو الشطط أو تأكده ، أو خاصاً بالأولاد كالخوف على صحتهم أو دينهم ، فإن الزوجين يلزم أن يقبلا التأجيل أو المنع حسب كل حالة ، ولكن إذا لم يوجد سبب من هذه الأسباب فإن منع الحمل لا يتم إلا بموافقة الزوجين جميعاً لأن كلا منهما له حق في الولد وحق في اكتمال الالتقاء الجنسي ، وقد أفتى الفقهاء بالحرمة إذا عزل الرجل من غير موافقة زوجته ، وروى عن عمر أن الرسول نهى أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها .

حرمة تحديد النسل :

إذا تم الاتفاق بين الزوجين على تأجيل الإنجاب لغير سبب فإن هذا الاتفاق يشترط فيه ألا يتعارض مع مصلحة المسلمين ، فإذا تعارض معها أصبح تأجيل الحمل أو منعه حراماً ، كأن تكون هناك حروب طويلة المدى

تقتضى أجيالا من الأولاد للدفاع عن حوزة الإسلام وأرض المسلمين ، وكأن تكون هناك جالية إسلامية بين جماعات غير إسلامية ، ويؤدي منع الإنجاب إلى إضعاف هذه الجالية ، وكأن يكون هناك تسابق في التعداد بين المسلمين وغير المسلمين ، ويكون من الخطر على المسلمين أن يقل عددهم ، فإن تأجيل الحمل حينئذ لا يجوز ، لحق الأمة وحق الإسلام في الولد .

كراهية تحديد النسل :

يكون منع الحمل مكروهاً — ولو مع اتفاق الزوجين — إذا كان السبب فيه مكروهاً كأن يكون لسبب الخوف من إنجاب أنثى ، أو يكون لسبب أنانية الزوجين ورغبتهما في التفرغ للمرح والرحلات والترف ، وعزوفهما عن تحمل مسئوليات الأولاد وأعبائهم مع استطاعتهم ذلك (١) ، أو يكون بسبب الرغبة في استمرار حياة الرخاء خوفاً أن يقل مستواهم المادى نوعاً ما بسبب طفل جديد .

إباحة تحديد النسل :

فإذا لم يوجد سبب للمنع ولا سبب للإنجاب ، فالرأى الذى نرجحه هو رأى الإمام الغزالي الذى يقرر أن منع الولد مباح ولا كراهية فيه ، لأن النهى

(١) يرى بعض الباحثين أن استقلال المرأة الاقتصادى هو من أهم العوامل التى دفعت إلى تحديد النسل فنذ اضطرت النساء أن يخرجن من البيوت ويكدحن. لكسب المعيشة بطلت القسمة الفطرية القديمة في باب الاقتصاد ، والتى كان بموجبها على الرجال أن يكسبوا لكسب معيشتهم ومعيشة أهليهم ، وعلى النساء تربية الأولاد وإدارة شئون المنزل. فلما احتملت المرأة عبء كسب المعيشة بدأت تضجر بأن تحمل معه نصيبها القديم، ثم إن المشقة التى تكابدها أكثر النساء أيام الحمل ، لا تدعهن قادرات على أن يقمن بمجهود جسدى أو فكرى خارج البيوت ولا سيما آخر أيام الحمل ، وبعد الولادة بفترة ليست قصيرة (انظر حركة تحديد النسل لأبي الأعلى المودودي س ٧) وقد ذكر كاتب أوربي أن الأزواج والزوجات الذين يباشرون تحديد النسل سئلوا عن أسباب ذلك ، فأجاب عدد قليل منهم بأن السبب هو قلة المال وكثرة الأولاد ، أما الأكثرون فقد أجابوا بأن السبب هو تحسين الوضع المالى ، والاحتباس من خطر بعثرة الثروة بين أولاد كثيرين ، والاحتفاظ بجمال الزوجة ورشاقتها ، والبخل بحرية النفس في المرح والاستحمام ، والحيلولة دون أن تنصرف الزوجة إلى الأولاد فيعكر ذلك صفو الحياة الزوجية.

(Paul Burean : Towards Moral Bankruptcy p. 64)

إنما يكون بنص أو قياس على منصوص عليه ، ولا نص في الموضوع ولا أصل يُقاس عليه ، بل عندنا في الإباحة أصل يقاس عليه وهو ترك الزواج أصلاً ، أو ترك المخالطة الجنسية بعد الزواج ، فإن ذلك مباح وليس فيه — في الأحوال العادية — إلا مخالفة الأفضل ، ويكون منع الحمل بالعزل وما يشبهه مباحاً ، كما أبيح ترك الزواج وترك المخالطة ، ويحتج معارضو الغزالي عليه بقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا » ويجيب الغزالي بأن معنى « ليس منا » هو ليس على سنتنا المثلى ، أى أنه خالف ما هو أكمل وأمثل ، ويُحتج على الغزالي كذلك بما روى عن أن الرسول قال في العزل « ذلك هو الوأد الخفى » ويجيب الغزالي على ذلك بالأحاديث العديدة التى رويت عن الرسول فى إباحة العزل ، ويُحمل هذا الحديث على الحث على الإنجاب إذا توافرت الظروف لذلك ، ويروى الغزالي أنه لا يمكن أن يكون العزل وأدّاً إذ لم يتصل بَعْدُ ماء الرجل بماء المرأة (١)

ويورد ابن القيم دراسة واسعة عن العزل دون سبب يحث عليه أو يُلْزِمُه ودون سبب ينهى عنه ، فيروى أن رجلاً جاء إلى الرسول فقال له : يا رسول الله إن لى جارية وأنا أعزل عنها لأنى أكره أن تحمل وأريد ما يريد الرجال ، وإن اليهود تحدّث أن العزل هو الموءودة الصغرى . فأجاب الرسول بقوله : كذبت اليهود لو أراد الله أن يخلقه ما استطعت أن تصرفه . فالرسول لم يمنع العزل وإنما قرر إمكان الحمل معه وفى ذلك تكذيب لاتجاه اليهود باعتبار العزل وأدّاً ، وفى الصحيحين عن جابر قال : كنّا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك الرسول فلم يَنْهِنَا . . . وقد رويت الرخصة فى العزل عن عشرة من الصحابة هم : على وسعد وأبو أيوب وزيد بن ثابت وجابر وابن عباس والحسن بن على وخباب وأبو سعيد الخدرى وابن مسعود ، وذلك هو مذهب مالك والشافعى وأهل الكوفة وجمهور أهل العلم ، وأجاب هؤلاء عن الحديث الذى يروى بأن الرسول وصف العزل بأنه « الوأد الخفى »

(١) إحياء علوم الدين : باب النكاح .

فذكروا أن هذا الحديث فيه اضطراب وإذا صح فهو على طريق التنزيه ، وروى أن رجلاً قال في حضرة عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب : إنهم يزعمون أن العزل هو الموءودة الصغرى . فقال على : لا تكون موءودة حتى تمر عليها المراحل التي وردت بالقرآن الكريم ، بأن تكون نطفة ثم تكون علقة ، ثم تكون مضغة ، ثم تكون عظاماً يكسوه اللحم ثم تكون خلقاً آخر ، فقال عمر : صدقت أطل الله بقاءك (١) .

المرأة العاملة والأولاد :

في الحياة الحديثة ظروف جديدة ، ينبغي أن تكون موضع بحث ونحن نتحدث عن تحديد النسل وتنظيمه ، فكثير من الأمهات يعملن كما يعمل الآباء ، وأصبحت الحواضن والخدم شيئاً صعب المنال ، ودور الحضانة قليلة ولا تسد الحاجة ، وكل هذا جعل المرأة العاملة تقلل من نسلها بسبب ظروف عملها ، ومعنى هذا أن الأسرة المثقفة قللت النسل ، أما الأسرة قليلة الثقافة فإنها تطلقه ، ويترتب على ذلك أن الأسرة التي تستطيع أن تربي الأولاد وتحسن توجيههم قللت الأولاد ، وأن الأسر التي لا تستطيع ذلك تكثر الإنجاب ، وهذا يشكل خطراً سيظهر جلياً بعد عدة سنوات ، وعلى هذا فالوضع الصحيح أن نبحث المرأة المثقفة ألا تربط بين العمل وعدد الأولاد ، وأن نيسر لها بمختلف الوسائل أن تجمع بين هذا الواجب الديني والوطني وبين عملها ، وإن لم تفعل ذلك فإنها تضحي بواجبها تجاه الدين والوطن من أجل عمل يمكن أن يتم بدونها .

الانفجار السكاني :

وبعد هذه الجولة الطويلة التي عشناها في ظلال الفكر الإسلامي ومع لفيف من قادة هذا الفكر في العصور المختلفة ، نعود إلى ذلك العنوان الذي يتردد كثيراً في صحافة اليوم وعلى ألسنة بعض الباحثين ، ويتجه الحديث

(١) ابن القيم : زاد الميعاد ج ٤ ص ١٦ - ١٨ .

إلى أن هذا الانفجار يبتلع كل شيء ، ولا بد من وقف هذا السيل البشرى لنضمن حياة اقتصادية طيبة ولنحقق بعض الرخاء ، فقد ثبت لدى هؤلاء أن الأفواه الجديدة تبتلع كل شيء وتزدرد كل جهد .

ومقابل هذه الصيحة هناك صيحة أخرى يعتمد أصحابها على الحديث الشريف « تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإنى مباح بكم الأمم يوم القيامة » ونحب أن نقول كلمة لهؤلاء وأولئك ، ولعل من الخير أن نبدأ بالحديث للطائفة الثانية فنقرر سداد رأى الذى قرره الأستاذ الشيخ شلتوت بقوله : إن الشريعة لا تعجبها الكثرة الهزيلة ، ولا تقيم لارتفاع نسبتها فى التعداد وزناً ، ولا يتخذ منها النبى الكريم مبعثاً للمباهاة بها ، بل بالعكس ، تمقت الشريعة هذه الكثرة وتحقرها ، يشير إلى هذا ما صرح فى دلائل النبوة عن النبى صلى الله عليه وسلم من قوله : « توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال قائل : أمن قلة نحن يومئذ ؟ فقال الرسول : لا ، بل أنتم كثيرون ولكنكم غشاء كغشاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » يشير الحديث إلى أن الكثرة التى تملكها عوامل الضعف والهزال كثرة لا خير فيها (١) .

وانعد إلى الطائفة الأولى التى تتحدث عما يسمونه « الانفجار السكانى » فنقرر أن هذه الدعوة تحتاج إلى مزيد من بُعد النظر ، فإن سكان الأرض لم يأكلوا خيرات الأرض ، وسكان العالم الإسلامى لا يزال أمامهم فى العالم الإسلامى خيرات وخيرات ، وسكان العالم العربى إن فلقوا أرضهم واستغلوا مناجمهم ومواردهم كانوا من أغنى الناس ، وإذا كنا هنا نتحدث عن الفكر الإسلامى ، فإننا نقرر أن الأمة الإسلامية أمة واحدة ، والعالم الإسلامى شعب واحد ، وإذا لاحظنا ذلك فإننا يمكن أن نقرر أن المسلمين أقل مما تتطلبه المساحات الشاسعة التى يشغلونها والموارد الكبيرة التى لم يبدعوا بعد فى

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت س ٢١٦ .

استغلالها ، أو استغلوا أجزاء يسيرة منها ، ونحب أن نضيف إلى أن هذه الدعوة تعتمد كثيراً على النظرة السريعة بدليل أنها موجودة أيضاً في السودان ، وفي السودان مساحات شاسعة من الأرض البكر التي لا تجد من يعمل فيها ، وفي العراق كذلك مساحات كبيرة غير مستغلة أو تستغل جزئياً ، وفي مصر التي تنشط فيها هذه الدعوة ماء ينساب إلى البحر وأرض تحتاج إلى الماء ، وقد عمل الإصلاح الحديث لعلاج هذا الداء بوسائل متعددة ولا تزال هناك وسائل أخرى سيطرقها الإصلاح يوماً ما ، ونحن في مصر نعيش على شريط ضيق يمتد مع مجرى النيل ، وهناك من أرضنا الواسعة مساحات تصلح للسكنى والإنتاج ولكن الناس لا يتجهون لها ، واعتقادي أن الذين يحاربون كثرة السكان يرون ذلك أيسر من العمل لخلق موارد جديدة لهؤلاء السكان .

وما رأى هؤلاء الذين يصنيحون هذه الصيحة إذا قررنا لهم أن كثيراً من الحرف توشك أن تنقرض لأنها لا تجد الآن من يعمل بها ، وإن سئل السكان يتجه نحو مجرى واحد وهو الشهادات فالوظائف ، فيبرز وهو انفجار فعلاً ، ولكن لو تعددت مجاريه لظهر أننا في حاجة إليه وإلى سواه .

ولعل أهم الأسباب التي تدعو إلى هذه الصيحة هو أن القائلين بها يرون أن تدفق النسل ينصب من أصحاب الدخول المحدودة وبخاصة من الفلاحين أكثر من ظهوره بين الأغنياء ، وأن هذا يوجب حالات من التشرذم تدعو للانزعاج ، ولكننا هنا نقرر أمراً خطيراً هو أن أولاد هذه الطبقة هم سلاح الأمة أكثر من سواهم ، ولنستمع إلى آدم سميث أحد علماء الاقتصاد الذي يقرر أن الفقراء يتميزون بارتفاع عددهم في المواليد يفوق بكثير نسبة الوفيات عندهم ، أما الأغنياء فإن رخاءهم يؤدي إلى انخفاض نسبة المواليد عندهم ، وهو يعلل لذلك بقوله ، إن الترف في الجنس اللطيف وإن كان يلهب الشهوة في التمتع ، إلا أنه يبدو دائماً أنه يضعف قوى التكاثر أو يقضي عليها أحياناً بالكلية . وقلة النسل عند الأغنياء هي التي تركز الثراء في أيدي قليلة (١) .

(١) انظر كتاب « الاشتراكية » للمؤلف ص ٣٥ .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الولد الواحد أو الأولاد القلائل المتفاوتين في السن الذين ينجبهم الأغنياء يحرمون فرصة التعاشر والتلاعب والتعامل مع الإخوة الكبار والصغار ، وبهذا لا يتخلقون بكثير من الأوصاف الإنسانية الكريمة ، فليس الأبوان هما اللذان يربيان أولادهما ؛ بل إن الأولاد أنفسهم يربي بعضهم بعضاً ، فالأولاد عندما يتعايشون ويتعاشرون تتولد فيهم المواساة والمحبة والإيثار والترافق وما إليها من الصفات الخلقية والطباع الإنسانية العليا ، وهم عندما ينتقد بعضهم بعضاً يزيلون عن أنفسهم كثيراً مما قد يكون بهم من النقائص والعيوب الخلقية ، فالذين يحددون ذريتهم بولد واحد أو ينجبون ولدين بحيث يكون الفرق كبيراً بين سنيهما يضيعون على ذريتهم فرصة ثمينة للتربية الخلقية (١) .

ونعود لأولاد الفقراء وأولاد الطبقة الكادحة لنقرر أنه إذا ثبت أن الدولة في حاجة إليهم بعد أن ينحل الأغنياء بالأولاد أو تخلت الطبيعة على الأغنياء بالأولاد فإن على الحكومة أن تعنى عناية كاملة بهؤلاء الأولاد فتكفل لهم حياة مناسبة وتقودهم إلى مستقبل رشيد ، إنهم مادة طيبة ، وقد أثبت التاريخ أن القادة في مجال السياسة وفي مجال الفكر ينبعون من هذه الطبقة ، ولسنا في حاجة إلى أن نذكر قوائم للأسماء التي شرفت وجه بلادنا في مختلف العصور ، وهي من هذا المنبع ، وإن توجيه هؤلاء حسب مواهبهم سيعطينا قدرات في مختلف المجالات ، وسيملاً ألواناً من الفراغ في حياتنا ، فيمكن أن يكون منهم النجار والكناس والحداد والحلاق ، ويمكن أن يكون منهم الجندي والعالم والباحث والمهندس والوزير . أما أولاد الأغنياء فهم مع قلتهم ينسرون نحو هدف واحد يُعَدُّ استمراراً لحياة أهلهم ، وقلما يتزلون معترك الحياة ويصارعون فيه مع المصارعين .

والخلاصة أنه ينبغي أن نشيع لونا من الثقافة يساعد الأزواج على تحديد النسل والتحكم فيه عند دواعي ذلك ، ولكن لا ينبغي أن يتردد انزعاج

(١) أبو الأعلى المودودي : حركة تحديد النسل ص ٨٩ .

يشغلنا عن أن نحيل الطاقة البشرية الموجودة لدينا إلى طاقات من الخير والبركة على مجتمعنا وعلى المجتمع الإسلامى والإنسانى .

وهنا نقطة أخيرة من الدراسة المقارنة ينبغى أن نوردها هنا ونحن نتحدث عن الفكر الإسلامى ، هى أن المسيحيين يهتمون بكثرة النسل ويحاربون تحديده ، ومما ينسب إلى البابا بيوس الثانى عشر قوله فى الاتحاد الإيطالى لجمعيات العائلات الكبيرة العدد سنة ١٩٥٨ ما يلى : إن خصب الزواج شرط لسلامة الشعوب المسيحية ، ودليل على الإيمان بالله ، والثقة بعنايته الإلهية ، ومجلبة للأفراح العائلية(١) . وهو اتجاه نسمعه كثيراً من مختلف الجهات المسيحية ، وهو يصبُّ اللعنة على من يلجأ لتحديد النسل من المسيحيين ، وهذا يحتم على المسلمين أن يعملوا بالمثل ما دام المسيحيون يتجهون هذا الاتجاه .

ويزيد اهتمام المسيحيين بكثرة النسل فى البلاد التى يكونون فيها أقلية أو مساوين فى التعداد تقريباً لاتباع غير المسيحية من الديانات ، ولذلك تراهم فى الشرق بوجه خاص يتجهون إلى إكثار النسل ، فى الوقت الذى يتجه فيه سواهم من أتباع الديانات الأخرى إلى تحديده .

إسقاط الحمل :

تحدثنا نفاً عن منع الحمل أى عن الحكم فى وضع الحواجز للتحكم فى النسل ، ونريد هنا أن نتحدث عن الحكم فى التعرض للحمل بعد بدئه ووقوعه فعلاً ، وفى كلمة موجزة نقرر أنه إذا اختلفت الآراء حول التحكم فى الحمل قبل وقوعه ، فإن الآراء تتفق على الحفاظ عليه بعد وقوعه ما لم تقم ضرورة من الضرورات للتخلص منه ، كأن يقرر الأطباء أن فى الحمل أو الولادة خطراً على حياة الأم كما أسلفنا من قبل .

(١) الوثائق الكاثوليكية العدد ١٢٧١ سنة ١٩٥٨ .

وإسقاط الحمل حرام قبل نفخ الروح وبعده ، فقد أجمع الأطباء والفقهاء على أن هناك حياة من نوع ما توجد قبل نفخ الروح ، فمادة التلقيح ذات حياة يمكن للرائي أن يراها في المنظار المكبر (التايسكوب) ، وهذه المادة الحية تسعى جاهدة عقب نزولها للاتصال بالبويضة في رحم المرأة ، وفي البويضة تبدأ حياة كامنة لها عند أكثر الفقهاء حكم الحياة الظاهرة ، لأن الحياة الظاهرة هي المآل لهذه الحياة الكامنة ، وقد قرر الإمام الغزالي حكم المنع من التعرض للحمل بعد وقوعه ، ولكنه قرر أن جنابة إسقاطه تتفاوت بتفاوت حاله ، وفيما يلي كلماته :

وليس منع الحمل كالإجهاض والوآد ، لأن الإجهاض والوآد جنابة على موجود حاصل ، والوجود له مراتب ، وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة في الرحم وتختلط بماء المرأة ، وتستعد لقبول الحياة ، وإفساد ذلك جنابة ، فإن صارت علقة فضغة كانت الجنابة أفحش ، وإن نفخ فيه الروح واستوت الحلقة ازدادت الجنابة تفاحشاً ، ومنتهى التفاحش في الجنابة هي بعد الانفصال حياً (١) .

(١) إحياء علوم الدين : كتاب النكاح .

ابنٌ ليس من الصُّلب !! (التَّبْنِي والتلقيح الصناعي)

التَّبْنِي :

في البدايات القديمة كانت العلاقة بين الرجل والمرأة ، علاقة ينقصها النظام ، وفي ظروف كثيرة شاعت الشيوعية في المرأة ، فاختلط بذلك النسل واضطرب الأمر ، ولم تكن المسئولية عن الأطفال محددة .

وجادت لفظة السماء إلى سكان الأرض فنظمت لهم العلاقة الزوجية ، وربطتها بإيجاب وقبول بشروط معينة ، وأصبح للمرأة في الأديان السماوية زوج معروف ، وللرجل زوجة أو عدة زوجات ، وتحدد بذلك أبوالطفل وأمه ، وكان هذا التحديد طبيعياً ، فالطفل بعض أبويه وامتداد لهما ، قال تعالى : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والرائب » (١) وقال « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » (٢) ولهذا يرث الطفل عن أبويه كثيراً من الصفات الجسمانية والخلقية والعقلية ، إنه يرث عنهما اللون والقامة ، وكثيراً ما يرث المواهب ، والصحة أو المرض وغير ذلك مما يدل على أن الابن بعض أبويه واستمرار لهما ، وهذا يحتم ألا ينشأ الأب ابنه الذي ولد على فراشه ، ويحتم ألا يتبنى من ليس ابناً له ، ولعل هذه ميزة هامة يتميز بها الإنسان عن الحيوان والطير ، ففي الحيوان والطير عاطفة بنوة ولكن زمنها محدود بفترة التنمية والإشراف ، أي خلال حاجة الصغير إلى الكبير ، فإذا انتهت هذه الحاجة انقطعت الصلة أو كادت ، وأصبح للحيوان الجديد أو للطائر الجديد استقلاله التام ، أما في الإنسان فالعلائق

(١) سورة الطارق الآيات ٥ - ٧ .

(٢) سورة الإنسان الآية الثانية .

الأسرية لا تنتهي مهما مر عليها الزمن ، ويكون الوليد فرعاً جديداً في شجرة الأسرة التي تمثل دوحة كبيرة أو قبيلة متصلة النسب ، لا متناثرة ولا متفرقة ، قال تعالى « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » (١) .

بيد أن هناك أناساً يظهر في حياتهم فراغ ويعجزون عن ملئه بالوسائل الطبيعية فيلجئون إلى وسيلة غير عادية ليمثلوا فراغ النفس وفراغ الحياة ، فقد يوجد زوجان تربطهما علاقة طيبة من الحب والمودة ، ولكن لسبب أو لآخر لم يرزقا ولداً ، وقد يكون لهما بنت أو بنات وليس لهم أبناء ، وفي حالات كثيرة يتجه هذان إلى التبني وربما إلى التلقيح الصناعي ، والتبني أن يضم الزوجان إليهما طفلاً معروف النسب أو غير معروف النسب ، ويعلنانه ابناً لهما يحمل اسمهما ونسبهما ، وينال كل حقوق الابن الشرعي ، أما التلقيح الصناعي فيحدث إذا كان عدم الحمل ناتجاً عن قصور في الرجل ، وحينئذ تلتقى برحم المرأة نطفة رجل آخر يغلب ألا يكون معروفاً ، وقد يتم ذلك بمعرفة الزوج ، والغالب أن يتم بدون معرفته ، إذا كانت الزوجة حريصة أن تبقى معه وتلد إليه .

وفي التبني يدخل الأسرة إنسان غريب عنها ، وينال حقوقاً غير مشروعة ، فتصبح الزوجة أمّاً له وهي في الحقيقة ليست بأم ، ويصبح الزوج أباً له وهو في الحقيقة ليس بأب ، وكذلك تصبح للولد عمات وخالات . . وهو عنهن في الحقيقة غريب ، وفي ذلك انتهاك للحرمان التي جددتها الإسلام ، إنه سيدخل بيوت هؤلاء كمحرم لمن وهو ليس بمحرم ، وسيحل له من أهله الحقيقيين من هم في الحقيقة حرام عليه ، حتى أنه يمكن أن يتزوج أخته لأنه لا يعرف أنها أخته ، وهذا جانب كبير من الوباء "يحل" الحرام ويحرم الحلال ، ثم إن هذا الابن المتبني سيرث أبويه الصوريين ، وهو بذلك يمنع المستحقين من الميراث أو يقلل أنصبتهم ، وتزيد خطورة هذا الجانب لو كان هذا الابن المتبني قد اتخذ ليكون مكيدة لإقصاء

أصحاب الحقوق عن حقوقهم ولتبدل ما شرع الله، فهو بذلك يُدْخِل على الأبرة هيباً وناراً يطول اشتغالها .

وليت شعري هل يكون إحساس الابن المتبنى صادقاً تجاه والديه الصوريين ؟ أغلب الظن أن هذا لا يكون ، وسيصدق عليه قول الشاعر العربي القديم :

فمن أنبأك أن أباك ذيب ؟

وكان موقف القرآن الكريم من التبنى حافلاً بالحكمة وحسن الإرشاد والتوجيه ، إنه أهاب بالمسلمين أن يراعوا بدقة مدلول الكلمات ، وأن الكلمة التي تستعمل في غير مدلولها ، ليست إلا هراء لا يفيد ولا يجدي ، اقرأ معي قوله تعالى « وما جعل أديعاءكم أبناءكم ، ذاكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، ادموهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » (١) . وهكذا نجد في هذه الصرخة الحكيمة صوراً من التعليم ، فهي تبين أن الدّعى لا يكون ابناً ، وإن إطلاق البنية عليه كلمة تصدر من الأفواه دون أن يكون لها أثر في الأعماق ، أو في انسياب صفات الأب إليه ، ودون أن تخلق حناناً حقيقياً في صدر الرجل ، أو نجماً حقيقياً في نفس الغلام .

وتواصل الصرخة قوتها عندما تأمر بحزم أن ينسب هؤلاء إلى آبائهم الحقيقيين فذلك أقسط عند الله ، فإن لم يعرف آبائهم فليعدوا إخواناً في الدين ، والأخوة في الدين صلة قوية عندما لا توجد صلة النسب قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » (٢) .

ولم يكتف القرآن الكريم بذلك الإرشاد بل راح يتبع هذه القضية حتى لا يُسَبَّح لها أبراً، وحتى ينتزعها من جلورها بعد أن كانت شائعة في عرب

(١) سورة الأحزاب الآيتان الرابعة والخامسة .

(٢) سورة الحجرات الآية التاسعة .

الجاهلية ، فلم يجعل لهذا النوع من الأبناء أي نصيب من الإرث ، وحديث المواريث في أشخاص معينين ليس فيهم هذا الابن المتبنى ، قال تعالى « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » (١) ، وأحل للرجل زوجة ابنه بالتبني بأن قررت الآية الكريمة « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » (٢) أن المحرمات فقط هن زوجات أولاد الأصلاب أو الأولاد الحقيقيين ، أما زوجة الابن المتبنى فليست حراماً لأن ذلك ليس ابناً ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد إزالة آثار التبني فقضى أن يتزوج رسولنا صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش التي كانت زوجة لزيد بن حارثة وكان الرسول قد تبناه قبل الإسلام ، فكان يطلق عليه زيد بن محمد ، قال تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين جرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً » (٣) وتم بذلك إبطال التبني بالتشريع العملي ، يقوم به الرسول نفسه بأمر ربه تثبيتاً للتشريع النظري وتحقيقاً له ، وفي هذه الآية لمحة مهمة فهي تستعمل كلمة « الأدعياء » لتدل على أن الابن المتبنى ليس إلا « دعياً » وليس حقيقياً بحال من الأحوال .

التلقيح الصناعي :

.. أما التلقيح الصناعي فجريمة أفظع ، إنه يشمل التبني وأكثر منه ، ففيه إدخال عنصر غريب على الأسرة ، وفيه بجوار ذلك إدخال نطفة أو بذور في حرث لا يملكه صاحب النطفة ، وفي ذلك تغرير يفوق التبني لأن الطفل سيولد في فراش الأب ، وسيكون انتسابه له أعمق كإنتساب الابن الحقيقي ، وهو في الواقع ليس ابناً حقيقياً له ، وقد اعتبره الشيخ شلتوت « جريمة منكرة وإثماً عظيماً يلتقي مع الزنا في إطار واحد : جوهراً واحداً ونتيجتهما واحدة ، وهنئ وضع ماء رجل أجنبي في حرث ليس بينه وبين

(١) سورة الأحزاب الآية السادسة

(٢) سورة النساء الآية ٢٢ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٧ .

ذلك الرجل عقد ارتباط بزوجة شرعية ، ولولا قصور في صورة الجريمة ،
لكان حكم التلقيح في تلك الحالة هو حكم الزنا « (١) » .

وترتبط الجريمة في التلقيح الصناعي بأركانها ، أى بأولئك الذين أسهموا
فيها ، والمرأة ركنها الأول فالذنب الأكبر عليها إن قبلت هذا الوضع ،
ويشاركها زوجها إن وافق عليه ، ويقاسمها الجريمة كل من أسهم في هذا
الأمسر الشائن .

الحل كما يراه المفكرون المسلمون :

وبعد أن أوضحنا حكم الله في التبني والتلقيح الصناعي نحب أن نعود
للزوجين اللذين في حياتهما فراغ وعندهما مزيد من المال وفضل من الجهد
والوقت ، لنصِفَ لهما الطريق الصواب لملء هذا الفراغ في الأسرة مع
الحصول على مرضاة الله وثوابه ، وطبعي أن الظروف تتدخل في تحديد
الطريق الأمثل ، فإذا كان للزوجين بنت أو بنات وليس عندهما بنون
فالطريق الصواب أن يحققا رغبتهما من طريق حلال ، بمعنى أن يعنى الزوجان
بولد ثم يزوجانه بنتهما أو إحدى بناتهما ، أو أن يحسنا اختيار الزوج لهذه البنت ،
ويمكن أن يملأ هذا الزوج فراغ الابن ، وقد سبق لنا أن ذكرنا حديث الرسول
الذى جعل المصاهرة وسيلة للقربى إذا لم يوجد النسب بين جماعتين ، وهو
قوله صلى الله عليه وسلم « لم يُرَ للمتحابين مثل الزواج » .

ويمكن للزوجين اللذين عندهما فائض من الجهد والمال أن يرعيا عدداً
من أولاد المسلمين بقدر طاقتهم ، وتشمل الرعاية الشفقة والإنفاق ، وفي
أعقاب الحرب بين العرب وإسرائيل سنة ١٩٦٧ أعلن ثرى لبي استعداد
« ليتبنى » مائة وخمسين طفلاً من الأطفال العرب الذين فقدوا ذويهم ،
وموقف هذا الثرى مشرف بلا شك وثوابه على الله ، وكل ما في المسألة
أن تستبعد كلمة « التبني » وأن يستعمل بدلها كلمة مثل « الكفالة » وأغلب

الظن أن هذا الثرى لم يُرد سوى ذلك ، فليس من الطبيعي أن يأخذ لنفسه مائة وخمسين ابناً ، ويؤكد ذلك الفهم أنه لم يطلب تصدير هؤلاء الأولاد إليه ، وإنما اكتفى باستعداده للانفاق عليهم وتعليمهم حتى يبلغوا الرشد وينتهوا من المراحل الدراسية .

ومن الوسائل المشروعة أيضاً أن يربي الزوجان محرماً للزوجة كما بن أختها مثلاً أو ابن أخيها ، ليكون دخوله على خالته أو عمته مسموحاً به ، ويمكن أن يربي الزوج من آله من يشاء في حدود الفكر الإسلامى للاختلاط .

بل يسمح الإسلام بدرجة أخرى من القربى ، فإذا اصطفى الإنسان طفلاً ورعاية ، وتقديم الطفل في سنه حتى أصبح شاباً وأخلص الود لصاحب النعمة عليه وقدم له ألواناً من المساعدة والعون ، وأحسن المربي باخلاص الشاب إليه وتفانيه في خدمته ، فإن له أن يكافئه على ذلك بأن يوصى له في حدود ثلث ماله ، ويبقى الثلثان للورثة الشرعيين .

وهكذا بحث الإسلام أصحاب الجهد والمال على أن يسهموا بجهدهم ومالهم في خدمة الآخرين ، ويرسم لهم الطرق الصحيحة لذلك ، ولعل من أشرفها رعاية اليتيم ، والعناية باللقيط الذى لا يُعترف ذوهه على أن يكون ذلك في الحدود التى أشرنا إليها ، وقد أثر عنه قواه عليه السلام : أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار للسبابة والوسطى ، واللقيط في معنى اليتيم لأنه فقد الأب والأم .

تحذير :

وكلمة أخيرة نحارب بها الزيف الذى يسمونه « التبني » ففي حالات كثيرة معروفة أحب الولد المتبنى - عندما شب - المرأة التى تبنته إذ كانت بها بقية من شباب ، وأحبت البنت المتبناة - عندما شبّت - الرجل الذى تبناها ، وكره الولد المتبنى أباه الذى تبناه وتمنى موته ليرثه .

وتقص علينا سورة يوسف أن امرأة العزيز بمصر وافقت زوجها على تبني يوسف وهو طفل ، ولكنها أحبتّه عندما وصل إلى مرحلة الشباب . فلنعد لشرع الله ، فهو السبيل لخير الدنيا والآخرة .

التكافل بين أفراد الأسرة

الأسرة في التفكير الإسلامي وحدة واحدة شديدة التماسك قوية الأواصر ، فينبغي أن يكون هناك تعاون تام بين أفرادها ، ويلزم أن يعرف كل منهم حقوقه وواجباته ، بل إن التفكير الإسلامي يذهب إلى مدى أعظم من الحقوق والواجبات ، فهو يبحث على الحب وعلى الإيثار بين أفراد الأسرة وهذا هو القرآن الكريم يوضح درجات الأسرة في الحب والقربى ، قال تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم . . أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله . . . (١) » فهذا يبين أن حب الله ورسوله والجهاد في سبيله يسبق كل حب ثم يحىء بعده حب أفراد الأسرة على النمط الذى أوردته الآية .

هذه ملاحظة ، وملاحظة أخرى ، هى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن أورد في سورة البقرة كثير آ من الأحكام التى تحسم المشكلات داخل الأسرة ، يختمها بقوله « ولا تنسوا الفضل بينكم » (٢) مما يمكن أن يفهم منه أن القوانين والحقوق والواجبات تستعمل عند شح النفس أما الذى ينبغى أن يوجد بين أعضاء الأسرة ، بل بين أعضاء المجتمع الإسلامى كله فهو الحب والتسامح والإيثار .

وعلى هذا فإننا عندما نتكلم عن التكافل بين أفراد الأسرة ، أو عن حقوق كل فرد تجاه الآخرين ، فإننا نتكلم عن الحد الأدنى لهذه العلاقات ، وفيما يلى بيان ذلك :

(١) سورة التوبة الآية ٢٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٧ .

حقوق كل من الزوج والزوجة تجاه الآخر :

يرسم القرآن الكريم هدف الزواج في صورة واضحة رائعة ، قال تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (١) ولا شك أن الزواج الذي يحقق السكن والطمأنينة ، وتحقيق المودة والرحمة هو الزواج الذي يرسمه الإسلام للمسلمين ، بل يقدمه الفكر الإسلامي طريق سعادة للجنس البشري ، ومن الواضح أنه في ظل السكن والطمأنينة بين الزوجين ، وفي ظل المودة والرحمة اللتين ينبغي أن تغموا حياتهما ، ستهون كل الصعاب وتذوب كل المشكلات ، وتبدو الحياة فينازة بهيعة .

وللوصول إلى هذه الغاية يرسم القرآن الكريم والحديث الشريف الطريق للأزواج والزوجات ، بحيث أن من سار في هذا الطريق يصل إلى تلك الغاية ، وفيما يلي المعالم الرئيسية التي رسمها الإسلام لأتباعه ، ليصلوا عن طريقها لأسعد غاية ، قال تعالى :

- ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف (٢) .
- لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلّف الله نفساً إلاّ ما آتاها ، سيجعل الله من بعد عسر يسراً . (٣) .
- أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيّقوا عليهن (٤)
- الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله (٥) .

(١) سورة الروم الآية ٢١ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

(٣) سورة الطلاق الآية السادسة .

(٤) سورة الطلاق الآية السابعة .

(٥) سورة النساء الآية ٣٣ .

— وعاشروهن بالمعروف فإن كنهن من فحس أن تكررهن شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم :

— كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها .

— استوصوا بالنساء خيراً .

— خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى .

— أيما امرأة ماتت وزوجها راضٍ عنها دخلت الجنة .

— لو كنت امرأة أخذت أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .

وهكذا نجد في هذه الآيات المحكمات والأحاديث الشريفة خير نبراس يهتدى لحياة السكينة والطمأنينة ، وعيش المودة والرحمة ، ففي الآية الأولى التي أوردناها تكافؤ بين الزوج والزوجة « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » ثم هناك إلزام الزوج بأن ينفق على زوجته بقدر طاقته ، وعليها كذلك ألا تكلفه ما لا يطيق ، وأياً ما تكون مكانة الزوجة قبل الزواج ، فإن مكانتها بعد الزواج ترتبط بمستوى زوجها « أمكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم » ومع أن الحياة ينبغي أن تسير في ظل التعاون والحب ، لا رئيس ولا مزموس فإن الرجل يحكم التزاماته ومسئوليته له القوامه عندما تختلف الآراء ، وعلى المرأة أن تحفظ سر زوجها فلا تطلع عليه أخداً ، ثم هناك أحاديث الرسول وفيها تحديد المسئولية التي يلتزم بها كل من الزوج والزوجة ، ثم فيها وصايا طيبة بالنساء ، ومن ناحية أخرى يربط الرسول صلى الله عليه وسلم مصير الزوجة في الآخرة برضا زوجها بل يقرر أنه لو كان هناك سجود لغير الله لكان سجود المرأة لزوجها

نموذج من بيت النبوة :

ولعل من الخير أن نسوق هنا نموذجاً يرتبط ببيت النبوة ؛ فقد كان الرسول يلاطف أهله ويعاونهم ، ويتولى أحياناً بعض الأعمال المنزلية ، فكان يخيظ ثوبه ، ويحلب شاته ، ويعلف بعيره ، ويخدم نفسه ، وجاءته فاطمة ابنته وزوجها على يشتكيان ما يلقيان من عناء العمل ، فجعل بينهما قسمة ؛ فاطمة لعمل البيت ، وعلى للعمل بالخارج لتحصيل الرزق ، وتروى لنا كتب التاريخ قصة حافلة بالمعاني الطيبة وبالسياسة الرشيدة وبالمدالة المطلقة ، فقد روى أن فاطمة رضي الله عنها كانت تتحمل من شئون المنزل ما يرهقها ؛ طحنت الحب بالرحا حتى أثر ذلك في يدها ، وحملت القربة في عنقها حتى أثرت في نحرها ، وكذست البيت حتى اغبرت ثيابها ، وكانت مع هذا لا تشكو ولا تنألم ولا تتبرم بحياتها المنزلية ، ولكن زوجها علياً رأى من تعبها ما همه ، وحدث أن جىء للنبي صلى الله عليه وسلم بخدم فقال لها علي : أو أتيت أباك فسألته خادماً ؟ فأتته ولكنها لم تكلمه في شأن الخادم إذ وجدته في شغل عنها ، ولكن الرسول أحس أنها تريد شيئاً ، فأتاها من الغد وقال لها : هل كانت لك حاجة لم تستطيعي أمس ذكرها لي ؟ فسكت ، فقال علي : أنا أحدثك عنها يا رسول الله ، وقص عليه ألمها من الطحن وحمل القربة وأعمال المنزل ، وأنها تحتاج خادماً يقيها صعوبة ما هي فيه ، فالتفت الرسول إلى فاطمة وقال لها : يا فاطمة اتقي الله وأدى فريضة ربك واعمل عمل أهلك .

وهكذا تقتضي الحياة الزوجية اندماجاً في العون واندماجاً في التعاون دون حدود ، فالعلاقات التي بين الزوجين تفوق كل العلاقات ، ولقد صورتها الآية الكريمة أجمل تصوير حين قالت « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » (١) فماذا بعد ذلك يمكن أن يضمن به زوج على زوجته أو زوجة على زوجها ، إن الزوج يجب أن يصبح لزوجته كل شيء ، فقد اختلعهما من أهلها وربما سار بها بعيدة عن الأهلين ، وهو كذلك خلا لها من بين الناس ، صب في

حياتها كل ماضيه ومستقبله ، ووضع في جيبيها نتائج كدحه ، وكل هذا يحتم أن يعمل كل منهما لإسعاد الآخر ، وأن يؤثره على نفسه في كثير من الأحوال ، وأن يجعل المودة والرحمة دستور حياتهما ليصير بيت الزوجية حافلاً باليمن والبركة ولتظله عناية الله ورضاه .

التسامح :

ومن الواضح أن هناك زلات لا بد أن تحدث من أي من الزوجين ، فكل منهما بشر يخطئ ويصيب ، ولكن الواجب على المخطئ ألا يتمادى في خطئه وأن يعتذر عنه ، ويمحو آثاره ، والواجب على الآخر أن يستجيب للاعتذار وأن يغفر الزلة ، وأن يتذكر آذاك محاسن الطرف الآخر وأفضاله حتى لا تسيطر السيئة عليه ، وتعظم نتائجها ، وليس هناك مانع أن يجرى عتاب خفيف بشرط أن يتجه نحو الإصلاح والصلح لا نحو تجسيم الذنب والثورة من أجله ، وينبغي أن يجرى ذلك العتاب في خلوة عن الناس ، ومن الأولاد ، ولا يحسن عن الخلاف للأهلين إلا إذا عجز الطرفان عن تسويته (١).

بقى شيء مهم تهتمس به في أذن الرجل ؛ ذلك هو أن المرأة بها نوع من الانحراف ينبغي أن يصبر عليه الرجل ، قال صلى الله عليه وسلم : إن المرأة كالضلع إن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها استمتعت بها على عوج ، ويعلق الشوكاني على هذا الحديث بقوله : إن فيه الإرشاد إلى ملاطفة النساء ، والصبر على ما لا يستقيم من أخلاقهن ، والتنبيه على أنهن خلقن على تلك الصفة التي لا يفيد معها التأديب كل الفائدة ، ولا ينجح عندها النصح تماماً ، فلم يبق إلا الصبر والمحاسنة وترك التأنيب والمخاشنة (٢) . على أن المرأة ينبغي أن تقلل من انحرافها حتى لا يفلت الزمام وتصطلي الأسرة بنار الخلاف أو تصل إلى الفرقة البغيضة .

(١) استكمالا لهذا الحديث ينبغي أن يعود القارئ إلى كتاب « الإسلام » للمؤلف ص ٢٣٣ وما بعدها من الطبعة الثامنة .

(٢) نيل الأوطار ج ٦ ص ٢٠٦ .

التكافل بين الوالدين والأبناء :

قضت الطبيعة أن الصلة بين الآباء والأبناء غير متكافئة ، فالآباء يتجهون — عند سلامة الفطرة — إلى العناية الكاملة بأولادهم . بل إلى الافتتان بهم أحياناً ، فإذا نما الأبناء اتجهوا بدورهم غالباً إلى أبائهم هم ، لا إلى آبائهم ، لأنهم يتجهون لتنشئة الجيل التالي لا لمكافحة الجيل الفائت ، وتلك هي سنة الطبيعة ، وهي كبيرة الاتصال بعمران الكون .

على أننا نرى أن هناك تكافؤاً وعدالة ولكن بطريق غير مباشر . فإذا اقتضت الدورة الطبيعية أن يكون هناك أخذ وعطاء ، فكل جيل يأخذ ويعطي ولكنه — فقط — يأخذ من جانب ويعطي لجانب آخر ، فهناك سداد للدين على كل حال ولكن بطريق غير مباشر كما قلنا . وتلك سياسة عليا في دورة الحياة ، فالرجل الذي يتلقى مساعدة من جانب ينبغي أن يرد هذه المساعدة ، لا إلى من ساعده فحسب ، ولكن إلى أى محتاج آخر ، وبخاصة أنه في كثير من الأحوال لا يستطيع أن يكافئ من ساعده ، ولكنه على كل حال يظل مديناً حتى يساعد إنساناً آخر يجده طالب عون ، كما كان هو في يوم من الأيام يقف طالب عون .

ذلك هو اتجاه الفطرة ، بيد أن الإسلام حرص على تهذيب الفطرة بالنسبة للأولاد مع آبائهم ، فجاء القرآن الكريم في آيات مجملة ومنفصلة تبرز حقوق الآباء ، ويلزم الأبناء تجاههم بمسئوليات دقيقة لا يمكن تجاوزها ، وكذلك جاءت أحاديث الرسول ترسم جهود الآباء وتوضح حقوقهم تجاه الأبناء ، ولنورد فيما يلي هذه المعالم الكبرى ، قال تعالى :

— وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، وانخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً (١) .

— قل تعالى أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً (١) .

— ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وضاحيهما في الدنيا معروفاً (٢) .

— ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ، حملته أمه كرها ووضعته كرها (٣) .

— يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلولو الدين والأقربين (٤) .

— ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما (٥) .

ونظرة سريعة في هذه الآيات المحكمات نجدها أولاً تربط الإحسان للوالدين بتوحيد الله ، مما يوحي بأن الإحسان للوالدين يلي التوحيد مباشرة ، وتلك غاية عظمى ، ونجدها ثانياً تحث المسلم على الإحسان للوالدين حتي إن كانا كافرين ، أو محاولاً إعادة الابن إلى الشرك بالله ، ونجدها ثالثاً تسجل للأم ما احتملته من عناء في الحمل والولادة ، ونجدها رابعاً تحذر من أقل درجات العصيان ممثلاً في التأفف والاستنكار .

ونجىء بعد ذلك للحديث الشريف لنروى بعضاً مما ذكره الرسول موصياً بالوالدين . قال صلى الله عليه وسلم :

— الوالدان أوسط أبواب الجنة فحافظ على والديك .

(١) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

(٢) سورة لقمان الآيتان ١٤ و ١٥ .

(٣) سورة الأحقاف الآية ١٥ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢١٥ .

(٥) سورة العنكبوت الآية الثامنة .

— جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله نبتى من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ فقال : أملك . قال ثم من ؟ قال أملك . قال ثم من ؟ قال أملك . قال ثم من ؟ قال : ثم أبوك .

— الجنة تحت أقدام الأمهات .

— رضا الله في رضا الوالدين وسخط الله في سخط الوالدين .

وهكذا يسير الرسول صلى الله عليه وسلم في المجال الذي سار فيه القرآن الكريم فيوصي أعمق الوصاية بالوالدين ، ويخص الأم بمزيد من الرعاية ، ويحذر من إغضابهما ، فإن فعل الإنسان جلب على نفسه غضب الله وسخطه .

وفي ظل هذه التعاليم يلتزم الأولاد بكل حاجات الآباء عندما يحتاج الآباء ، ويلتزم الأولاد بأكثر من قضاء الحاجة ، إنهم يلتزمون بالحنان والعطف ، والكلمة الطيبة ، والخدمة الصادقة .

بل إن هناك من أحاديث الرسول أحاديث لا تقنع بالحث على بر الوالدين في أثناء حياتهما ، وإنما توصي بأن يمتد البر بهما إلى ما بعد موتهما ، وترسم خبطه ، روى عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ جاء رجل من بني سلمى ، فقال : يا رسول الله ، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم . الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما .

ولم تقف الأحاديث عند الحث والإرشاد ، ولكنها نطقت ذلك فحذرت وأندرت من عقِّ والديه ، فقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم مجموعة من الأحاديث الرادعة الصارمة نورد منها ما يلي :

— الكبائر أربعة : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس (أى الكاذبة) .

— ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف .

وهكذا نجد عقوق الوالدين أحد الكبائر التي تضطرب منها النفس وتهتز ، فقد أُجمِعَ في إطار واحد مع الشرك بالله ، ومع الفرار من حومة الجهاد المقدس ، وتلك لعمري أخط ما يُبلى به الإنسان .

على أن هناك حديثاً يخاطب الدين شغلهم الدنيا عن بر الوالدين ، يخاطبهم باللغة التي يعرفونها ، بالوعيد أن تزول عنهم هذه الدنيا ، وأن يجحدوا فيها جزاءهم على هذا الإثم قبل أن يلاقوا جزاءهم في الآخرة ، قال صلى الله عليه وسلم : كل الذنوب يؤخر الله منها ما يشاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجل الجزاء لصاحبه في الحياة قبل الممات .

ولنعد الآن إلى الجانب الثاني من البحث وهو حق الأولاد تجاه الآباء ، وفي هذا المجال لا نجد تفاصيل واسعة في القرآن الكريم والحديث الشريف ، لأن هذه المصادر تركته للطبيعة كما قلنا من قبل ، فالطبيعة تدفع الإنسان بل حتى تدفع الحيوان والطير للحفاظ على الابن بما لا يحتاج معه إلى مزيد من الوصية والتعليم ، بل إن الإنسان قد يبالغ في حب أولاده حتى يفتن بهم أو يركب الشطط من أجلهم ، والقرآن الكريم يحذر من هذا الانحراف حتى لا يسير الإنسان وراء غريزته دون هُدًى أو بصيرة ، استمع إلى قوله تعالى :

— المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً (١) .

— سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا (٢) .

— اعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد (٣) .

(١) سورة الكهف الآية ٤٦ .

(٢) سورة الفتح الآية ١١ .

(٣) سورة الحديد الآية ٢٠ .

وهكذا ترك للغريزة شأن رعاية الأولاد ، فإذا وجد من الناس من انحرفوا عن الطبيعة وشغلوا بأنفسهم أو بملاذمهم عن أولادهم ، فإن الفكر الإسلامى يتدخل ليعيد هؤلاء راغمين أو طائعين إلى الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها ، أو على الأقل إلى مستلزماتها إن كانت الفطرة قد ماتت عندهم ، وقد سبق لنا عند الحديث عن الأولاد أن أوجزنا حقوق الأولاد تجاه آبائهم ، تلك الحقوق التى تبدأ منذ اختيار الأم وتظل حتى يبلغ الأولاد الرشد ، ويستطيعوا الاستقلال فى مواجهة مشكلات الحياة .

ذوو القربى والتكافل :

فى مطلع الكلام عن ذوى القربى ووجوب التكافل بينهم نخص الإخوة بحديث ، فهم قمة ذوى القربى وأهمهم ، والإنسان يطالع فى المجتمع ما يمكن أن يعد مأساة مريرة فى علاقات الإخوة بعضهم ببعض ، فالإخوة الذين نشئوا فى بيت واحد ، وأكلوا من طعام واحد ، وتبادلوا أحياناً الفراش واللباس ، تراهم عقب موت الأب ينزلون معمة من الصراع تدور بهم ولا تقف ، وأعراض الدنيا فى الغالب هى سبب النزاع ، حتى ارتبطت الخلافات بين الإخوة فى الغالب بالميراث والثراء ، وهذا آفة الثراء ، ويصل هذا النزاع إلى درجة تجعل الحب بين الإخوة نادراً وتجعل من يحنو على أخيه أو أخته مضرب المثل فى الحنان والسماحة ، يا لله ! ! كيف جاز أن تسطو أعراض الدنيا على أقرب الناس إلى الإنسان فتبعده عنه ؟ وتضعف أو تقطع وشائج القربى القوية ؟

ودراسة القرآن الكريم ترينا أن رابطة الأخوة أسمى درجات الارتباط ، فكل وصف لعلاقة طيبة يوسم بالأخوة ، وكل متحابين يوصفون بالإخوة ، اقرأ معنى قوله تعالى :

... واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً (١) .

— ونزحنا ما في قلوبهم من غل إخواننا على سرر متقابلين (١) .

— إنما المؤمنون إخوة (٢) .

وهذه الآيات البينات واضحة الدلالة على أن الإخوة يجب أن يكونوا هكذا ؛ تُشَدُّ الألفة نفوسهم ؛ وتخلو قلوبهم من الغل ، وتجمع بينهم أسمى الروابط .

وفي القرآن الكريم آيات أخرى ترينا أن إهمال الأخ أو العدوان عليه إثم مدموم وامتهان مستقبح ، وأن قطيعته ينبغي ألا تكون إلا يوم الحساب يوم يُشَدُّ كلُّ بعمله وينشغل عن سواه ، اقرأ قوله تعالى :

— أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه (٣) .

— يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ

منهم يؤمئذ شأن يغنيه (٤) .

وحق الأخ على أخيه شامل للجانب المادى والجانب الأدبى ، حق يوجب العون المالى عند الحاجة إلى المال ، والنصح الرشيد عند الحاجة إلى النصيح ، والنصرة عندما يتعرض للموان ، ولعل كل هذه المعاني موجودة في الحديث الشريف أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قيل يا رسول الله ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال تمنعه من الظلم . وهناك حديث آخر يسمو بالعلاقة بين الأخوين إلى درجة الحب ، ولا يقف بها عند العون المادى والأدبى قال صلى الله عليه وسلم : لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . ويرى بعض الباحثين أن المقصود في الحديث الأخ في الإسلام لا في النسب فقط ؛ وعلى فرض هذا فالأخ في الدم والدين أولى وأهم . ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم : مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى .

(١) سورة الحجر الآية ٤٧ .

(٢) سورة الحجرات الآية العاشرة .

(٣) سورة الحجرات الآية ١٢ .

(٤) سورة عبس الآيات ٣٤ - ٣٧ .

وإذا صح أن كثيرين من الإخوة يعادون إخوتهم ليظفروا بأكبر نصيب من المال لأولادهم ، فإننا نهمس في أذن هؤلاء بأن أولادهم إخوة لبعضهم البعض ، وأنهم سيرثون آباءهم في هذه الاتجاهات ، وسيقف كل منهم يوماً ضد أخيه ، كما وقف أبوهم يوماً يصارع أخاه ، فلنضرب المثل الصالح لأولادنا ليظلوا جديرين بحمل هذا اللقب الذي منحته لهم الطبيعة وهو لقب الإخوة ، وسيرثون أن حسن العلاقة بين الأخ وأخيه يفضل كل شيء ويرجح كل ثراء .

وبعد أن خصصنا الإخوة بهذا الحديث ، نعود للحديث عن ذوى القربى على العموم ، ولنجعل آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول نبأاً يهتدى به في هذا المجال ، قال تعالى :

— ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين . . . (١) .

— وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون (٢) .

— يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : ما أنفقتم من خير فلبوا بالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل (٣) .

وفي الحديث القدسي : يقول الله تعالى : أنا الرحمن وهذه الرحم شققته لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته . . .

وقال صلى الله عليه وسلم :

— الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان : صدقة وصلة .

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٢) سورة الروم الآية ٣٨ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٥ .

— من أحب أن يُبسط له في رزقه وينسأ له في عمره فليصل رحمه .
 — إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون
 فجاراً فتتمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم .
 — يد المعطي هي اليد العليا ، وأبدأ بمن تعول ؛ أملك وأبيك وأختك
 وأخيك ثم أدناك فأدناك .

— أفضل الصدقة ، الصدقة على ذي الرحم الكاشح .
 — عن أبي ذر قال : أوصاني تحليلي عليه السلام بصلة الرحم وإن أدبرت .
 وهكذا ربطت الآيات الكريمة بين أسمى العقائد (الإيمان بالله واليوم
 الآخر . . .) وبين إعطاء ذوى القربى من أجود ما يملك الإنسان ، وجعلت
 ما يحتاجه ذوو القربى حقاً يلتزم بأدائه ، وجعلتهم يتشربون الوالدین في
 استحقاق العون والمساعدة .

أما الأحاديث الشريفة فقد منحت لنا ألواناً من التعاليم السامية ، إذ قررت
 أن الصدقة على ذي الرحم مزدوجة الفائدة ومزدوجة الثواب ، وعلمت
 الطامعين في مزيد من الرزق وفي طول العمر أن يتخذوا صلة الرحم طريقاً
 لهذه الغاية ، كما وعدت هؤلاء بسرعة الجزاء ، وفي الحديثين الأخيرين سماحة
 عالية وتغلب على النفس الأمارة بالسوء ، فقربيك الذي يتعد عليك ، ويشيح
 بوجهه عن رؤياك ، ينبغي أن تسعى له وأن تساعد . وتعيده من البعد إلى
 القرب ، فإنك إن فعلت كان ذلك أفضل الصدقة .

ومن أجل الحفاظ على القرب من ذوى القربى اتجهت الشريعة السمحة
 إلى إباحة الزواج من الأقارب إذا تراخت القرابة لتعيد هؤلاء الأبعدين إلى
 دائرة القرب مرة أخرى ، فإذا كانت العممة محرمة فإن ابنتها غير محرمة وكذلك
 بنت العم وبنت الخال والخال ، وبهذا لو حصل فتور في العلاقة المتسببة
 عن النسب تُعاد هذه العلاقة إلى القوة عن طريق المصاهرة .

تأخير الإحسان :

(نبيتي ، عن الإحسان بالمال كلمة أخيرة ، فإن بعض الناس لا يلزم نفسه

بالمساعدة إلا بعد قضاء كل حاجاته وربما بعد ضمان بعض المدخرات ، وقد اتجه الفكر الإسلامى لتعليم المسلمين أن الإحسان يبلغ ذروة الكمال عندما يخرج الإنسان المال الذى يعز عليه لنفسه ، أو لحاجته إليه ، أو للجهد فى الحصول عليه ، وليس مثله فى القدر أن يتصدق الإنسان عن سعة ، ومن مال ورثه أو جاءه بدون جهد . قال تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (١) وأشد الحب للمال أن يكون الإنسان محتاجاً إليه ، وروى أن رجلاً قال لعثمان ابن أبى العاص : يا أبا عبد الله ، بنتمونا بونا بعيداً (أى سبقتمونا فى الفضل) قال عثمان : وما ذاك ؟ قال الرجل : تكثرون الصدقة والعطاء . قال عثمان : والذى نفسى بيده لدرهم ينفقه أحداكم ، يخرج منه من جهده ، يضعه فى حقه ، أفضل من عشرة آلاف ينفقها أحداً غيضاً من فيض . (أى عن سعة وغنى) (٢) . وأغلب الظن أن الذى يؤجل البر إلى أن يحقق كل مطالبه إن يصل إلى البر ، لأن مطالبه لن تنتهى ، وأطماع الدنيا ستفتح له باباً إثر باب

الخدم فى الأسرة :

على الرغم من بعض الصيحات التى تستنكر استعمال كلمة خادم فإننى لا أجده ما يدعو إلى استنكارها باعتبار كل إنسان يؤدى لمجتمعه خدمة ما ، وباعتبار كل إنسان يخدم نفسه وهو يؤدى للآخرين بعض الأعمال ، وفى أثناء خضوع البلدان العربية لتركيا أنف رؤساء الأقاليم من استعمال كلمة « عامل » واستعملوا بدلها كلمة « وال » وهكذا ، ويبدو لى أن من الخير أن نعى بحقوق الخادم وواجباته بدلاً من أن نغنى بتغيير اللفظ ، فالخادم نفسه لا يستفيد شيئاً من تغيير اللفظ ولكن يحتمل أن يستفيد كثيراً من إبراز حقوقه وواجباته . وينسب إلى الخليفة العظيم عمر بن الخطاب أنه سعى نفسه عبداً للمسلمين ولم يكتف بأن يكون خادماً لهم ، فيروى أن أحد الصحابة رآه وهو يخدم لبل بيت المال ، فقال الصحابى له : يا أمير المؤمنين ، إن عبداً من العبيد يكفيك هذا العمل . قال عمر : رحمتك الله يا ابن أم هذا ، وأى عبد أعبد للمسلمين منى ؟ .

(١) سورة آل عمران الآية ٩٢ .

(٢) أبو عبيد : الأموال ص ٣٩٣ .

والخدم في الأسرة يكونون عنصراً مهماً للغاية سواء منهم من اشتغل بالطبخ أو الغسيل أو إعداد البيت ، وترجع أهمية أعمالهم إلى ضرورتها للأسرة من جانب ، وإلى ما توفره لأعضاء الأسرة من وقت وراحة ليكدهوا في مجالات مختلفة من جانب آخر ، ولا يعرف قيمة الخادم إلا أولئك الذين اضطروا لخدمة أنفسهم ، فأضاعوا في الكنس والطبخ والغسيل . . أوقاتاً طويلة كان يمكن أن تدفع عملهم إلى الأمام خطوات ونخطوات ، وقد كنا في إنجلترا ونحن في شوط الدراسات العليا ، وكان الوقت ثميناً للغاية ، ولكل ذققة عمل ، ولكن صراخ الجسم كان يستلزم أحياناً أن نوقف العمل العلمي لتنظيف الحجرة ونطبخ ونغسل الأطباق . . . فإذا حظينا بمنزل نخدم فيه عندنا أنفسنا سعداء كل السعادة . وعلى هذا النمط يكون قياس جهد الخادم ويكون تقديره .

وقد عقدنا هذا الحديث عن الخدم هنا ونحن نتكلم عن التكافل بين أعضاء الأسرة لأن الخادم في الحقيقة عضو في الأسرة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم فرض للخادم أن يأكل من طعام الأسرة بل أن يلبس من لباسهم ، فهو بذلك واحد منهم ، وينبغي أن نلاحظ أن أكثر الخدم الذين تحدث عنهم الرسل كانوا أرقاء ، وهذا يرينا أن الخدم الأحرار وهم خدم اليوم يستحقون معاملة أمثل وحقوقاً أوسع .

وليس هناك على كل حال حقوق بدون واجبات ، فمن واجب الخادم أن يمثل وينفذ بكل دقة قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

— المملوك الذي يحسن عبادة ربه ويؤدي إلى سيده الذي عليه من الحق والنصيحة والطاعة له أجران .

— إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه .

— . . والخادم راع في بيت سيده وهو مسئول عن رعيته . . .

وهكذا في هذه الكلمات القلائل دستور حكيم وضعه الرسول العظيم ، فالخادم ينبغي أن يخلص لمخدومة ، وأن يتقن عمله ، وأن يراعى الله فيه ،

وأن يدرك أنه مسئول أمام الله عن كل ما وكل إليه ، ويبدو أن تعاليم الإسلام هذه وجدت في كثير من الأحيان استجابة طيبة لدى كثير من الخدم والأرقاء ، فأخلصوا لذويهم الإخلاص كله ، حتى أصبح الواحد منهم صديقاً لمخلووه ، ومزامله في الدراسة ، بل أحله بعضهم محل الابن ، يقول سعد بن هاشم الخالدي في وصف غلام له :

ما هو عبد لكنه ولد خولني من المهن الصمد
شد أزرى بحسن خدمته فهو يدي والذراع والعصم

ويقول كشاجم في غلامه :

يا ناصحى إذ ليس لي ناصح ويا أمني إذ يخون الأمين

أما حقوق الخدم فقد أبرزها الإسلام في صورة واضحة ، روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يركب دابة وخلفه عبده يجرى فصاح به : يا عبد الله ، احمله خلفك ، إنما هو أخوك ، وروحه مثل روحك . .

وعن المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر رضى الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه مثلها ، فسأله عن ذلك ، فذكر أنه سائبٌ خادماً على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : « إناك امرؤ فيك جاهلية ، هم إخوانكم وإخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم » .

وعن أبي مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً لي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي ينادى : اعلم أبا مسعود . . فلم أظن لمعرفة صاحب الصوت ، فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا هو يقول : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ، فقال أبو مسعود : يا رسول الله هو حر لوجه الله . فقال عليه السلام : أما إنك لو لم تفعل للفتك النار .

وقبل أن نطوى الكلام عن الخدم نحب أن نبرز نقاطاً ثلاثة كبيرة الأهمية

فيما نرى :

١ - أعرف بعض الناس يطبخون لخدمتهم طعاماً خاصاً ، أو يقدمون لهم فضلات موائدهم ، وليس هذا وذالك من الإسلام في شيء ؛ وقد اتضح لنا من الحديث الشريف الذي سقناه آنفاً أن للخادم أن يأكل من طعام سيده ، وليت شعري كيف يهنا الزاد ويصير طيباً وهناك خادم أسهم في إعداده وراه بعينه ولكنه حرم منه ؟ فليتنق الله هؤلاء الناس .

٢ - تشيع في كثير من البيوت كلمات ينبغي أن تتوقف ، مثل كلمة « سَيِّ » وكلمة « سيدي » التي يستعملها الخدم ، وقد انقضى عهد السادة والعبيد . واستعمال هذه الكلمات يكون أكثر مرارة عند ما يوجهها الخدم للأطفال ، والذي نراه أن الأطفال والاولاد ينبغي أن ينادوا بأسمائهم المجردة ، أما رب البيت وربته فيمكن أن يناديا بكلمات مثل « البسيدة » و « السيد » وربما أمكن استعمال بعض الكلمات الشائعة « كالمدام » و « أبله » للسيدة أو كالدكتور والأستاذ والمهندس . . للرجل . .

٣ - في التجارب التي مرت بي رأيت خدماً أفنوا صباهم وشبابهم في خدمة بعض الناس فلما تقدمت بهم السن وتوَّى منهم العود ، ألقوا إلى المخمضة والضياح ، ولا يقبل الإسلام مثل هذا التصرف ، فلهؤلاء حقوق لا تنفك ؛ وحاجة لا بد أن تقضى بما بقيت أنفاسهم تتردد ، وقد قال عمر بن الخطاب في شيخ هرم يسأل الناس : والله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخلدله عند الهرم (١)

تلك صورة سريعة للتكافل بين أفراد الأسرة ، والأسرة التي تقتدى بتعاليم ديننا الحنيف التي أوجزناها في هذه الخلاصة ستكون حياتها هنيئة وآخرتها سعيدة .

أطفال الأنابيب

قبل أن نترك الحديث عن الأسرة هناك شخص يتساءل الناس عن مدى صحة انتسابه للأسرة ، ذلك هو طفل الأنابيب .

وموقف الإسلام من أطفال الأنابيب : تجريماً وتحليلاً يحتاج إلى التعرف الطبّي للعملية التي تُتبع لهذه الغاية . . .

ويقول الأطباء إن الأسباب الرئيسية للشجوء للأنابيب ترجع إلى أسباب أهمها :

١ - ضعف في الحيوانات المنوية للرجل ، فلا تستطيع هذه أن تصل إلى البويضة في مكانها الذي يسمى « قناة فالوب » الموصلة بين رحم المرأة والمبيضين .

٢ - زيادة الحمضية في مهبل المرأة مما يقضى على أكثر الحيوانات المنوية قبل وصولها للبويضة في القناة المذكورة .

وبهذا لا يتم الإخصاب أو باللغة العلمية لا تتكون النطفة (واسمها العلمي Zygote) وهي تتكوّن من التقاء الحيوانات المنوية بالبويضة .

ويتدخل الطب في هاتين الحالتين وأمثالهما فيحصل الأطباء على البويضة في فترة وجودها أي بعد ١٤ يوماً من انتهاء الدورة الشهرية ، ويضعون هذه البويضة في أنبوبة تحت ظروف خاصة تشبه ظروف قناة فالوب ، ثم يحضرون المادة المنوية، ويُجسّرون عملية تلقيح في الأنبوبة، وتتكوّن بذلك النطفة (Zygote) (البويضة المخصّبة) وعقب ذلك يزرعونها في رحم المرأة .

ذلك وصف دقيق تقريباً لعملية أطفال الأنابيب ، وفي ضوء فهم هذه العملية ، يمكننا أن نقول إن الإسلام ليس ضد هذه العملية ، ولا حرج فيها ، ولكن الإسلام يحتم الدقة التامة بحيث تتكوّن البويضة المخصّبة من الحيوانات المنوية الخاصة بالزوج والبويضة الخاصة بالزوجة ، ولذلك يتحتم أن يقوم بالعملية طبيب موثوق به تمام الثقة .

ويحذّر المسلمون من حدوث لقاء بين حيوانات منوية أرجل ليس زوجاً لصاحبة البويضة ، فإذا حدث ذلك فهو مماثل للتلقيح الصناعي الذي تكلمنا عنه والذي يحاربه الإسلام أشدّ تحريم ويرى أنه في نتائجه نوع من الزنا ، وكل ما بينهما من فروق أن التلقيح الصناعي يحصل داخل المرأة ، أما هنا فيحصل داخل الأنابيب .

عمل المرأة

عملت المرأة منذ فجر البشرية في بيتها ، وعملت مع زوجها خارج البيت ، وقد تحدثنا في الموضوع السابق عن نموذج طيِّب في بيت النبوة ، عن فاطمة رضي الله عنها ، واقتبسنا وصف زوجها ليدها وقد تأثرت من جرَّ الرحا ، ولجيدها وقد أثرت فيه أحمال القرية ، ويقص الأدب العربي قصة تريانا أن كثيرات من النساء كن يعملن في الغزل والنسيج وكانت أعمالهن ثروة للأسرة ، حدث الوضين بن عطاء قال : استزارني أبو جعفر المنصور إبان خلافته ، وكانت بيني وبينه صداقة قبل الخلافة ، فصرت إلى مدينة السلام فخلونا يوماً ، فقال لي : يا أبا عبد الله ، ما مائك ؟ قلت : كما يعرف أمير المؤمنين . قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن . فقال لي : أربع في بيتك ؟ قلت : نعم ، وردد المنصور على ذلك ثلاثاً حتى ظننت أنه سيموِّلني ، ثم رفع رأسه إلى وقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل يدرن في بيتك (١) .

وفي خارج البيت عملت المرأة مع زوجها ، فرعت معه الغنم ، وشقت الأرض وقلَّحتُها ، وارتادت معه الأسواق .

وليس هذا وذاك موضع حديثنا الآن ، فعمل المرأة طالما كان في نطاق بيتها أو في ظل زوجها ولمساعدته شيء عادي ، وضروري أحياناً ، وهو لا يخلق مشكلة على الإطلاق ، أما الموضوع الذي نطرقه فهو خروج المرأة عاملة بعيداً عن عمل زوجها وعن مشاركته ، إنها الوظائف التي تمارسها الآن كثيرات من الفتيات والسيدات .

ويبدو لي أن عمل المرأة الذي نعينه ارتبط بتعليمها وبحصولها على درجات علمية استتبعته القيام بعمل والالتحاق بوظيفة ، وفي رأي أن الربط بين

(١) ابن الأثير : الكامل من التاريخ ج ٦ ص ١٠ .

التعليم والوظيفة خطأ كبير ، فتعليم المرأة شيء ضرورى جداً ، وقد حرصت المرأة المسلمة على أن تنال نصيباً من العلم منذ عهد الإسلام المبكر ، فقد روى البخارى أن النساء قلن للنبي صلى الله عليه وسلم : غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً نلقاك فيه ، فعيّن لهن يوماً يلقاهن فيه ، ويعلمهن . وقد نتج عن هذا أن حظى الجيل الإسلامى الأول ، وبخاصة نساء الأنصار بمجموعة من السيدات كان لهن القدح المعلنى فى هذه الدراسات ، روى عن عائشة أنها قالت : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين ، وقد كانت عائشة نفسها واسطة العقد بين نساء هذا الجيل ، حتى نسب البعض للرشدول صلى الله عليه وسلم أنه قال : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ، ومما يذكّر لها أنها روت عنه ألف حديث رواية مباشرة وهذا ما لم يتوافر لسواها (١)

وفى غير الأحاديث من الدراسات الإسلامية والإنسانية ، نبغت مجموعات من النساء المسلمات على مر التاريخ ، نبغن فى علوم الشريعة ، والدراسات الأدبية ، والطب ، والموسيقى ، والغناء ، وغيرها .

وفى العصر الحديث حققت المرأة كذلك ألواناً من النجاح فى دراسات مختلفة ، بل يُسّر لها سبل لم تكن ميسرة من قبل ، فافتحمت دور العلم وأبواب الجاهات ومعامل الأبحاث ، وكتب لها فى كثير من المجالات نصر مؤزر ، والإسلام عندما بحث على العلم ، لم يحث الرجال فحسب وإنما بحث أتباعه جميعاً ، والمرأة عليها نفس التكليف التى على الرجل من ناحية العقيدة والعبادة فيلزمها أن تمرّف ما يجعل حياتها متفقة مع الفكر الإسلامى . وعلى العموم فتعلّم المرأة شيء يحرص الإسلام عليه ويحث على تنوعه ، وقد حرص قادة المسلمين فى شتى العصور على تعليم بناتهم ، وعلى حث المسلمين أن يجعلوا للمرأة نصيباً وافراً من العلم والثقافة ، فتعلّم المرأة ليس شيئاً جائزاً فحسب ، بل ضرورياً وواجباً فى كثير من الأحوال .

وهنا يخطر سؤال كبير الأهمية هو : ما الهدف من تعليم المرأة ؟ وفي الإجابة عن هذا السؤال أرى أن الهدف الرئيسى من تعليم المرأة هو ذاتى قبل كل شيء ، أى نقلها من الجهالة إلى العلم والمعرفة ، ومن الظلام إلى النور ، ثم إن العلم يلحقها بزوجها ، فكما تعرف الفلاحة أمور الزراعة ، ينبغى لزوجة المتعلم أن تكون متعلمة ، وسبب ثالث لتعليم المرأة هو حسن تنشئتها لبنيتها ومساعدتها لهم فى المراحل التعليمية ، وحسن توجيهها لهم فى الحياة ، وهناك سبب رابع لتعلم المرأة لا يقل عن الأسباب السابقة هو جعلها مواطنة صالحة ، تخدم مجتمعتها ووطنها ودينها .

وهنا يخطر السؤال كبير الاتصال بدراستنا وهو : هل يكون من أهداف العلم أن تعمل المرأة وأن تشغل إحدى الوظائف لتستثمر علمها وتنفع وتنفع به فى هذا المجال ؟

والجواب الصارم هو بالنفي ، فليس هناك علم يستلزم الوظيفة إلا إذا استدعى الصالح العام ذلك ، والرجل نفسه قد يتعلم ثم يزاول تجارة خاصة أو زراعة أو نحوها من الأعمال ، فالعلم شئ والوظيفة شئ آخر ، وليس من مستلزمات العلم أن نقف طابوراً ننتظر الوظائف .

فإن احتاج المجتمع لعمل المرأة لزمها أن تعمل ما استطاعت السبيل لذلك فإن كانت طيبة والمجتمع يحتاج إلى طبيبات ، أو معاملة والمجتمع يحتاج إلى معلمات ، أو كاتبة على الآلة الكاتبة والمجتمع يحتاج إلى هذه الوظيفة ، فعملها حينئذ واجب لا اختيار فيه ، بل إن الإسلام ألزمها الجهاد إذا كانت البلاد قد هاجمها عدو ، فهى حينئذ ملزمة بالخروج للاشتراك فى الصراع بالقدر الذى تطيقه ، ولا تحتاج لإذن زوجها فى هذه الحالة ولا إذن أبيها ، فالجهاد آنذاك واجب مقدس يقدم كل طاقاته فيه ، قال تعالى : « انفروا تخفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » (١)

(١) سورة التوبة الآية ٤١ ، وانظر « الإسلام عقيدة وشريعة » لفضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت ص ٢٣٨ ، وكتاب « الجهاد فى التفكير الإسلامى » للتوفى ص ٦٨

فإذا كان المجتمع غير محتاج لعمل المرأة ، ولكنها هي محتاجة للعمل لتكسب رزقها ، فالعمل لها في هذه الحالة طبيعي ، وسعيها لكسب رزقها من هذا الطريق الحلال مشروع ، ويدخل في هذا أيضاً ما هو حادث في أيامنا هذه من كون عمل الفتاة وسيلة ليقبل عليها الراغبون في الزواج ، فالعالم الآن يمر بمرحلة اقتصادية لا تمكن أكثر الشبان من الاستقلال بتكوين بيت والإنفاق عليه ، ولذلك يحرص أكثر الفتيان على العثور على فتاة عامة تسهم بمرتبتها مع الرجل في حمل مسئوليات البيت .

ونصل الآن إلى أخطر سؤال في هذا البحث ، ذلك هو عمل المرأة في خارج بيتها بدون حاجة المجتمع وبدون حاجتها أو حاجة زوجها للعمل ، ونسأل هل يجوز للمرأة أن تعمل في هذه الحالة ؟

الجواب أنه إذا كان عملها سيجعلها تقصر في حق زوجها ، أو في حق أولادها ، أو يجرها إلى اختلاط لا ضرورة فيه ، فإن عملها ليس مشروعاً طالما ليس له ما يدعو إليه من حاجة خاصة أو عامة .

كثيرات من السيدات يزاولن العمل بعد الزواج لا لحاجة المجتمع ، ولا لحاجة الأسرة ، بل للعمل ذاته ، وللخروج من بين جدران البيت ، والاندماج في ضجيج الحياة ، وتقول هؤلاء الزوجات إن من أهدافهن الحركة وعدم الترهل ، وهذه أسباب لا تبيح العمل وبخاصة في عصرنا الحاضر حيث العمل صراع ومسئوليات تباشره هذه المرأة دون داع ، وحيث عمل المرأة قد يأخذ مكاناً يحتاج رجل أن يشغله ، يسد به حاجة محتاج ، أما الحركة وعدم الترهل فهناك وسائل للمرأة أن تباشرها فتفيد المجتمع وتكسب الحركة وعدم الترهل ، وذلك مثل الاشتراك في بعض ألوان النشاط الاجتماعي الذي لا يكاد يجد من يتبرع به ، كالإشراف على الجمعيات الخيرية ، ورعاية اليتامى ، وخدمات الحى الذى تعيش به المرأة ، ومساعدة العاملات اللاتي ألزمتن الحاجة للعمل وذلك برعاية أولادهن ، أو بالإشراف على دور حضانة تنشأ لهذا الغرض .

إننا نقولها كلمة صريحة ؛ إن المرأة التي تعمل دون حاجة للعمل من جانب الدولة أو من جانب الأسرة تخسر أكثر مما تكسب ، ولو جلست يوماً لتسجل الأرباح والخسائر لأسرعت في التفرغ لزوجها وأولادها وبيتها ، إن المرأة تدخل بالعمل معترك الحياة ، وتدخل ميدان منافسة عنيدة ، وفي المنافسة أحياناً بدور من الحقد والكراهية ، فإنها ستري امرأة أو رجلاً ترقى في وظيفة وهي تعتقد أنها أحق بالترقية ، وستري نفسها مرة تتخبطى ويندب سواها لعمل تعتقد أنها به أجدر ، وتعود المرأة إلى البيت وفي نفسها لهيب ، وينعكس هذا اللهيب على البيت .

والعمل في أيامنا هذه حاد وشاق يستلزم تبكيراً في الخروج واستعمال وسيلة أو أكثر من وسائل المواصلات في الذهاب والعودة ، وتعود المرأة منهكة مما عانت في العمل ومما عانت في الوصول إليه والعودة منه ، وينعكس ذلك على البيت .

ويمرض الزوج أو يمرض واحد من الأولاد وتمشى المرأة للعمل كارهة ، وتشتت نفسها وهي تباشر عملها ، وتكون أعصابها مشدودة ، وينعكس ذلك على العمل .

والرجل يعود من عمله مكدوداً يتطلع إلى من يحسن استقباله أو يخفف ألمه ، ولكنه يجد البيت خالياً من المرأة ، وربما جاءت هي أيضاً محتاجة إلى من يخفف عنها العناء ، ويضيع الأولاد بين الطرفين .

وهناك أعمال تدار بالنوبة ، وأعرف زوجات يعملن في الإذاعة والتليفزيون ويشغل أزواجهن في نفس العمل ، وتختلف نوبة الزوجة عن نوبة الزوج ، وقد حدثني بعضهم بأن أياماً تمر دون أن يرى زوجته إلا لماماً ، يعود إلى البيت لتخرج ، أو تعود هي فتجده قد غادر أو على وشك أن يغادر البيت لاستئناف عمله ، وليت شعري هل تتحقق مع هؤلاء الآية الكريمة « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

والعجيب أن كثيرات يبدأن العمل وهن محتاجات إليه فعلاً ، ثم تزوج زوجاً غنياً يستطيع أن يكفيها كل شيء ، ويود أن يكفيها كل شيء ، ولكنها تصر على البقاء في العمل لأن ذلك في زعمها يقوى مركزها في الحياة ، ويعزز مكانتها ، ويؤمن مستقبلها باعتبارها تستطيع الاعتماد على نفسها ، واعتقادي أن مثل هذا الإحساس ينتج عندما لا تتوافر الثقة بين الزوج والزوجة ، ولو توافرت هذه الثقة لأحست أن مال زوجها هو مالها ، ولا تجهت بكل قوتها إلى دعم حياتها الزوجية ، متصورة أن هذه الحياة هي كل حياتها ، وكم تكون المأساة عظيمة لو دفع هذا المرتب صاحبة إلى اعتداد بالنفس أكثر مما يلزم ، وإلى إحساس بإمكان الاستقلال الشخصي بسبب الكفاية المالية ، فإن ذلك يفقدها حياتها الزوجية بدافع هذا المال المشثوم ، أو يجعلها تعرض عن الزواج بسببه ، مع أن استقلال المرأة من الناحية المالية ليس شيئاً بالنسبة لحاجات المرأة الأخرى من حماية وأمن وأنس وعشرة وأولاد وغيرها مما يفوق المال بمراحل ، وقد شاهدنا في السنوات الأخيرة أشهر امرأة وأغنى امرأة في الأرض (مارلين مونرو) تنحصر لأن المال لم يجلب لها السعادة ، بل لم يجلب لها الاستقرار والهدوء .

وهناك زوجات أخريات يزاوئن العمل أيضاً وهن محتاجات إليه ، وتظن الحاجة بعد الزواج ، إذ لا يكون مرتب الزوج كافياً لتسيير دفة الحياة ، وربما قالت الواحدة منهن إنها ستوقف عن العمل وتتفرغ لبيتها يوم يستطيع مرتب الزوج أن يكفل للأسرة مطالبها ، ويمر الزمن ويصل مرتب الزوج إلى هذه الغاية ويزيد ، ولكن مرتب الزوجة في هذه الحالة يكون قد زاد أيضاً ، وتضيق به الزوجة وربما يفضن به الزوجان ، وتظل الأسرة في صراع لخدمة هذا المال الزائد .

وفي كلمة واحدة نقرر أنه لا يعرف متاعب عمل المرأة أكثر من المرأة العاملة نفسها ، ولقد حدث أن إحدى كبريات المفتشات بوزارة التربية والتعليم بمصر رفضت أن تكمل ابناتها ثقافتها الجامعية ، وزوجتهن بعد تحصنهن بها

على شهادة الثانوية العامة ، وقالت في تسبيب ذلك : لأننى لا أريد أن أعطيها السلاح الذى عذبت نفسى به طيلة عمرى .

وأعتقد أن عمل المرأة المسلمة جاءها عن طريق الغرب ، وقد تخلت المرأة الغربية عن العمل إذا لم تكن هناك ضرورة تدعو إليه ، ولكن المرأة الشرقية لا تزال تتمسك به ، وهكذا دَفَعْنَا الغربُ إلى تقليده في هذا الصراع ثم تَرَكْنَا فيه نِجَانِيهِ وَأَفْلَتَ مِنْهُ ، وكثير من علماء الغرب هاجم عمل المرأة ، يقول برتراند رسل : إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة ، وقد أخذت النساء في الحرب تكسبن رزقهن ، فاستقلان استقلالاً اقتصادياً ، وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد على تقاليد الأخلاق المألوفة إذا تحررت اقتصادياً . ومثل هذا ما يقوله صموئيل سميث وغيرهما من المفكرين ، وقد نشأت في إنجلترا جمعية قوية تعمل على مقاومة اتجاه النساء إلى العمل في المصانع والشركات والمصالح الحكومية وإيهالهن البيوت .

وإيجازاً لما سبق بل تكراراً له ، فهنا قد يطيب التكرار ، يلزم أن تتعلم الفتاة ، ولا يجوز أن يرتبط العلم بالعمل ، فالعلم ينبغي أن يكون لرفع المستوى . . أما عمل المرأة فلا يكون إلا حاجة ماسة إليه ، والمرأة كثيراً ما تخسر بالعمل أكثر مما تكسب منه .

وبعد هذه الدراسة العامة ، نعود إلى نقاط محدودة نستوفى بها دراستنا .

أولاً : ليست كل الأعمال في مستوى واحد بالنسبة للمرأة ، وكثيرات من الفتيات يدفعن أنفسهن إلى بعض كليات الجامعة باسم المجموع الذى حصلن عليه في الثانوية العامة ، متناسيات طبيعة المرأة ، ويستطيع القارئ أن يرى في كليات الزراعة فتيات يحاولن أن يقفن خلف الحراث أو يباشرن بعض التجارب في الحقول والمشقة بادية عليهن ، ومثل هذا يقال عن كليات أخرى ، والرأى أن لا تنسى المرأة طبيعتها ، وأن تتسجّه إلى ألوان من التخصص تناسب هذه الطبيعة ، ولعل الطب والتمريض والتدريس أنسب للمرأة .

ثانيا : هناك مشاق في طريق المرأة العاملة ، وقد اتضحت هذه المشاق في العهد الحاضر أكثر مما اتضحت من قبل ، فالأولاد مشكلة كبرى وبخاصة عندما تكون الزوجة بعيدة عن أمها وأم زوجها وكثيراً ما تكون ، وبخشي أن يكون عمل المرأة جناية على أولادها ، إن طفولتهم تقتضى مع الخدم أو في الشارع ، وهى بذلك طفولة مريرة ، وربما أثرت على صبا الأولاد وشبابهم ، وإن الأولاد يفقدون بعمل الأم قلبها الرحيم لأنها تعود من العمل منهكة كما قلنا من قبل ، فلا تطيق الإقبال اللازم على الأولاد وحسن ملاحظتهم ، وأعرف أمهات يخرجن في الصباح من البيت قبل أن يخرج الزوج والأولاد ، والزوجة بذلك تترك مملكتها المقدسة دون رعاية ودون يد أمينة في وقت خرج يحتاج فيه الزوج والأولاد إلى عناية ربة البيت ، وترك الأم أبناءها لا نقول للشارع بل للمجهول .

ثالثا : ومن المشكلات التى تعانيها المرأة العاملة مشكلة الخدم ، وقد عز الخدم في أيامنا هذه في أكثر البلاد ، والخدام عندما تدرك حاجة البيت إليها تدل بنفسها وتتكبر ، وكثيراً ما تسرف الخدام في أمور الطبخ ورعاية البيت إسرافاً يأكل الكثير من جهد الزوجين بسبب وبدون سبب ، فإذا أضيف إلى ذلك ما يستلزمه عمل المرأة من نفقات إضافية للملابس والانتقالات ، أدركنا أن الغنم الذى تحصل عليه الزوجة من وظيفتها يصبح قليلاً إذا كان هناك غم .

رابعا : هناك بعض نساء أرى ألا يدخان في نطاق هذه الدراسة التى عقدناها عن عمل المرأة ، وأولئك هم ذوات المواهب الممتازة الفذة في أى فن من الفنون أو علم من العلوم ، وأعرف بعض هؤلاء وهن أنفسهن للصالح العام وضحين بحياة الأسرة والأولاد فلم يتزوجن ، وتتخذ الواحدة من هؤلاء من المجتمع أسرة لها ، فإذا كانت للواحدة منهن أسرة فينبغى أن تحاول وأن يحاول معها مجتمع الأسرة والمجتمع العام تيسير حياتها . إن هذه الدراسة التى عقدناها تتحدث عن المرأة العادية ومن هى دون المستوى العادى وهؤلاء هن الجمهرة العظمى بين النساء بطبيعة الحال ، فليست الممتازات والممتازون إلا قلة دائماً ، ويتحتم أن توجه عناية خاصة لهذه الطبقة من الرجال والنساء .

وبعد فلسنا نستطيع أن نوقف عجلة الحياة ، ولسنا نحاول ذلك ، فالمرأة تعمل هنا وهناك بحق أو بدون حق ، ولا بد أن نعالج الأمر على ما هو عليه إن عجزنا أن نعالجه من جذوره ، ولذلك نضع بعض المقترحات أمام أولى الأمر في أى بلد إسلامي ، لعل هذه المقترحات تكون نواة لإصلاح شامل لهذه المشكلات الكبرى التي نعانيها ، وليست هذه المقترحات هي كل شيء ، وإنما هي خواطر يمكن أن تعدل أو يضاف لها أو يحذف منها .

دور الحضانة :

وأول هذه المقترحات وأجدرها بالسرعة في التنفيذ إنشاء دور حضانة تستوعب جميع أولاد النساء العاملات دون السادسة ، بحيث يصير في برامج أية مؤسسة بها عشرون زوجة مثلاً أن تنشئ دار حضانة لأولاد العاملات بها ، وتشرف على هذه الدار بعض المتخصصات في الحضانة ، ويمكن أن تسهم المؤسسة والأمهات والدولة في التكاليف ، أما المؤسسة التي ليس بها عدد كاف من الزوجات فلإنها تشترك مع مؤسسة أو مؤسسات مجاورة في تكوين دار حضانة مشتركة .

أولاد العاملات يلتحقون بالفترة الصباحية :

والأولاد بعد السادسة يدخلون المدارس الابتدائية ، وينبغي أن يكون لأولاد العاملات أولوية في دخول الدورة الصباحية إذا كان التعليم يتم على عدة دورات ، بحيث يكون الأولاد بالمدارس في فترة عمل الأم .

المرأة تعمل فترة واحدة في الصباح فقط :

ومن المقترحات ألا تعمل المرأة المتزوجة إلا فترة واحدة صباحية ، ولو ترتب على ذلك إنقاص مرتبها ليتناسب مع عملها (١) ، فليس طبعياً إطلاقاً أن تخرج المرأة صباحاً وتعود بعد الظهر ، ثم تخرج مساء مرة أخرى ، فالتوفيق بين الفترتين وبين مسئولية البيت غير ممكن على الإطلاق .

(١) في بريطانيا وفي السودان تأخذ الفتاة حوالى ثلثي مرتب الفتى عند تساوى الدرجة العلمية والعمل ، باعتبار الفتاة قليلة المسئوليات ، وكثيرة التخلف عن العمل للأعذار الخاصة .

إجازات بنصف مرتب :

ومن المقترحات إعطاء إجازة إجبارية للمرأة الحامل ابتداء من أول الشهر السابع وتستمر إلى ما بعد الولادة بعام ، وتكون هذه الإجازة بنصف مرتب مثلاً ، ولعلنا بذلك نقضى على المنظر المؤذى ، منظر الحامل في شهرها الثامن أو التاسع تعاني في المواضلات أو تن على المكتب ، وهيئات أن نطلب إنتاجاً سليماً من حامل في فترة الحمل الأخيرة .

على أن المرأة العاملة ينبغي أن تفكر في مشكلات الحمل والولادة وطفولة الولد ، فتأخذ إجازة بدون مرتب حتى ينمو أولادها ، أو تحاول أن تجذب إليها إحدى قريباتها المتقدمات في السن للعيش معها هذه الفترة ، أو نحو ذلك .

لا تفريق في مكان العمل :

ومن المقترحات التي يلزم أن توضع موضع التنفيذ فوراً ألا يفرق بين الزوج والزوجة في مكان العمل ، وما بالك بأسرة تعمل في القاهرة مثلاً ثم تفاجأ بنقل الزوجة إلى دمنهور أو الزقازيق ؛ إن قراراً مثل هذا فيه إيذاء واضح لهذه الأسرة ، على أن الزوجين ينبغي أن يضحيا ببعض الحقوق لضمان بقائهما معاً ، أما أن يطالبا بكل حقوقهما في الترقية مثلاً ويتخذان من الزوجية ذريعة لتتم الترقية مع تخطي العمل خارج العاصمة فليس ذلك من العدل ، والمهم أن يوضع تنسيق لهذا العمل ، ولبنينا هنا نضع الخطة ولكننا نحفز الهمم لوضعها .

حل مشكلة المواضلات :

ومن المقترحات أن تعمل المؤسسات التي بها عدد كبير من النساء على حل مشكلة المواضلات لهاتيك العاملات ، ويمكن أن تسهم العاملات في تكاليف نقلهن بواسطة سيارات تعدها المؤسسات لذلك .

التقاعد في سن مبكرة :

ومن المقترحات أن يتاح للمرأة أن تطلب الإحالة إلى المعاش في أية

فترة بعد سن الأربعين ، ويعطى لها معاش أعتقد أن ذلك يغري كثيرات بالتوقف عن العمل ، وبخاصة إذا كان مرتب الزوج قد أصبح كافياً لتحمل مشكلات الأسرة .

وبعد ، لست أدري هل تثور المرأة لهذه الدراسة أو تصفق لها ، وأغلب الظن أن يتجه البعض إلى هذا الجانب والبعض إلى ذاك ، ولكنى أحب أنصافاً للحق أن أسجل أننى عرضت أفكارى قبل طبعها على عدد كبير من النساء ، فى مختلف الأقطار ، ومختلف الأعمال ، وفى ظروف وأعمار مختلفة ، وأن هذه الدراسة حملت أحاسيس الكثيرات منهن ، ونالت موافقة أكثرهن ، بل ربما أقول إنها نالت موافقة الجميع .

مرتب الزوجة وحكم الشرع فيه :

بقيت مسألة صغيرة تتصل بعمل المرأة ، تلك هى الحديث عن مرتب المرأة العاملة ، وهل ذلك المرتب خالص لها أو هو حق للأسرة ؟

بادئ ذى بدء نقرر أن الحياة الزوجية ينبغى أن تشملها الألفة والمحبة والإيثار ، بحيث يسهم كل بما يملك لتكون هذه الحياة سعيدة ، وبذلك لا يثار مثل هذا السؤال ، قال تعالى « فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » (١) .

ولكن عند شح النفس ، أو قل عند إيضاح المسألة من الناحية النظرية نقرر أن التفكير الإسلامى يلقى المسئولية المالية للحياة الزوجية على الزوج ، ولا يكلف الزوجة بأية مسئولية مالية أياً كانت مصادر ثروتها . بيد أنه إذا كانت الوظيفة قد استلزمت نفقات إضافية للزوجة كملايس إضافية ومواصلات ومصروفات أخرى ، فإن مرتب الزوجة يتحمل هذه النفقات ، وإذا كانت الزوجة من واجبها أن تقوم بأعمال البيت ، واستلزم غيابها عن البيت استخدام

فرد. أو أكثر للقيام بهذه الأعمال فإن الزوجة تلتزم بدفع تكاليف هؤلاء المستخدمين . وما زاد عن ذلك فهو حق لها ، إن الزوج يملك أن يمنعها من العمل ، ولكنه إن أذن لها أن تعمل كان ذلك هو الحكم ، ومرة أخرى فالحكم الأخرى بالاتباع هو التعاون الكامل حتى يسير بسلام زورق الحياة الزوجية .

مزيد من الدراسة حول عمل المرأة

بعد ظهور الطبعة الثالثة لهذا الكتاب حصلت على معلومات وإحصائيات جديدة تتصل بهذا الموضوع الخطير ، ويسرنى أن أضعها هنا لعلها تقدم مزيدا من الضوء :

.. لشكر الدكتور أحمد عيسى أستاذ طب الأطفال مقالا طويلا عن « مخاطر تهدد الأطفال » ومن هذا المقال نقتطف بضع فقرات :

إحصائيات ونتائج :

يقول سيادته : لقد التقيت في شهر يوليو من العام الماضي بالبروفيسور بتلر أستاذ الولادة بجامعة لندن وأخذت أراجع معه نتائج إحصائياته الشهيرة التي أجراها عن الأمهات والأطفال منذ الولادة حتى السنة الخامسة من العمر . وقد أجرى هذا البحث بواسطة فريق كبير من الأطباء والإحصائيين الاجتماعيين والنفسيين والمعلمين والمرضيات وخبراء الصحة العامة والتغذية وعلماء الإحصاء مما أضفى على البحث صفة التكامل والدقة وقد أشارت النتائج إلى الحقائق التالية :

أولا : نسبة الإجهاض مرتفعة بين السيدات العاملات . . .

ثانيا : ولادة الأطفال المبشرين أى ناقصى الوزن أو المولودين قبل الموعد الطبيعي عالية عند الأمهات العاملات .

ثالثاً : نسبة التشوهات الخلقية أقل عند الأمهات غير العاملات واللاتي لا يتعرضن لأخطار المهن .

رابعاً : نسبة الوفاة عند الأطفال حديثي الولادة مرتفعة إذا كانت الأم موظفة .

خامساً : إدمان التدخين والحمور أكثر شيوعاً عند السيدات الموظفات مما يؤثر تأثيراً سيئاً على صحة الجنين . .

سادساً : الاستقرار المنزلي والارتباط الأسري أصبحا من الظواهر النادرة في المجتمعات التي ينغمس فيها الأب والأم في العمل .

سابعاً : الاضطرابات النفسية الخفيفة والتبول اللاإرادي أكثر شيوعاً بين أبناء الموظفات .

ثامناً : بمراجعة مستويات النمو الذهني والجسماني بين الأطفال في فترة زمنية محدودة « خمس سنوات » ومتابعة كل طفل على حدة منذ الولادة ، حتى عمر الخمس سنوات وجد أن ذلك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعدد الساعات التي تقضيها الأم مع طفلها ، ونوعية الغذاء المقدم للطفل ، وهل كانت الرضاعة طبيعية أم صناعية ؟ .

لبن الأم هو الأمثل :

وقد تأكدت هذه الحقائق الخاصة بنمو الطفل في بحث مستشفى آيخز منذ عامين في «بومباي» بالهند حيث عرض علينا البروفيسور « أدوان » رئيس قسم الأطفال بجامعة « بومباي » هذه النتائج المثيرة التي أشارت إلى تخلف الأطفال في نموهم إذا استمرت رضاعتهم بالالبن الصناعية حتى الفطام .

والأكثر إثارة ما جاء مؤخراً في أبحاث الدكتور هاريس بلندن والبروفيسور جيليف بأمريكا حيث اتضح أن تكوين خلايا المخ عند الأطفال الذين تربوا على الالبن الصناعية يختلف عن الأطفال الذين تربوا على

لبن الأم ، وذلك نتيجة الاختلاف في الأحماض الأمينية في كلا النوعين من الألبان .

وقد ختم الدكتور جليف الذى قضى معظم سنوات عمله في إفريقيا والبلاد النامية مقالة بجملة لاتندى وهى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق لبن البقر لوليد البقر ولبن الماعز لوليد الماعز ولبن الخنزير لوليد الخنازير ، كل حسب تكوينه ونسبة نموه فلماذا نعرض أطفالنا للألبان لم تخلق لهم ونلقى بهبة الله التى خلقها لهم في المهملات ؟ .

عيوب في النطق بسبب الرضاعة الصناعية :

ويرتبط بالرضاعة الصناعية شيء يتحدث عنه الأطباء الآن ، هو أن الجهاز الذى يبدله لسان الطفل مع « البرازة » يسبب نوعا من التضخم في لسان الطفل ، يكثر أن يُنتج عيوباً في النطق فيما بعد .

تكاليف التغذية الصناعية :

هذا من الناحية العلمية والطبية . . أما من الناحية الاقتصادية فقد درست هيئة الصحة العالمية هذه المشكلة دراسة مستفيضة ونشرت أبحاثها في دوريات متتالية في السنوات الأخيرة وما زالت النتائج تنهال علينا بصورة متتابعة .

وقد شمل أحد هذه الأبحاث دراسة إحصائية عن تكليف الغذاء الصناعى في عدة دول منها المتقدم الغنى ، والفقير النامى مع مقارنة النفقات بين العائلات الفقيرة والغنية في كل دولة .

ففي إنجلترا وجد أن التغذية الصناعية تستهلك ربع دخل الأسرة الفقيرة وسدس الدخل في الأسرة المتوسطة .

أما في السودان فإن الغذاء الصناعى يستهلك ٥٠٪ من دخل أسرة العامل و ٣٥٪ من مرتب الموظف الجامعى وفي مصر فإن العامل ينفق

٣٨ ٪ من دخله على الألبان الصناعية و ٢٠ ٪ من مرتب الموظف الجامعي . .

عمل المرأة وأمراض الطفولة :

ولكن الذى ينبغى إدراكه هو حقيقة تخفى على الكثيرات ذلك أن معظم أمراض الطفولة ناتجة عن القصور فى الرعاية خلال العامين الأولين من العمر ، فالخادمة بالمنزل ليست بديلاً للأم ، ودور الحضانة مصدر معروف لنقل العدوى بين الأطفال ولا يمكن أن تكون بدائل للبيوت .

والأمهات العاملات يستظعن أن يخصصن عدد المرات التى يسقط فيها الرضيع مريضاً خلال عام واحد ومدى ما تتكبده الأسرة من تكاليف علاج للمرض ومضاعفاته فضلاً عن الارتباك فى المنزل وفى العمل الذى يصاب به عائل الأسرة عند مرض أحد أبنائه .

أضف إلى ذلك حقيقة بالغة الخطورة . : هى أن أمراض الطفولة تحدد بصورة قاطعة مستقبل الطفل فى شبابه من حيث اللياقة الجسدية والعقلية ويشهد على ذلك تلك النسبة الكبيرة من شباننا غير اللائقين للخدمة العسكرية ، فلين العظام وما يتبعه من تشوهات جسمية وقصر القامة وضعف الإبصار والعشى الليلي جميعها لها جذور من حالة الطفل الصبية فى شهوره الأولى .

رسالة ماجستير تدين عمل المرأة :

وفى جامعة طنطا قدمت الباحثة سهام محمود العراقى للجامعة رسالتها التى حصلت بها على درجة الماجستير ، وقد زارت الباحثة مجموعة من المدارس من المراحل المختلفة ، والتقت بمئات المدرسين والمدرسات من أعمار وتخصصات مختلفة ، وخرجت بالنتائج التالية :

أولاً : إن التعليم المشترك أدى إلى رفع مستوى الأخلاق بين تلاميذ المدارس .

ثانيا : أن تلاميذ مدارس القرية أكثر تمسكا بالقيم والأخلاق من زملائهم في مدارس المدينة .

وترجع الباحثة هذا السبب إلى عدم انتشار وسائل الإعلام في الريف .
وقد تبين لها من خلال البحث الذي أجرته أن هناك إجماعا من هيئة التدريس على وجوب تدريس الدين في المرحلتين الثانوية والجامعية لرفع المستوى الخلقي لأبنائنا ، وأن المستوى الأخلاقي يرتفع كلما ارتفع مستوى التعليم للأبوين .

ثالثا : أن خروج المرأة إلى ميدان العمل أدى إلى انخفاض المستوى الأخلاقي للأولاد :

الخطر الصحي على المرأة العاملة نفسها :

وجاء في الإحصائية التي أعدها الاتحاد العام للتعاون في ألمانيا الغربية عن حياة الأمهات اللواتي يشتغلن خارج نطاق البيت ما يلي :

« إن المرأة التي اشتركت في الحياة العملية باسم المساواة بالرجل أصبحت تدفع ثمن ذلك غاليا من سعادتها وراحتها ، فقد ثبت أن ٧٢٪ من النساء العاملات بألمانيا مصابات بالأمراض العصبية ، وحالات الضعف العام ، واختلال الدورة الدموية ، والأمراض القلبية ، وأن ٦٩٪ منهن عندما يرجعن للبيت لا يستطعن أن يقمن بأي عمل من شدة الإرهاق الذي يصيبهن في ساعات العمل » .

إعراض المرأة عن العمل :

اتجهت المرأة في أوروبا إلى الزواج لتختصم بالزوج وترك العمل ، ففي اسكتلندا عصفت موجة الزواج بالمدرسات ، ففي سنة ١٩٦٠ عينت ١٩٦٣ مدرسة ، وفي نهاية العام الدراسي تركت ١٠٠٠ منهن الوظيفة للزواج .
وكانت نتيجة الاستفتاء العام الذي قام به معهد غالوب في أمريكا بين النساء العاملات :

« إن المرأة متعبة الآن ، ويفضل ٦٥٪ من نساء أمريكا العودة إلى منازلهن ، فقد كانت المرأة تتوهم أنها بالعمل بلغت أمنيته ، أما اليوم وقد أدمنت عثرات الطريق قدمها ، واستنزفت الجهود قواها فلإنها تود الرجوع إلى عشمها والتفرغ لاحتضان فراخها . »

ولعل ذلك أيضاً هو الذى دفع بعض أعضاء مجلس العموم البريطانى إلى التقدم باقتراح بعدم قبول طلب المرأة المتزوجة للعمل إلا بعد الاكتفاء بالرجال .

كما دفع أعضاء الكونجرس الأمريكى للاجتماع لمناقشة موضوع منع الأم التى لديها أطفال من العمل ، لأن عمل الأمهات يسبب مشكلات اجتماعية واقتصادية لا حصر لها .

وارتفعت أصوات تقول . . إن الله عندما منح المرأة ميزة إنجاب الأولاد ، لم يطلب منها أن تركهم لتعمل خارج البيت بل جعل مهمتها البقاء فى المنزل لرعاية الأطفال .

الخطر على العمل بمصر من المرأة العاملة :

وفى مصر تتعرض الأعمال لخطر الاضطراب والتوقف بسبب المرأة ، وذلك لأن القانون يعطى المرأة إجازة وضع طولها ثلاثة أشهر ، وهى مدة تعود بالضرر البالغ على الأعمال وبخاصة فى المدارس ، فثلاثة شهور تمثل فى المدارس نصف العام تقريبا ، ولا شك أن الدراسة ستتضطرب لو غابت مدرستان أو أكثر بسبب الوضع ، وهو شىء واقع وموضع شكوى .

وفى غير المدارس حدث أن غابت مجموعة من السيدات يعملن فى أحد البنوك ، مما هدد ذلك العمل الذى لا يحتمل التأخير لرعاية مصالح العملاء ، وكانت النتيجة أن البنك أصبح يرفض تعيين المرأة به .

وأخيرا فليت النظام اليابانى يصبح دستور الناس جميعا.، فإن المرأة
تعمل فى اليابان بصفة مؤقتة ، فإذا تزوجت تطلعت للاستقرار فى البيت ،
وتقدم عليه عندما يصبح لها أولاد ، فالبيت عند الرجل اليابانى هو الراحة
الكبرى أو الجنة الحلوة ، والأولاد نعيم الدنيا ، ولا بد من الاهتمام بتجميل
البيت وإسعاد الأولاد .

الوصية

كثير من الناس تشغلهم الحياة الدنيا عن الآخرة ، فينغمسون في الكدح وجمع المال ، لا يألون على شيء ، وقد صور القرآن الكريم هؤلاء بقوله « أهلكم التكاثر حتى زرتم المقابر » (١) ويظل هؤلاء في غفلتهم فلا يفيقون منها إلا وقد تراخت أجسامهم ، ووهنت عظامهم ، ورأوا أنفسهم ينحدرون إلى النهاية .

وبعض الناس يكسحون ويحسنون للمجرومين ، فهم يجمعون المال ويجعلون فيه للمحتاجين نصيباً كافياً ، فإذا ما قربت نهايتهم خافوا أن يوقف هذا الإحسان بعد موتهم واقتسام الورثة ثرواتهم .

ولهؤلاء وأولئك رسم الإسلام الوصية ليتدارك الأولون ما فاتهم ، وليضمن الآخرون استمرار انتفاع المحتاجين بشيء من أموالهم .

وقد تتجه الوصية إتجاها غير اتجاه الإحسان والعون ، فقد تكون اعترافاً بيد ، أو تشجيعاً للعلم أو الجهاد أو نحو ذلك .

فالوصية تبرع بحق مضاف إلى ما بعد الموت ، وهي وسيلة من وسائل الخير في الآخرة تحقيقاً لقول الرسول عليه السلام « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »

وتكره الوصية إذا كان الموصي قليل المال ، وله وارث أو ورثة يحتاجون للمال ، وذلك هو رأى الخنابلة وهو الرأى المختار ، ويراعى العرف في تقدير المال وتقدير الحاجة ، وقد روى عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار فقالت : ما أرى عنده فضلاً . وأراد آخر أن يوصي فسأله : كم مالك ؟ فقال : ثلاثة آلاف ، قالت كم

(١) سورة التكاثر الأيتان الأولى والثانية .

عيالك؟ قال : أربعة . قالت : إنما قال الله تعالى « إن تركه خيراً » وأن هذا الشيء ليسير ، فاتركه لعيالك .

والإسلام يوصى بإجراء هذه الوصية قبل أن يفوت أوانها ، أى قبل أن يقتحم الموت الباب على الإنسان ، فالإنسان لا يعرف متى يموت ، ومن هنا يحسن به ألا يؤجل الوصية من يوم إلى يوم وأن يبادر بها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، قال صلى الله عليه وسلم :

- ما حق امرئ مسلم أن يبيت ليلتين وله شيء يوصى فيه إلا ووصيته مكتوبة عنده . (وليس المقصود الزمن ، وإنما المقصود المبادرة بكتابة الوصية عند تجمع عناصرها) .

- المحروم من حرم وصيته .

- من مات على وصية مات على سبيل وسنة ، ومات على تقي وشهادة ، ومات مغفوراً له .

وتكون هذه الوصية في حدود الثلث ، ويفضل أن تكون أقل من الثلث ، وقد وردت في تحديداتها أحاديث كثيرة :

- وأول هذه الأحاديث حديث قدسى ونصه : يا ابن آدم اثنان لم تكن لك واحدة منهما : جعلت لك نصيباً من مالك حين أخذت بكظمك (قبضت روحك) لأطهرك به وأزكيك ، وصلاة عبادى عليك بعد انقضاء أبجلك (أى دعاؤهم لك واستغفارهم عنك) .

- إن الله تصدق عليكم عند وفاتكم بثلاث أموالكم زيادة لكم في أعمالكم .

- عن عامر بن سعد عن أبيه قال : مرضت عام الفتح حتى أشفيتُ على الموت ، فعادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أى رسول الله ، إن لى مالا كثيراً وليس يرثنى إلا ابنة لى أفأتصدق بثلاثى مالى ؟ قال : لا ،

قلت : فالشطر ؟ (أى النصف) قال : لا ، قلت : فالثلث ؟ قال : الثلث والثلث كثير .

وقد روى عن ابن عباس قوله : وددت لو أن الناس غضبوا من الثلث إلى الربع ، لأن الرسول قال : الثلث كثير .

فإذا لم يوص الرجل فإن الإسلام يحث ورثته أن يوصوا عنه ، قال صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم يموت لم يوص إلا وأهله أحق — أى ينبغي — أن يوصوا عنه .

ويرى ابن حزم أن « فرضاً على كل مسلم أن يوصى لقرباته الذين لا يرثون إما لرق وإما لكفر وإما لأن هنالك من يحجبهم عن الميراث وإما لأنهم لا يرثون » (١) فإن أوصى لغير قرباته وقرباته محتاجون رُدت الوصية على ذوى قرباته (٢) .

فإن كان الموصى به أكثر من الثلث وللموصى ورثة فإن الوصية لا تنفذ فيما زاد على الثلث إلا إذا أجازها الورثة بعد وفاة الموصى ، فإن لم يكن له ورثة جاز أن يوصى بأكثر من الثلث .

وعقب وفاة الموصى تُسدّد الديون إن كانت هنالك ديون ، ثم تنفذ الوصية ، ولا يجرى اقتسام الورثة للتركة إلا بعد تسديد الديون وتنفيذ الوصية ، قال تعالى : « . . . من بعد وصية يوصون بها أو دين » (٣) فإن استوعبت الديون التركة فليس للموصى له شيء .

ولكن الإسلام يحتم ألا تكون الوصية لأى واحد من الورثة (٤) ، فإن

(١) المحل : ج ٩ ص ٣١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٣١٥ .

(٣) سورة النساء الآيتان ١١ و ١٢ .

(٤) يقول الفقهاء إن الموصى له يحسب وارثاً أو غير وارث وقت موت الموصى ، لا وقت الوصية ، فإذا أوصى شخص لأخيه وليس له ابن ثم ولد للموصى ابن فإن الوصية جائزة وإن أوصى لأخيه وله ابن ثم مات الابن قبل الموصى فالوصية غير جائزة . . .

- كانت كذلك فهي باطلة إلا إذا أجازها الورثة ، قال صلى الله عليه وسلم :
- إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث فلا يجوز لوارث وصية .
- إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، ألا لا وصية لوارث .

الميراث الشرعي والوقوف عنده

نظم الشارع الحكيم الميراث في الإسلام أدق تنظيم ، وقد مرت السنين والقرون ، وعبر هذا النظام إلى عدة أقطار ، وشمل عدداً كبيراً من الأجناس ، ولكنه كان دائماً راعياً ، وموفياً بالحاجة أدق وفاء ، وقد عجزت البشرية في كل زمان ومكان أن تأتي بنظام صالح للميراث ، وحسبك أن تعرف أن بعض الدول تجعل الميراث كله للابن الأكبر وتدع من سواه ، وبعضها تجعل نصف الميراث للزوجة ، وبعضها يجعل الميراث للبنين ويحرم البنات ، بل إن بعض النظم تجعله للكبار من البنين وتحرم الصغار منهم ، وفي بعض أنحاء أندونيسيا يكون الميراث كله لابنة الخالة الكبرى ويحرم من سواها من الميراث ، وقد كان من فضل الله على المسلمين أن نظم الميراث لهم حتى لا يقعوا كما وقع سواهم في الشطط ، قال تعالى في ختام آخر آيات المواريث « . . . يبين الله لكم أن تضلوا ، والله بكل شيء عليم » (١) وواضح من ذلك أن نظام المواريث منحة من الله للمسلمين حتى لا يسيروا في مسالك التيه وطرق الضلال .

وقد بينت آيات المواريث بدقة ، أن قضاء الله في الميراث شيء نهائي لا يجوز فيه تدخل ولا تعديل ، ولنقرأ معاً قوله تعالى في ختام الآية الأولى من آيات المواريث : « . . . فريضة من الله ، إن الله كان عليماً حكيماً » (٢) ، أما آية المواريث الثانية فكانت خاتمتها حاسمة أيضاً ثم تلتها آيتان تقرران

(١) سورة النساء الآية ١٧٦ .

(٢) سورة النساء الآية ١١ .

بوضوح أن حدود الله في الميراث لا يجوز أن تُتجاهل أو تُستخفى ، قال تعالى :
« . . . غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم ، تلك حدود الله ، ومن
يطع الله ورسوله يدخله جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك
الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها
واه عذاب مهين » (١) .

وعلى هذا فالوصية التي حث عليها الشرع هي تلك التي لا تغير شيئاً
مما قضى الله به ، قال صلى الله عليه وسلم : من حضرته الوفاة فأوصى ،
وكانت وصيته على كتاب الله كانت كفارة لما ترك من زكاته في حياته .
أما الوصية الجائرة التي تغير من نظام الموارث فقد حذر رسولنا منها وتوعد
من ارتكبها ، قال صلى الله عليه وسلم : من فرّ من توريث وارثه قطع الله
ميراثه من الجنة . يوم القيامة . وقال : إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير
سبعين سنة . فإذا أوصى حاف في وصيته ، فيُختم له بشر عمله ، فيدخل
النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة ، فيعدل في وصيته ،
فيُختم له بخير عمله ، فيدخل الجنة . وقد علق أبو هريرة على هذا الحديث
بقوله : اقرءوا إن شئتم « تلك حدود الله . . . » .

ولما كانت الوصية لوأرث باطلة إلا إذا أجازها الورثة (٢) ، فقد عمد
الراغبون في ارتكاب هذا الإثم إلى الحيل لتنفيذ رغباتهم الظالمة ، فقاموا بأنواع
من البيع الصوري يفضلون به وارثاً على وارث من درجته ، أو يحرمون وارثاً
حراماً نهائياً وذلك لعمرى خطيئة قاسية ، فالموصى يرتكب المنكر في حق
نفسه وحق ورثته ، إنه يكتب وصيته لتنفيذ بعد موته أى بعد أن يكون قد
استسلم لحساب الله ، فالوصية الجائرة وبال عليه ، ثم إنه في الوقت نفسه
يضع بين أبناء الأسرة الواحدة بذور شقاق مريع سيغلب لهم الصراع

(١) سورة النساء الآيات ١٢ - ١٤ .

(٢) يرى بعض المفكرين أن الوصية لوأرث لا تجوز وإن أجازها الورثة لأن الأمر بمنع
الوصية لوأرث تعبدي وليس فقط للحرص على حق الورثة ، وذلك رأى مرجوح (انظر بداية
المجتهد لابن رشد ج ٢ ص ٣٦٤) .

والكراهية ، ويجلب عليه الدعساء بالسوء ، وسوء الذكرى ،

وقد وضع الرسول حداً حاسماً في هذا الموضوع حين قال : إن الله قسم بينكم فأحسن القسمة ، وإله من يرغب عن رأى الله عز وجل يضل ، أوص لقربائك ممن لا يرث ، ثم دع المال على ما قسمه الله .

وقد سبق عند الكلام عن الأولاد أن ذكرنا جواز المفاضلة بينهم في العطاء في حياة الأب لسبب من الأسباب ، فهل يجوز للأب أن يوصى بنوع من المفاضلة لسبب من الأسباب أيضاً ؟ .

ولتوضيح هذه الفكرة نذكر أن الأب قد يزوج إحدى بناته ويدفع لها تكاليف الزواج ، فهل يجوز له أن يوصى لبناته الأخريات اللاتي لم تتزوجن بعد بمبالغ تناسب المبلغ الذى دفعه للبنت التى زوجها ؟ .

إن الظاهر من كلام أحمد بن حنبل أن ذلك يجوز لقوله في تخصيص بعض الورثة بمال : لا بأس به إذا كان حاجة وأكرهه على سبيل الأثرة والعطية (١) ، بيد أن أكثر العلماء يرون الوقوف عند النص ولا يبيحون الاجتهاد فيما فيه نص ، ومعنى ذلك ألا تجوز هذه الوصية . ونرى بدلاً من الوصية أن يخصص الأب القدر المناسب من ماله لكل بنت بحيث يصبح ملكاً لها قبل موت الأب تستعمله عندما تحين هذه المناسبة ، وبحيث لا يصبح هذا المبلغ بغض التركة ، ولا ينطبق عليه نظام الوصية ، لأنه تملك قبل الوفاة لبعض الورثة لسبب مقبول ، وعندما نجيز هذا التصرف ربما ألحقنا به ما يشبهه كأن ينحص الأب أحد أولاده بشيء قبل وفاته لأنه لم يعلمه في حين أنه علم الآخرين وهكذا ، ومثل هذا ليس تفضيلاً ولا ظلماً ، وإنما هو محاولة للمساواة والعدالة ، وقد رأينا من قبل عند الحديث عن « الأولاد » أن أبا بكر خص عائشة بمنحة في حياته ، ولكنها لم تتسلمها حتى مرض أبو بكر مرض الموت فاستأذنها في استرداد منحة قائلاً لها : إنك لو احتسرتها

كانت لك ، ولكنها أصبحت الآن مال وارث يقسم على كتاب الله (١) .

أما تفضيل البنين على البنات ، أو تفضيل واحد على آخر مماثل له في الظروف فإثم ينبغي إيقافه ، بل يرى بعض المجتهدين أن ولي الأمر ينبغي أن يضع تشريعاً يمنع هذا التلاعب ويوقف هذه البيوع الصورية وما في معناها تلك التي تجلب الصراع بين أفراد الأسرة الواحدة (٢) .

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٩٤ .

(٢) الفتاوى لفضيلة الأستاذ الشيخ . شلتوت ص ٣٤٠ ، ٣٤١

(م ١٠ -- الحياة الاجتماعية)

مباحث اجتماعية
في نطاق المجتمع

حماية المال العام

أو رعاية المال العام

لقد قلنا في مقدمة هذا الكتاب إن الإسلام أسلوب حياة ، ومعنى هذا أن الإسلام يعالج كل شئون الإنسان ، وبشيء من التفصيل نقول إن الإسلام ينظم علاقة الفرد بربه عن طريق العبادات ، وعلاقة الفرد بالمجتمع فيما يسمى المعاملات ، ومن الخطأ أن ينحصر اهتمام المفكرين والمسلمين في الحديث عن العبادات ، إذ أن الإسلام ليس فقط صلاة ولا صوما . . . وإنما هو تنظيم متكامل يشمل العبادات وسواها من العلاقات والمعاملات المرتبطة بالفرد أو المجتمع ، وقد قيل للرسول مرة : إن فلانة تُكثر الصلاة وتكثر الصوم والصدقة ولكنها تؤذى جيرانها . فقال : هي في النار .

وكان لعمر في تقدير المؤمن ميزان رائع ، نظر فيه إلى أن يكون المؤمن عضوا صالحا في المجتمع ، فيروى أنه قال : لا تنظروا إلى صيام أحد أو إلى صلاته ، ولكن انظروا من إذا حدث صدق ، وإذا اتهم أذى . وكان رضى الله عنه يقول : لا يحببكم في الرجل طنطنته ، ولكن من أذى الأمانة ، وسلم الناس من لسانه ويده .

ومن أجل هذا يسرني أن أتحدث هنا عن نقطة مهمة من نقاط علاقة الإنسان بالمجتمع ، وتلك هي رعاية المال المملوك للمجتمع ، وعن وسائل حمايته إذا انحرف الناس أو بعضهم في استعماله .

وفي تطواري بالعالم الإسلامى رأيت ما يبكى حول هذا الموضوع ، وفي مصر نرى ما يدمى القلب حول المال العام مما يحتم علينا أن نقف من ذلك موقفا صارما ، والذي يتبع الانحراف في استعمال المال العام يرى أن هناك نوعين ينشعب لهما هذا الانحراف ، وهذان النوعان هما :

١ — نهب المال العام وسلبه .

٢ — الإهمال في رعايته .

وستتکلم عن كل من هذين النوعين على حدة :

١ — نهب المال العام وسلبته :

من متابعة الأحداث في مصر نجد صوراً متعددة من نهب المال العام وسلبه ، وقد أدان القضاء العادل بعض هذه الانحرافات ، وأدان مجلس الشعب بعضاً آخر ، ومما قال فيه القضاء كلمته قضية الاختلاسات الكبرى المرتبطة ببنك الإسكندرية حيث تأمر موظفون بالبنك مع تجار سيارات على سلب أكثر من مليون جنيه من أموال البنك ، وقد كشفت هذه المؤامرة ، وحكم بالسجن على المختلسين كما حكم عليهم برد الأموال المنهوبة .

وهناك انحراف أثبتته لجنة تقصى الحقائق بمجلس الشعب ، كالانحرافات في هيئة الأوقاف ، وفي الاتحاد الزراعى التعاونى ، حيث كان المال يقدم بصورة أو بأخرى للأهل والأصدقاء في شكل وظائف أو مكافآت أو شقق أو سيارات . . .

وهناك انحراف كشفه وزير التكوين وقدم مستنداته للنيابة العامة عن اختلاس قوت الشعب من القمح المستورد بما تزيد قيمته عن مائة ألف جنيه . وقد أحالت النيابة محكمة الجنايات وزير الطيران السابق أحمد نوح ونائب رئيس الوزراء السابق عبد الله مرزبان لاتهامهما في اختلاس من أموال الدولة عن طريق عمولات باهظة وأحمد سلطان نائب رئيس الوزراء السابق لأخذه عمولة من شركة وستنجهاموس ليتم صفقة مصرية لصالح هذه الشركة ، وهناك ملايين الجنيئات التى هرب بها بعض الوزراء السابقين ، وملايين الجنيئات التى اختفت متصلة بمديرية التحرير ، والمليارات من جواهر أسرة محمد على التى سلبها المجرمون ، وهناك الكثير والكثير مما لم يظهر بعد ، وإن كانت رائحة الاختلاس تفوح من حين إلى آخر من جوانب متعددة يعرفها الشعب أو يحسها ، وستظهرها الأيام في المستقبل القريب أو البعيد .

أما الأموال التي انتهبها جمال عبد الناصر وورثها أولاده فقد كانت فوق العدّ والحصر ، وقد تكلم عنها بإفاضة الأستاذ جلال الدين الحمامصي في كتابه « حوار وراء الأسوار » .

وأما الأموال التي انتهبها المشير عبد الحكيم عامر الرجل الثاني في ذلك العهد الأسود فقد عرفنا جزءاً منها عندما أعلنت إحدى بناته في يناير سنة ١٩٨٦ أن مجوهراتها سرقت ، وأذاعت الصحف أسماء هذه المجوهرات فلم تدع لفظاً كنا نسمع عنه إلا أوردته : الماس - الالماس - العقيق - أكداش الذهب . . .

ولا شك أن طبقات من الحاكمين والمحكومين اتبعت سيرة هذين الزعيمين ، مما هوى بالعملة المصرية إلى القاع .

ولهؤلاء أولئك نذكر قواه تعالى «وما كان لنبي أن يغفل» ، ومن يغفل يأت بما غلّ يوم القيامة ، ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»

(آل عمران ١٦١)

فإذا كان هذا هو حكم الله على الأنبياء مع أنهم صفوة ، فمن الواضح أنه تهديد للبشر الذين يمكن أن يغفلوا أي ينهبوا ما ليس لهم من أموال

وقد حدث أن صحابياً في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم سقط شهيداً في معركة فقال الصحابة هنيئاً له الجنة فلما سمع رسول الله ذلك قال لهم : وما يدريكم أنه دخل الجنة ؟ إن النار تشتعل فيه بسبب شملة « تلفيعه » أخذها من مال المسلمين حينما كان يجمع الغنائم .

وهكذا نجد صحابياً وهو في نفس الوقت شهيد ، ولكنه يعاني من سرقة بسيطة خصّ نفسه بها من المال العام بدون حق . فليحذر أولو الأمر .

٢ — الإهمال في رعاية المال العام :

أما الإهمال في رعاية المال العام فيكاد يكون انحرافا شائعا بين الجميع ، يقل من لم يتورط فيه ، وحسبك أن تقارن بين رعاية المال الخاص ورعاية المال العام لترى الفرق واضحا جليا ؛ فانظر مثلا إلى استعمال الكهرباء في العمل وفي المنزل ، نجد — في العمل — كل الكهرباء مضيئة في وضوح النهار ومع أشعة الشمس ، وتجد — في المنزل — حرصا شديدا في استعمال الكهرباء ، والمياه تندفع دون مبالاة في دورات المياه بدور الحكومة ، وليس هناك من يصلح فاسدا أو يضع جلدة سليمة بدل التالفة ، أما في البيت فهناك حرص شديد على ضبط استعمال المياه ، اللهم إلا في حالة المستأجر الذي لا يلتزم بدفع استهلاك المياه فإن أموال صاحب المنزل تعتبر لهذا الساكن من المال العام الذي لا تراعى فيه ذمة ولا ضمير ، وفي حالة أعرفها وصل استهلاك المياه في منزل صغير ١٨ جنيه شهريا ، فلما صدر قانون بأن يكون استهلاك المياه على حساب المستأجر بعد خصم ٥٪ من الإيجار نظير ذلك ، انخفض استهلاك المياه إلى أربعة جنيهات ومن الواضح أن السكان ظلوا يشربون ويغسلون ويستحمون وكل ما نقص هو ضبط الاستعمال وإيقاف التلف .

وانظر كذلك إلى سيارة يملكها شخص ، وسيارة أخرى حكومية تعطى لشخص لاستعمالها ، تجد حياة الأولى أضعاف حياة الثانية ، وقل مثل هذا في المتجر العام والمصنع العام ، ولقد حدث مرة أن دخلت متجرا عاما وبدأت أسأل العامل : هل عندكم . . . ؟ وقبل أن أكمل السؤال تعجل العامل وقال وهو يجالس : آسف ليس عندنا . فسألته : ماهو الشيء الذي ليس عندكم ؟ وكيف عرفت ما أطلب وأنا لم أنطق به بعد ؟ فاعتراه الحرج وقال : إني تعب . . .

وأعرف بناء حكوميا ظل العمل فيه سبع عشرة سنة ، وفي كل سنة تلى فيه عشرات الآلاف من الجنيهات ، ثم يتوقف العمل في انتظار الميزانية

القادمة أو نحو ذلك ، ولو كان هذا البناء ملكا خاصا لشخص لأسرع في إكماله حتى يستغل ما يدفع من الأموال .

انهيار قيمة العملة :

وينسى الذين ينهبون المال العام أو يهملون في رعايته أن الخطر سيمتد لهم فردا فردا في يوم من الأيام . وأن الكارثة ستشملهم جميعا عندما تنهار الثروة العامة ، والتاريخ يحدثنا عن بعض البلاد التي رزئت بذلك فألغت العملة نهائياً وضاع ثراء الناس جميعا ، ويحدثنا كذلك عن أن بعض البلاد التي خفضت قيمة العملة تخفيضاً هائلاً إذ أصدرت قراراً مفاجئاً بأن الورقة ذات الألف روبية تصبح قيمتها مائة فقط والورقة ذات الخمسمائة تصبح قيمتها خمسين ، وفي كثير من البلاد يبقى الجنيه جنيتها ولكن قيمته الشرائية تنهار فليس له إلا الاسم أما القيمة الحقيقية فقد تدهورت على الجميع .

الحرص على المال العام يؤدى للخير العام :

أما حراسة المال العام ورعايته فتعود بالخير على الجميع ، وحسبك أن تتذكر الصين التي استطاعت برعايتها للثروة القومية أن تحقق أرقى صور النجاح المادى والأدبى ، ولا تصرخ الصين من كثرة النسل ولا أن الانفجار السكانى سيأكل كل شيء ، بل يأكل الألف مليون نسمة في الصين ويبيعون فائضا لدول العالم ، ويلبس الألف مليون نسمة ويبيعون الملابس والأقمشة لأكثر أقطار الأرض ، ولا تكاد توجد معليات هنا وهناك إلا وهى من صنع الصين .

ولنتذكر أيضاً ألمانيا الغربية التي هوت إلى القاع ودُمِّرت تدميراً تاماً في الحرب العالمية الثانية ، ولكن أهلها لم يضيعوا وقتاً في النحيب وفي الحديث عن مراكز القوى التي دفعت بهم للهاوية ؛ بل راحوا في جدد دعوب يعملون في إعادة البناء وإعادة المصانع ، وكان العامل يعمل دون أجر إلا ما يسد به الرمق ، ورأى كل منهم المال العام مالا خاصاً له ، وبسرعة مذهلة سبقت ألمانيا دولاً كثيرة بأوروبا ، وأصبح النقد الألمانى أقوى النقود في العالم ثباتاً ورسوخاً .

بقى بعد هذا التصوير أن نعود للفكر الإسلامى ؛ لكلام الله ولأحاديث الرسول ، ولسيرة السلف الصالح لندرى الضوء الذى رسمته لنا هذه المصادر حتى إذا انحرفنا تحملنا مسئولية الانحراف فى الدنيا والآخرة .

القرآن وخيانة العهد بين الموظف والمجتمع :

وأول ما نقدمه من كلام الله هو قوله تعالى : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة . ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكّيهم ، ولهم عذاب أليم (١) » ولا شك أن الذين توكل لهم الأموال العامة يوجد بينهم وبين المجتمع عهد الله منطوقاً أو مفهوماً على الأمانة والرعاية ، فإذا خانوا هذا العهد كان لهم هذا الجزاء الأليم ، فهم لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولن يكلمهم الله إهمالاً واحتقاراً لهم ، ولن يستمتعوا بنظره إليهم ، ولن يطهّرهم ، ولهم عذاب أليم موجع ، وهكذا فرح هؤلاء بالفانى والرخيص وفقدوا الخالد والنفيس .

ثم نجيء إلى آيات التقوى ، والقرآن الكريم حافل بالحديث عن التقوى فهو يربطها بالإيمان تقديماً وتأخيراً يقول تعالى :

— ولو أنهم آمنوا واتقوا . . . (٢)

— إذا ما اتقوا وآمنوا . . . (٣)

ويقول مبيناً قيمة التقوى « ولكن البر من اتقى (٤) » .

ويقول موضعاً ألا عمل بدون التقوى : « إنما يتقبل الله من المتقين (٥) » ويوضح أن الذين يتقون ربهم هم الذين ينالون الجنة قال تعالى « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً (٦) » .

(١) سورة آل عمران ٧٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٣ .

(٣) سورة المائدة الآية ٩٦ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٨٩ .

(٥) سورة المائدة الآية ٣٠ .

(٦) سورة الزمر ص ٧٣ .

ويقول المفسرون عن التقوى : إنها مَلَكَ الأمر كُلُّهُ ، وهى تشمل الوفاء بالعهد ، والأمانة ، والتزام الحقوق واجتناب النواهي .
ومن المؤكد أن الذى يسلب المال العام أو يهمل فيه بعيد عن الوفاء بالعهد وعن الأمانة ، ولم يلتزم الحقوق ولا اجتناب النواهي .
الحديث الشريف وخيانة الأمانة :

ومن الواضح أن خيانة الأمانة أشد من السرقة ، فالناس يتخذون الوسائل المتعددة لحماية أنفسهم من اللصوص ، أما خائن الأمانة فكان قد أُوْتِمِنَ عليها ، والمال فى يده ، ولا رقابة عليه ، فجنايته لهذا المال جرم أشنع بكثير من السارق .

وإذا جئنا إلى أحاديث سيدنا رسول الله وجدنا ثروة هائلة من الفكر تصفع من خان المال العام أو أهمل فيه ، يقول صلى الله عليه وسلم :

— من انتهب فليس منا .

— لا إيمان لمن لا أمانة له .

— لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت .

— من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين .

— لا يغُلُّ (لا ينهب) أحدكم شيئاً إلا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه ؛
إن كان بعيراً جاء وله رغاء ، وإن كان بقرة جاء ولها خوار .

ويمكن أن نضيف : إن كان سيارة كتلك التى قدمت هدية من المال العام إلى رئيس مجلس الشعب فى يوم من الأيام ، فإنه يحجى يوم القيامة يحملها على عنقه ولها أزيز وأصوات تنبه الناس لينظروا إلى الرجل الذى لم يقنع بما ناله من مجد ، وتطلعت عينه إلى المزيد ولو كان من المال الجرام .

تعرف السلف الصالح :

ونذكر الآن لئلا نرى نماذج من أعمال السلف الصالح الذين انتفعوا بالفكر الإسلامى ووضعوه موضع التطبيق .

وأول من نتحدث عنهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فيروى أنه عقب اختياره خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول ، روى يحمل تجارته فى

طريقه إلى السوق ، فاعترضه من رآه من المسلمين وفيهم أبو عبيدة الذي قال له : إن التزاماتك الآن لا تُوفى مع التجارة . فسأل : وكيف أعيش وأطعم أهلي ؟ فتدبر الصحابة الأمر ، وفرضوا له من بيت المال كفايته لقوته وقوت عياله ، ولكن أبا بكر لم تطب نفسه لما أخذ من أموال المسلمين نظير تفرغه لمصالحهم ، فلما حضرته الوفاة نادى ابنته عائشة رضى الله عنها وقال لها : هناك أموال كنت أخذتها مرتباً من بيت المال ، ولكنى لم أنفق منها قليلاً ولا كثيراً ، وعشت على الكفاف من مدخرات قليلة كانت عندى ، فأعيدى هذه الأموال إلى بيت المال . فأعادتها .

يا الله ! ! ! إنا نضع هذا المثال أمام ولاية الأمر ، ولا نريد أبداً أن يفعلوا مثله ، ولكننا نريدهم أن يقنعوا ، ولتذكر ونحن نكتب هذه السطور بعض ولاية الأمور الذين تكالبوا ونهبوا المال العام ليركوا لأولادهم ثراء أغلب الظن أنه لن يجديهم نفعاً .

وإذا ذهبنا إلى سيرة عمر بن الخطاب وجدنا صورة رائعة لرعاية المال العام ، فيروى أن بعض الصحابة رأوه وهو يسقى إبل بيت المال ويرعى شئونها ، فقال له واحد منهم : يا أمير المؤمنين إن عبداً من العبيد يكفيك هذا الجهد . فأجاب عمر : يا هذا ، من أعبد للمسلمين منى ؟ وهكذا كان عمر يرى نفسه العبد الأول للمسلمين ، وليس السيد عليهم ، يرعى أموالهم بدون طمع فيها فهو يعطى من جهده وعقله ، ولا يحاول أن يأخذ شيئاً .

وهناك قصة شهيرة تقول إن عمر بجاءته برود فوزعها على المسلمين برداً برداً لكل منهم ، وأخذ هو أيضاً أحد هذه البرود ، وبعد أيام صعد المنبر وندب الناس للجهاد ، فوقف رجل وقال : لا سمعاً ولا طاعة . فسأله عمر : ولم ذاك ؟ قال الرجل : لأنك استأثرت علينا ، فلقد كان نصيبك من البرود برداً واحداً مثلنا ، وهو لا يكفيك ثوباً ، فكيف يبدو عليك سابعاً وأنت رجل طويل ؟ فالتفت عمر إلى ابنه وقال : أجبه يا عبد الله . فقال عبد الله : لقد أعطيته من بردى ما أتم به ثوبه . فقال الرجل لعمر : أما الآن فالسمع والطاعة وهكذا كان عمر يتعفف عن أموال المسلمين ، كما كان يسمح للناس

بمحاسبته علانية وفي جمهرة من الناس ، وكان يرى أن هذا حقهم فلم تأخذه العزة بالإثم .

وننتقل إلى نموذج آخر تختلف ظروفه عن أبي بكر وعمر ، ذلك هو عمر بن عبد العزيز ، وكان هذا غنياً مترفاً قبل أن يلي الخلافة ، فلما اختير خليفة تغير كل شيء فيه فقد أحس بالمسؤولية وخاف أن يكون في المال الذي يملكه شبهة فقدّمه كله إلى بيت المال ، ثم انشئ إلى زوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان فصاح بها قائلاً: إن الثروة التي تمتلكينها، والجواهر التي تترين بها لا تخلو من شبهة (كان أبوها خليفة وكان لها أخوان شغلا منصب الخلافة قبل زوجها) فلما أن تختاريني أو تختارى هذه الثروة وتلك الجواهر . فأجابت الزوجة الصالحة قائلة : أنت عندى أعز من كل شيء . وقدمت كل ما تملك إلى بيت المال .

ولنفذ إلى صلاح الدين الأيوبي بطل المسلمين في الحروب الصليبية ، ويروى أنه مع ما بذل من جهد وحقق من نجاح لم يخلف إلا سبعة وأربعين درهماً وقطعة واحدة من الذهب (١) ، كما لم يخلف داراً ولا عقاراً ، وكان يلومه بعد وزرائه لأنه لا يدخر شيئاً لأولاده ، فكان يجيبهم قائلاً : إن بقيت الديار لنا فلنا كل ما فيها ، وإن ضاعت منا ضاع ما يملكه كل فرد واستولى عليه العدو (٢). وهكذا لم يخلف هذا الرجل مالا ولكنه خلف كنوزاً من الأعمال الطيبة لا تزال تفوق كل تقدير في الشرق والغرب على السواء .

وسائل حماية المال العام :

وبعد ، إذا أردنا أن نتحاشى الاعتداء على المال العام نجدنا محتاجين إلى دعائم ثلاثة مهمة هي :

(١) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج ٨ ص ٩ .

(٢) شاهنشاه بن أيوب : ذيل النوادر ص ٣١٠ .

أولاً — حسن اختيار من يشرف على المال العام ومن يعمل فيه ، فعلى ولى الأمر أن يبذل أقصى الجهد ليختار لهذه الأعمال أعف الناس وأبعدهم عن الشراهة والأنانية ، وليتذكر ولى الأمر أنه مشغول عن كل اختلاس يقع نتيجة الإهمال فى حسن الاختيار ، أو نتيجة الإهمال فى المتابعة والمراقبة ، ولنتذكر قوله صلى الله عليه وسلم : من قلد رجلاً وهو يعلم أن فى جماعة المسلمين من هو أفضل منه لهذا العمل فقد خان الله وخان رسوله وخان جماعة المسلمين .

ثانياً — أن تكون عيون الشعب مفتوحة ، تتعرف على كل انحراف وتبلغ السلطة عنه دون هيبة أو وجل ، وعلى ولى الأمر أن يستجيب لكل تبليغ ، وأن يحقق ويدقق وينزل على المنحرف الذى خان الأمانة أقصى عقوبة فى أسرع وقت ممكن .

ثالثاً — يتحتم على الباحثين فى الدراسات الإسلامية أن يتجهوا ببحوثهم ومحاضراتهم إلى إبراز القيم الإنسانية ومحاسن الأخلاق ، وألا يقنعوا بالحديث عن العبادات فقط .

تلك لفتة سريعة عن حقوق المال العام نرجو أن تعيها العقول وأن تكون أسلوب العمل فى الحياة .

الأعياد

الأعياد ظاهرة اجتماعية عرفها البشر منذ عهد بعيد، وهي إحياء لمناسبات خاصة أو مناسبات عامة، ومن الأعياد الخاصة ما يحتفل به الناس في ذكرى ميلاد أو زواج أو نحوهما، أما الأعياد العامة فمنها ما يرتبط بشعائر دينية، أو مناسبات قومية، أو اجتماعية.

وفي الناحية الدينية توجد أعياد مرتبطة بأحداث بارزة ذات طابع ديني كعيد الفصح ويوم التكفير عند اليهود، وعيد الإشراق وعيد الدعوة عند البوذيين، وعيد الميلاد وعيد القيامة عند المسيحيين، وكالأعياد الإسلامية الكثيرة التي سنتحدث عنها فيما بعد.

وفي الناحية القومية ترتبط الأعياد بأحداث تاريخية ذات طابع وطني، كعيد الجهاد وعيد الاستقلال وعيد الدستور.

وفي الناحية الاجتماعية ترتبط الأعياد بأحداث ذات أثر اجتماعي بارز كعيد الأسرة وعيد الحصاد وعيد الفيزان.

والأعياد فرصة للأفراد وللمجتمعات، يتخفف الناس فيها من العمل والتوكل وينطلقون في المباحج والملاذ بدرجات مختلفة، وتكون فرصة المرح أعمق وأوسع للصبيان والأطفال.

الإسلام والأعياد :

والإسلام أقر مبدأ الأعياد ورسم لمعتقيه الطريق للحفاوة بها والسعادة فيها، دون أن يطلق الغرائز لإظهار يعود بالضرر على الناس، أو يكبتها كبتاً يؤدي إلى الانفجار، كما أن الإسلام اتجه بالأعياد اتجاهاً يسمح للفرد بالمتعة الحلال، ويغري أن تتسع دائرة المتعة بالعيد، فتشمل أكبر عدد ممكن من المسلمين أو تشمل المسلمين جميعاً.

عيد الفطر وعيد الأضحى :

وفي الإسلام عيدان رئيسيان سن الرسول صلى الله عليه وسلم الحفاوة بهما ورسم طريق هذه الحفاوة، وهذان العيدان هما عيد الفطر وعيد

الأضحى ، فقد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وجد
للأنصار يومين يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ؟ قالوا : يومان كنا
نلعب فيهما في الجاهلية . فقال : قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما ، يوم الفطر
ويوم الأضحى .

وعيد الفطر يرتبط بالسرور الذى يحصل عليه المسلم وقد استطاع
أن يلبي أمر ربه بصيام شهر رمضان . فهو يفرح بأن كملت له هذه
النعمة ، وتمت له هذه البغاية ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه
وسلم (للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه) ، فهو فى
عيد الفطر يواجه الفرحة الأولى ويعيش فيها ، إنه أفطر بعد صوم طويل
قام به لرضا الله ، صابراً شاكراً ، وقد انتصر ثلاثين يوماً على نفسه
وشهواته ، ملتصقاً بثوبة ربه .

أما عيد الأضحى فهو اليوم الذى سماه الله فى كتابه الكريم يوم الحج
الأكبر قال تعالى : « وأذان من الله ورسوله يوم الحج الأكبر أن الله
برىء من المشركين ورسولُهُ » (١) ، وفى هذا اليوم تلتقى جموع من
المسلمين من كل حدب وصوب فى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ،
فرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ويقوم الناس كذلك فى مختلف
الأقطار والأصقاع بالتهليل والتكبير ، فيتجاوب الصدى فى كل مكان ،
وتهتز به الرياح فى جميع البلدان ، وجدير بهذا اليوم أن يكون موضع حفاوة
المسلمين وسرورهم ، ثم إن هذا اليوم يذكرنا بيوم التضحية والفداء ،
يوم أن استجاب إبراهيم للرؤيا التى هتفت به أن يذبح ابنه ، واستجاب
إسماعيل لرغبة أبيه ، وقال له : « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله
من الصابرين » (٢) ، ولا شك أن هذه أسباب قوية تجعل من هذين اليومين
عيدين عظيمين للمسلمين .

وبالإضافة إلى هذين العيدين ، هناك مناسبات عظيمة أحيها الرسول
بالعبادة والورع ، وحلها حدوة المسلمون فى إحيائها ، وبمرور الزمن أصبحت

(١) سورة التوبة الآية الثالثة .

(٢) سورة الصافات الآية ١٠٢ .

هذه الليالي أعياداً ، اتجه الناس إلى الخفاوة بها ، وذلك كليلة القدر و ليلة النصف من شعبان ، وهاتان المناسبتان تحتاجان لدراسة مهمة سنقدمها بعد قليل ، ولكننا الآن نمرُّ مروراً سريعاً على مناسبات أخرى وجدت صوراً من العناية عند غالبية المسلمين ، أو عند بعضهم :

الإسراء والمعراج (*) :

قبل الهجرة بعام حدث حادث روع مكة وأثار بها عاصفة شديدة ، فقد أصبح محمد في يوم من أيام شهر رجب (على أصح الأقوال) يحدث الناس بأنه أُسرى به إلى المسجد الحرام ثم أُعرج به إلى السماء وعاد من ليلته ، وقد ظنت قريش أن هذا القول نوع من أنواع المبالغة الجارفة التي ستبعد عن محمد أكثر أتباعه ، ولكن ظنهم خاب وثبت على الإيمان أصحاب الإيمان ، وكان هذا الحادث درجة من درجات التكريم لصاحب الرسالة ، وكان كذلك اختباراً لإيمان أتباعه ، للتأكد من احتمالهم للتضحيات العظيمة التي سيتعرضون لها بالهجرة عن الأهل والوطن ، التي كانت على وشك الحدوث .

وتذكر الناس حادث الإسراء والمعراج ، وعاماً بعد عام ، أصبح السابع والعشرون من رجب — وهو التاريخ المرجح للإسراء والمعراج — عيداً من الأعياد عند الكثيرين .

الهجرة للمدينة :

وكانت هجرة الرسول مطلع خير وبركة على الإسلام ، فقد انتصر الإسلام بالهجرة على أعدائه وأخذ طريقه إلى الازدهار والانتشار ، وقد احتفل المسلمون بيوم الهجرة وجعلوه منذ عهد الرسول يوماً يُتَوَرَّخ به الأحداث لشدة عناية المسلمين بهذا اليوم ، جرياً على عادة العرب الذين كانوا يؤرخون بالأحداث العظمى ، وفي عهد عمر ثبت رضي الله عنه الهجرة لتكون مبدأ للتأريخ عند المسلمين ، بحيث لا يترك التأريخ بها إلى حادث عظيم آخر قد يحىء بعد ذلك (١) ، وعاماً بعد عام أصبحت الهجرة

(*) الجزء رقم (٣) من « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » مخصص للحديث عن الإسراء والمعراج وبه معلومات مهمة ، فليطلع عليه من يريد دراسة وافية عن هذين الموضوعين .

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ١ (الطبعة الثانية عشر)

(١١ — الحياة الاجتماعية)

عيداً يحتفى به المسلمون ، ويدكرون فيه كيف تخطى الإسلام عقبات الظلم ووصل إلى ساحة الأمان ..

غزوة بدر :

وفي السنة الثانية للهجرة حدثت غزوة بدر ، وثبتت بها قدم المسلمين بعد انتصارهم على عدوهم في ميدان الكفاح ، وسمى المسلمون كل من حضر هذه الغزوة « بدرياً » وتذكروا هذا اليوم المجيد وما تم فيه ، وعاماً بعد عام أصبح يوم بدر عيداً يحتفل به المسلمون في كثير من البلاد الإسلامية ، يتذكرون فيه البطولات الرائعة التي برزت في ذلك اليوم ، ويمجدون الأبطال الذين واجهوا تحدى قريش لهم ، وأنزلوا بهم أفدح هزيمة ، ويقول المؤرخون ، إنه بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر ثبت أمرهم ، وما ضرهم أن هزموا بعد ذلك في أية غزوة ، فقد رسخت أقدامهم بالانتصار الذي أحرزوه في غزوة بدر (١) .

أعياد ابتكرها الفكر الفاطمي :

وفي عهد قيام الدولة الفاطمية بمصر اهتم الفاطميون بأن يقووا الدعوة الفاطمية في نفوس أتباعهم ، وأن يعملوا على كسب أتباع جدد بين الحين والحين ، واقترحوا لذلك مناسبات متعددة يحتفلون بها ، حيث تجرى في هذه الاحتفالات رسوم ونظم تجدد الدعوة وتقربها إلى القلوب ، فكانوا يحتفلون بستة موالد : (مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد علي ، ومولد فاطمة ، ومولد الحسين ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر) وكانوا يحتفلون كذلك بمناسبة رأس السنة الهجرية وعاشوراء وعيد الفطر وعيد الأضحى وعيد الغدير ونحوها ، مما وُزِعَ خلال العام حتى تتجدد الذكرى ، وتظل العقائد الفاطمية حاضرة في الأذهان .

وهكذا عرف المصريون والسوريون هذه الأعياد خلال العهد الفاطمي ، ولكن كثيراً منها توقف الاحتفال به ، ولم يعد من المظاهر الاجتماعية ،

(١) المرجع السابق .

ومن الأعياد التي توقفت بمصر تماماً الاحتفال بمولد الإمام علي كرم الله وجهه ، ومولد السيدة فاطمة ومولد الحسن والحسين (١) وعيد الغدير .

ولا يجرى الاحتفال بالأعياد السابقة على نسق واحد، فبعضها مناسبات تاريخية تجري الحفاوة بها بذكر هذه الأحداث والاتعاظ بها عن طريق الخطب والاجتماعات وذلك كالإسراء والمعراج، والهجرة وغزوة بدر وقد سبق أن ألمنا بها، ولسنا نرى مانعاً من إحياء هذه الذكريات والاتعاظ بها على هذا النحو، دون إسراف في المظهر ودون إسراف فيما يلقى من كلمات تضيف أحياناً على الحادث التاريخي كثيراً من الخرافات التي لا أصل لها في الفكر الإسلامي، وقد عشت عدة سنوات في الشرق الأقصى واشتركت في الاحتفال بالإسراء والهجرة وغزوة بدر على النحو السليم، وكنت أحس بعمق الأثر الذي تركه هذه الاحتفالات في نفوس الناس .

ميلاد الرسول صلوات الله عليه :

وميلاد الرسول عيد من الأعياد المهمة عند أكثر المسلمين الآن، إنهم يتذكرون في هذا اليوم مولد الرجل الذي قُدِّرَ له أن يرسم للبشرية طريق النجاح ، وقد كان الرسول يصوم يوم الاثنين غالباً ، فسئل عن سبب حرصه على ذلك، فأجاب : «ذاك يوم وُلِدْتُ فيه» ويمكن أن يتخذ هذا الحديث تعليماً للمسلمين ، وبياناً للطريق السليم للاحتفال بميلاد الرسول ، بأن يكون ذلك بمزيد من العبادة والإحسان، ويتخذ هذا العيد الآن ألواناً من الاستعدادات لا توجد في الحفاوة بالإسراء أو الهجرة أو غزوة بدر ، وذلك لأنه قمة أعياد الميلاد التي ابتكرها الفكر الفاطمي ، وكانت الحلوى تهدي فيها بسخاء ، وقد بقي الاحتفال بعيد مولد الرسول حتى الآن يحمل العادات الفاطمية ، ويتجه

(١) تحتفل القاهرة بمولد الإمام الحسين ومولد السيدة زينب وسيرد حديثنا عنهما عند كلامنا عن الموالد فذاك بهما أجدر ، لأن الحفاوة بهما محلية ، ولذلك فالذين يريدون المشاركة فيهما يهرعون إلى ساحة صاحب المولد ، وذلك بخلاف « الأعياد » الأخرى فإن الناس يحتفلون بها في كل مكان .

كثير من الباحثين المسلمين إلى اعتبار هذه الحلوى لوناً من إدخال السرور وإشاعة البهجة في نفوس الأطفال بوجه خاص وليس هناك ما يمنع من ذلك ، ما دام هذا لا يكلف الناس ما يشق عليهم أو يدفعهم إلى الحرج .

وناحية أخرى ينبغي أن نشير لها ونحن نتحدث عن ميلاد الرسول ، هي أن ما يسمى « المولد » الذي يقرأه بعض الشيوخ فيه حشو لا يليق بهذه المناسبة الكبرى ولا يتفق مع ما دونه التاريخ من سيرة الرسول العظيم ، ولذلك ينبغي تنقية قصة « المولد » من هذا الهراء ، وأن يكثر المتحدثون القول في النشأة الطيبة التي نشأها الرسول غير متأثر في صباه وشبابه بما شاع من انحراف بين الصبية والشبان ، ويكثر القول كذلك في محمد النبي ، وكيف وقف وحده يدعو الناس حتى انضم له أفراد قلائل في مكة ، فصمد بهم في وجه قوة عاتية ، وظل في صموده وصراعه حتى كتب له النصر .

ونعود الآن للحديث عن أعياد ثلاثة شهيرة هي نصف شعبان وليلة القدر وعاشوراء ، فقد تعرضت هذه الأعياد إلى موجة من الانحرافات أوشكت أن تشوه جمالها ، وأن تنحرف بها عن وضعها السليم ، وفيما يلي كلمة عن كل من هذه الأعياد :

نصف شعبان :

وزدت أحاديث صحيحة تذكر فضل شهر شعبان ، ففيه يتهيأ الإنسان لاستقبال رمضان والصوم فيه ، وقد نسل الرسول ، أي الصوم أفضل بعد رمضان ؟ فقال : شعبان . أما عن ليلة النصف من شعبان ، فقد وردت عنها أحاديث مهمة نقتبس منها الحديث التالي ، عن عائشة قالت : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضع عنه ثوبيه ، ثم لم يستم (أي لم يلبث) أن قام فلبسهما ، فأخذتني غسيرة شديدة ، إذ ظننت أنه يأتي بعض صويحباتي ، فخرجت أتبعه ، فأدركته بالبقيع يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء ، فدخلت حجرتي ، ولى نفس عال ، ولحقني رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال : ما هذا النفس يا عائشة ؟ قلت : بأبي وأمي أتيتني فوضعت عنك ثوبيك ، ثم لم تستم أن قت فلبستهما ، فأخذتني غيرة شديدة ، ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي ، حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع ، فقال : يا عائشة : أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله ، أتاني جبريل عليه السلام ، فقال : هذه ليلة النصف من شعبان ، ولله فيها عتقاء من النار ، بعدد شعور غنم « كَلْب » لا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا إلى مُشَاحِنٍ ، ولا إلى قاطع رحم ، ولا إلى عاق لوالديه ، ولا إلى مدمن الخمر . وتستمر عائشة قائلة ثم وضع الرسول عنه ثوبيه فقال لي : يا عائشة تأذنين لي في قيام هذه الليلة ؟ قلت : نعم ، بأبي وأمي ، فقام فسجد وقتاً طويلاً ، حتى ظننت أنه قد قبض روحه ، فقامت أتمسه ، ووضعت يدي على باطن قدميه ، فتحرك ففرحت ، وسمعت وأنا قريبة منه يقول في سجوده : أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من معاقبتك ، وأعوذ بك منك ، جل وجهك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . فلما أصبح ذكرتهن له ، فقال : يا عائشة تعلمين ؟ فقلت : نعم ، فقال : تعلمين وعلمين فإن جبريل عليه السلام علمنيهن ، وأمرني أن أرددهن في السجود .

أسباب تعظيم ليلة النصف من شعبان :

ويرى بعض الباحثين أن من أسباب تعظيم ليك النصف من شعبان أن في هذه الليلة عاد المسلمون ليتجهوا في صلاتهم إلى الكعبة بعد أن اتجهوا إلى بيت المقدس حوالي سبعة عشر شهراً ، وقد روى الإمام القرطبي في تفسيره أن الله أمر محمدا صلى الله عليه وسلم باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان ، وقد كان تحول المسلمين إلى الكعبة حدثاً هاماً للغاية ، فقد كان الرسول يتطلع إلى الله في صمت ودون دعاء آملاً أن يأذن الله له في العودة للكعبة إرضاء للمسلمين الذين كان هواهم في ذلك ، ورذاً على سخرية اليهود الذين كانوا يقولون : محمد لا يتبع ديننا ويتبع قبلتنا . وقد صور القرآن الكريم أحاسيس الرسول بقوله « قد نرى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » (١) .

(١) سورة البقرة الآية ١٤٤ .

... ولهذا السبب أو ذاك اعتاد كثير من الناس أن يحيو ليلة النصف من شعبان بالعبادة والدعاء ، غير أن العصور المتأخرة انحرفت بهذا الاتجاه ، واتجهت بالجماهير إلى صلوات معينة وأدعية خاصة بين المغرب والعشاء في هذه الليلة بحجة أن الأعمار والأزراق تقدّر فيها ، وبحجة أن القرآن نزل فيها ، معتقدين أنها المقصودة في قوله تعالى « إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين » (١) .

وقد أفاض العلماء في رد هذا الانحراف ولنقتبس رد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذي يقول : أما ما يقوله الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة النصف من شعبان ، وأن الأمور التي تفرق فيها هي الأزراق والأعمار ، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك في ليلة القدر ، فهو من الجرأة على الكلام في الغيب بغير حجة قاطعة ، وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشيء من ذلك ما لم يرد به خبر متواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومثل ذلك لم يرد ، لاضطراب الروايات وضعف أغلبها ، وكذب الكثير منها ، ومثلها لا يصح الأخذ به في باب العقائد (٢) .

وقد أبان فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت في منطق واضح أن الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن الكريم هي إحدى ليالي شهر رمضان ، وقد أخذ فضيلته ذلك من الآيات القرآنية نفسها ، وفيما يلي عبارته :

قال تعالى في أول سورة الدخان « إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا ، إنا كنا مرسلين ، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » (٣) وهذه إحدى آيات ثلاث تحدثت عن إنزال القرآن وعن الزمن الذي أنزل فيه ، والآية الثانية هي « إنا أنزلناه

(١) سورة الدخان الآية الثالثة .

(٢) الأستاذ الإمام : تفسير سورة القدر (من تفسير جزء عم) .

(٣) سورة الدخان الآيات ٣ - ٦ .

في ليلة القدر « (١) والآية الثالثة هي « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » (٢) وهدف الآيات الثلاث، تأكيد أن القرآن ليس من صنع محمد وأنه نزل إليه من عند الله وقد وصفت الآية الأولى ليلة نزول القرآن بأنها مباركة ووصفتها الآية الثانية بأنها ليلة القدر أي الشرف وعلو المكانة ، وبينت الآية الثالثة أن شهر تلك الليلة هو شهر رمضان (٣) .

وعلى هذا فنحن ندعو المسلمين إلى العودة عن هذا الانحراف وهذا الاعتقاد الذي ليس له أساس صحيح ، وليكن الاحتفال بهذه الليلة سائراً في المجال الذي وضعه الرسول العظيم من عبادة وصلاة ودعاء وقيام ، فهذه الأشياء إن حسنت في كل وقت ، فهي في هذه المناسبة أحسن وأشد قبولاً . وقد أورد ابن ماجة حديثاً من رواية ابن أبي سبرة ولعله من الأحاديث التي قادت إلى الانحراف الذي وصفناه آنفاً ، ولهذا لا نذكره هنا ، وقد علق عليه ابن ماجة بقوله : إسناده ضعيف لضعف ابن سبرة ، قال فيه أحمد ابن حنبل وابن معين : إنه يضع الأحاديث . فليسير المسلمون في الطريق القويم الذي لا ظلام فيه ولا اضطراب .

ليلة القدر :

ذكرنا آنفاً الآيات الكريمة التي تقرر أن القرآن نزل في ليلة القدر ، ويميل أكثر العلماء إلى أن نزوله في ليلة القدر يعني بدء نزوله فيها على النبي صلى الله عليه وسلم ، أي أن الآيات الأولى من سورة العلق « اقرأ باسم ربك الذي خلق . . . » نزلت في هذه الليلة .

والقدر معناه الشرف ، وليلة القدر معناها : ليلة الشرف والبركة ، أي الليلة التي حصل لها الشرف بأن أنزل القرآن فيها ، وجدير بليلة ينزل فيها هذا

(١) سورة القدر الآية الأولى .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٣) الفتاوى ص ١٨٨ - ١٨٩ .

الذكر الحكيم أن توصف بالشرف والجلال ، وقد أظهر الذكر الحكيم شرفها بالآيات التي تصور عظمتها وجلالها ، قال تعالى : « وما أدراك ما ليلة القدر ؟ ليلة القدر خير من ألف شهر » ، كما صور الذكر الحكيم أن عالم الملائكة يشترك مع عالم الإنس في الفرح بهذه الليلة والسرور بها ، قال تعالى : « تنزل الملائكة والروح (جبريل) فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر » (١) ومصدر الفرح أن هذه الليلة هي التي نزل فيها الهدى من السماء إلى سكان الأرض ، وما ترتب على ذلك من نزول الملائكة ، أو لما ينزل فيها من البركة والرحمة والمغفرة (٢) ، وعلى هذا فالقدر صفة لليلة وليس اسماً لها ، وليست ليلة القدر معروفة معرفة دقيقة بين ليالي شهر رمضان ، وقد ورد عن الرسول قوله : إني أريت ليلة القدر ثم أنسيها فالتسوها في العشر الأواخر ، في الوتر (٣) . وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يفسح الطريق للمسلمين في العبادة ، وأن يحثهم على إحياء شهر رمضان كله وعلى مزيد من العبادة في العشر الأواخر بدل أن يركزوا عبادتهم في ليلة منه ، لو حددت الليلة التي حظيت بهذا الشرف والقدر .

تلك هي ليلة القدر ، بيد أن الانحراف مسّ هذه الليلة كما حصل مع ليلة النصف من شعبان ، فقد اعتقد بعض الناس أن القدر معناه الحظ أو النصيب ، واتجهوا إلى أن هذه الليلة قد تحقّق لهم حظاً أوفر في حياتهم ، وهكذا راح هذا الاتجاه في ماديته يلعب بالناس وينحرف بهم عن الطريق الصواب ، فتصوروا أن « طاقة القدر » تظهر لبعضهم فيستجاب دعاؤه ، فراحوا يلمسون هذه « الطاقة » ويعدون سلاسل للدعوات لتحقيق لهم . . . وتمر السنين تلو السنين ولا يرى أحد « طاقة القدر » ولكن الشائعات هي هي ، ويغتنى كثير من الناس ويفتقر آخرون ، ويسعد أناس ويشقى آخرون بدون « طاقة القدر » ، ولكن الكسالى لا يريدون أن يعملوا ولا أن يكدحوا ،

(١) سورة القدر الآيتان ٤ - ٥ .

(٢) الشوكاني : نيل الأوطار ج ٤ ص ١٥٢ .

(٣) ابن ماجه وانظر كلام ابن حزم في تحديدها في المحلى ج ٧ ص ٣٣ .

ولأنما يترقبون « الطاقة » لتهب لهم كل شيء دون أن يُقدّموا شيئاً ، والله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها قال تعالى ، « . . فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » (١) وقال « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » (٢) .

وإذا تركنا هؤلاء الذين اتجهوا اتجاهاً مادياً ويريدون أن تتحقق آمالهم بدعوات يطلقونها في ليلة القدر ، فإننا نتجه إلى تصحيح الوضع المذكّر من المسلمين بأن الله دائماً قريب من الداعين وطالما استجاب لهم وحقق آمالهم الطيبة ، قال تعالى « إني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان » (٣) وقال تعالى : « ادعوني أستجب لكم » (٤) ، على أننا في هذا المجال نحث الداعي ألا يكون مادياً ، وألا يتجه بدعواته إلى تحقيق المال أو عتاد الدنيا ، فطالما شقى بالمال كثيرون ، إننا ينبغي أن ندعو الله أن يهبنا التوفيق والرعاية والستر وغيرها من الدعوات التي تنفع في الدنيا والآخرة .

أما الطريق الصحيح لإحياء ليلة القدر فقد رسمته لنا الأحاديث الشريفة ، وفيما يلي بعض هذه الأحاديث :

— عن عائشة قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخلت العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل وشد المنزر وأيقظ أهله .

وهذا معناه غاية الجهد في العبادة ، والانخراط فيها ، والحماسة من أجلها ، ودعوة الأهل للأخذ بنصيب منها ، ويضيف الشوكاني إلى ذلك اعتزال النساء (٥) .

— وعن عائشة أيضاً قالت : كان النبي يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيرها .

(١) سورة الجمعة الآية العاشرة .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٥ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

(٤) سورة غافر الآية ٦٠ .

(٥) نيل الأوطار ج ٤ ص ١٥٢ .

— من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

وعلى هذا فليلة القدر عيد يجب أن يفرح به المسلمون ، ففي هذه الليلة نزل لهم القرآن الذى فيه هداهم وفيه الخير لهم ، والاحتفال بذلك العيد ، ينبغى أن يكون على ذلك النمط الذى وصفه نبي الإسلام صلوات الله عليه .

عاشوراء :

هو يوم العاشر من المحرم ، وهنالك أقوال كثيرة حول سبب صومه والاحتفال به ، فقد رأى بعضهم أنه فى هذا اليوم تاب الله على آدم عليه السلام ، تلك التوبة التى نزل فيها قوله تعالى « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهانى » (طه ١٢١) .

وهناك رأى يرى أنه فى هذا اليوم استقرت سفينة نوح ، وآخر يرى أن فيه نجاة إبراهيم من النار التى أعدها له قومه ، وثالث أن فيه رُدَّ إلى يعقوب بصره . . .

وليس لدينا دليل قوى يرجح هذه الآراء أو بعضها .

والذى نراه أن يوم عاشوراء كان يوماً معظماً فى الجاهلية ، وكان كثير من العرب يصومونه اعترافاً بهذا التعظيم ، لوقوعه فى شهر المحرم وهو من الأشهر الحرم ، ولأن الصيام كان مظهراً قديماً للإجلال والعبادة عند الكثيرين مما دل عليه قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » (البقرة ١٨٣)

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كانت قريش تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ، وكان الرسول يصومه ، فلما فرض رمضان قال عليه السلام عن هذا اليوم : من أحب أن يصومه فليصمه ، ومن كرهه فليدعه .

وعن ابن عباس أن الرسول صلوات الله عليه كان يتحرى صيام عاشوراء ، ولعل ذلك راجع لتوجيهاته عليه السلام فى الصوم حيث قال :

صم شهر الصبر (يعنى رمضان) ويوماً من كل شهر . فكان الرسول يختار ذلك اليوم من شهر المحرم إذ كانت قريش تصومه قبل الإسلام ، وكان الرسول يصومه للقربى إلى الله .

عاشوراء واليهود :

وهناك رواية تقول إن اليهود كانوا يصومون ذلك اليوم لأنه اليوم الذى نجى الله فيه موسى من فرعون ، أو لأنه اليوم الذى كلم الله فيه موسى تكليماً وتقول الرواية إن الرسول صلوات الله عليه لما سمع هذا القول قال : نحن أولى بموسى منهم ، وصام عاشوراء تبعاً لذلك .

ولست أقبل هذه الرواية التى ترى أن الرسول اتبع اليهود فى صوم عاشوراء ، فعنا حديث شريف رواه أحمد ينص على مخالفة اليهود ، وليس على اتباعهم ، وهذا الحديث هو : صوموا عاشوراء وخالفوا اليهود ؛ صوموا يوماً قبله ويوماً بعده .

وهناك حديث آخر يتجه هذا الاتجاه وهو : إذا كان العام المقبل صمنا معه اليوم التاسع .

وهكذا نجدنا أمام يوم مفضل ، صامه الرسول قبل الإسلام مع قريش ، فهو قربى إلى الله يتقرب بها الناس إليه سبحانه وتعالى وصامه بعد الإسلام ، وصام معه يوماً قبله ويوماً بعده حتى لا يتشبه باليهود .

بل وصل ترغيب الرسول فى صوم عاشوراء أن أمر مرة رجلاً من «أسلم» يوم عاشوراء قائلاً : أذن فى الناس أن من كان قد أكل فليصم بقية يومه ، ومن لم يكن أكل فليصم ، فإن اليوم يوم عاشوراء .

أى من أكل فليمسك بقية يومه لحرمته ذلك اليوم ، ومن لم يكن قد أكل فليصم .

أحداث تاريخية في يوم عاشوراء :

ذلك هو يوم عاشوراء ، يندب الحرص على صومه ، وتندب العبادة فيه ، بسيد أن يوم عاشوراء حدثت به أحداث عظام جعلت له في التاريخ شأنًا آخر ، ففي هذا اليوم من سنة ٦١ هـ قتل الحسين بن علي رضي الله عنه بكر بلاء على يد جيوش يزيد بن معاوية ، فجعل الشيعة هذا اليوم مناسبة حزينة باكية ، ولما بدأ عهد الفاطميين بمصر ، وأخذوا ينظمون أعيادهم ومناسبات الذكريات الهامة عندهم جعلوا يوم عاشوراء يوم حزن ، فكانت تتعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى جامع القاهرة وينزلون فيه بين النوح والنشيد، وكان الخليفة يجلس في ذلك اليوم على الأرض متلثمًا يسرى به الحزن كما كان القاضي والدعاة والأشراف والأمراء يظهرون بغير مناديل وهم ملثّمون حفاة ، ويعمل في ذلك اليوم السباط (المائدة) العظيم المسمى سباط الحزن ، ويتكون الطعام الذي يقدم عليه في ذلك اليوم من العدس الأسود والملوحات والمخللات والأجبان ونخز الشعير المغير لونه قصداً ، وكان الشعراء ينشدون في هذه المناسبة شعراً يرثون به أهل البيت عليهم السلام ، وينحّون باللائمة على من غصب الخلافة من أصحابها الحقيقيين ، ثم يذكر قصصهم ما رواه أصحابهم من أن السماء لما قتل الحسين بكى عليه ، وأنه لم يُقلب حجر من أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين إلا وجِدَ تحته دم ، وأن الدنيا أظلمت يوم قُتلَ ، ولم يمَس أحد شيئاً من زعفران فيجعله على وجهه إلا احترق ، وأن الأمويين أصابوا إبلاً في عسكر الحسين فنحروها وطبخوها فصارت مثل العلقم فما استطاعوا أن يسيغوا منها شيئاً (١) .

ولما جاء الأيوبيون بعد الفاطميين اتجهوا إلى انتزاع الأفكار الفاطمية من أذهان الناس ، وربما ذهبوا في هذا الاتجاه إلى نوع من المبالغة فأصبح يوم عاشوراء عيداً من أعياد البهجة والسرور ، تلبّح فيه الدبائح وتكثر فيه الأطعمة الطيبة .

(١) الخطط ١ : ٤٣ - ٤٣٢ ، ٤٩٠ .

أما العراق فلا يزال اتجاه الشيعة به على نحو ما كان عليه الفاطميون أو يزيد ، وقد عشت معهم هذا الموسم من مطلع النصف الثاني من هذا القرن (القرن العشرين) ورأيت جموعهم تتقاطر على النجف وكربلاء ينشدون الأناشيد الحزينة ويضربون صدورهم بالأكف حتى تسيل منها الدماء ، وبعضهم يستعمل السلاح في ضرب نفسه ، ويقصدون بذلك اختلاط دماهم بالتربة التي اختلطت بدم الحسين ، كما يقصدون تطهير أنفسهم والتكفير عن أجدادهم الأقدمين الذين خذلوا الحسين رضوان الله عليه ، وهو يحاول أن يصارع بنى أمية .

ونحن - كما فعلنا من قبل - ندعو المسلمين من جميع الأطراف إلى العودة للفكر الإسلامى الصحيح ، فلم يعد بين المسلمين فيما أعتقد من يفرح بقتل الحسين ، كما أن إسالة الدماء للأغراض التي سبق أن ذكرناها تصرف يبدو بعيداً عن الحكمة ، فليصم المسلمون هذا اليوم ، وليفسحوا على أسرهم فيه إن شاعوا ، فكل ذلك شيء لا يتعارض مع الفكر الإسلامى ، بل يبدو محبباً إليه ما دام لمجرد التوسعة ، ولا بأس أن يذكروا بالخير جماعة المناضلين الذين ضحوا بأنفسهم من أجل مبادئ دانوا بها واعتقدوها .

حكمة العيد ومظاهره :

والآن بعد هذه الجولة الطويلة التي ابتدأت بالعيدين الرئيسيين للمسلمين عيد الفطر وعيد الأضحى ، ثم استمرت تذكر الأعياد المختلفة التي تواضع المسلمون عليها بعد الصدر الأول للإسلام ، نعود إلى حديث مهم عن المظاهر التي ينبغى أن يؤخذ بها ، والحكم التي ينبغى أن ينتفع بها في هذه المناسبات ، كما نتحدث عن عادات مردولة تسربت إلى الحياة ، مرتبطة بهذه الأعياد ، رجاء أن نُسبِعَ هذه العادات عن المظاهر الإسلامية ، ونرتفع بأعيادنا عن أمثالها .

وأول مظاهر الأعياد في التفكير الإسلامى هو العبادة والتقوى ، فقد سبق أن أوردنا الأحاديث الكثيرة في المناسبات المختلفة لهذه الأعياد ، ويقول

صلى الله عليه وسلم في عيدى الفطر والأضحى : من قام ليلتي العيدين محتسباً لله لم يمت قلبه يوم تموت القلوب . وشرع الإسلام أن يفتتح المسلمون يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى بصلاة خاصة بالعيد ، فيها شكر وذكر ودعاء ، وفيها ألفه وحب ولقاء .

وفي هذين العيدين بوجه خاص يظهر الناس وقد غمرهم الفرح والسرور ويلبس الصبيان والأطفال جديد الثياب ، فيبدون كالزهرات الياقة يتماوج بها الكون ويكثر الخير في البيوت ويعم البشر ، ويتزاور الناس مهتئين بعضهم البعض ، ولا يجد الإسلام مانعاً من التيسير على الأسر في طعامهم وشرابهم ولباسهم ، بل يبيح الإسلام اللهو البرىء والمتع الحلال ، فقد روى أن أبا بكر دخل بيت الرسول في يوم عيد فوجد عند عائشة جاريتين تغنيان مع شيء من العزف والموسيقى ، فصاح أبو بكر : أمراير الشيطان في بيت رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا ، وإن في ديننا فسحة ، وإني بعثت بخليفة سمحاء .

ولكن الإسلام لا يبارك أن يكون هناك ترف وملابس جديدة في بيت وجوع وأسما في بيت مجاور ، أو أن يكون هناك فرح وتزاور في ناحية وانزواء وعزلة عند آخرين ، ومن هنا يحث الإسلام أتباعه أن ينهزوا فرصة العيد ليجددوا حبهم وصفاءهم كما جددوا ملابسهم ، وليعطوا المحتاج مما أعطاهم الله ، وليصلوا المقطوع حتى يعم الفرح ، وليتناسوا هنات الماضي ومشاحنات الحياة ، ليهذوا بالعيد سعادة لاتنتهى بانتهاء يوم العيد ، وإنما تستمر بعده ، فالعيد فرصة للعودة للود بعد الخصام ، ولغسل النفوس كما غسلت الأجسام ، وللتعاطف والرحمة والعزاء والمواساة .

وقد حرص حكام المسلمين في عصورهم المختلفة على أن يجعلوا من العيد فرصة للعفو عن المذنبين ، وإطلاق بعض المساجين ، وإمداد المحتاجين بالمال والمساعدات كما حرص كثير منهم على الحفاوة بالعيدين حفاوة بالغة ، فقد كان يأنس الصقلي صاحب الشرطة في القاهرة ، يقدم أطباق الحلوى

للناس ويمد سماءاً إثر سماء للمحتاجين ، وكذلك كان يفعل علي بن سعد المحتسب ، أما الخلفاء فكانت تقام أسبعتهم في القصر ، وكان الخليفة يحضرها بنفسه ويفسح للناس من جميع الطبقات أن يحضروها (١) .

وكان كافور الإخشيدي يُخرج حمل بغل من الذهب في عيد الأضحى ، وكشوفاً بأسماء المحتاجين ، وينيب عنه من يمر على هؤلاء ويدق أبوابهم ، ويسلم كلا منهم نصيبه من هذه المنحة قائلا : الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدي يهنئك بالعيد ويقول لك : اصرف هذا في منفعتك (٢) .

وهكذا ينبغي أن يُحتفى بالأعياد على هذا النمط : متع حلال ، ولبس جديد ، وإفساح على الأولاد ، وبر وصدقة ، وعفو وتزاور ، وطالما كانت كذلك فهي تحقق الهدف الإسلامي منها ، ولكننا للأسف نلاحظ فيها كثيراً من الانحرافات فما بالك بالإسراف الذي نشهده في عيد الفطر مرتبطاً « بالكعك » ونفقاته التي تُثقل كثيراً من الأسر؟ وما بالك بالضحايا التي تذبح في عيد الأضحى وينكب عليها أصحابها ، غير متذكرين محتاجي ولا مسكينا، ويعملون من لحومها ألواناً لا تُثقل فقط على جيوبهم ولكنها تثقل أيضاً على أمعائهم؟ وما بالك بالتزاحم على القبور في صخب ومرح وبين الأطعمة الشهية ، أو — على العكس — في نواح وصراخ ، وتجديد للحزن ، في حين أبيحت زيارة القبور للذكرى والدعاء والصدقة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة ، وقال : النياحة من أمر الجاهلية . . . وما بالك بعيد يمر على المتخاصمين ويظلون في خصامهم؟ وما بالك بعيد لا يصل الإنسان فيه رَحْمَةً؟ وما بالك بعيد تسيطر الأنانية فيه على الفرد، فيعمل لنفسه أو لبيته ولا يفكر في الآخرين؟

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢١٧ وابن تغرى بردى ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ٥ ص ١٠٠ .

تلك عادات مردولة تقضى على أهداف العيد ، وتدمر الآمال التي يعقدها الفكر الإسلامى عليه ، فلنعد إلى شريعتنا السمحة ، وإلى مبادئها الطيبة ، نسترد بها ونحن نحى هذه الأعياد .

الأعياد الخاصة :

ذلك حديثنا عن الأعياد العامة ، وهناك حديث ينبغي أن نعقده هنا عن الأعياد الخاصة ، أى الأعياد الوطنية أو الأعياد العائلية ، ومن الأعياد الوطنية أعياد الأحداث الكبرى كالاستقلال ، والوحدة بعد التفرق ، والانتصار على الأعداء ، ومن الأعياد العائلية ما ذاع فى الأسر من الاحتفال بأعياد الزواج وأعياد الميلاد ، ولا نرى بأساً من المرح والسعادة فى مثل هذه المناسبات ، فالإسلام دين الحياة ، والمرح البرىء مأثور ومحبوب ، ولكن ينبغي ألا يكون اللهو وحده هو التذكار الذى يبرز فى المناسبات الجلادة ، ويتحتم على الناس أن يحتفلوا بالمناسبة فى مستوى قدرها ، فالاحتفال بالاستقلال يلزم أن يتجه أول ما يتجه إلى الأبطال والجنود الذين ضحوا بأنفسهم ليستقل الوطن ويحيا حياة العزة والكرامة ، فتعلن الدولة فى هذه المناسبة عن مشروعات لحماية أسر هؤلاء الأبطال ، وعلى الدولة كذلك أن تتخذ عيد الاستقلال نقطة تعلن فيها كل عام مشروعات تؤيد هذا الاستقلال وتحميه سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . وفى عيد الوحدة تخطو الدولة خطوات جديدة كل عام يكون هدفها مزيداً من الامتزاج والتقارب ، وفى مناسبة الانتصار على الأعداء تبرز الدولة تخطيطها الجديد لتقوية جيشها وتدريبه على أحدث الأسلحة ، بالإضافة إلى مدته بالجديد منها ، مع ملاحظة أن السلاح ليس شيئاً إذا لم تستعمله يد صنّاع كلها حكمة وخبرة وإيمان ، والعدو الذى نقهره اليوم قد يفوقنا غداً إذا ثملنا بالنصر وقصّرنا فى إعداد العدة .

وفى الأعياد العائلية ينبغي ألا يكون الطعام والشراب واللهو هو كل ما يشغل بال المحتفلين ، وهناك وسائل طيبة اقترحها الفكر السليم فكست هذه المناسبات جمالا وخلوداً ، فقد حضرت مرة عيد ميلاد أحد الأثرياء ، وكان

الحفل بسيطاً للغاية ، وعندما تكامل المدعوون أعلن الثرى أنه يضع ما كان قد رصده لهذا الحفل — وهو مبلغ كبير — أساساً لإنشاء مدرسة في الحى ، وقد دفع هذا بعض الحاضرين من أهل المنطقة الدفع تبرعات لاستكمال تكاليف بناء المدرسة ، وفي أعياد ميلاد بعض الأطفال ينبغي على أهل الطفل أن يسعدوا هدايا نافعة لعدد من الأطفال الفقراء الذين هم في محمّر ابنهم المحتفى بعيد ميلاده .

وهكذا تجدنا مع ميلنا للمرح وموافقتنا عليه ، نحب ألا يأخذ اللهو مالنا كله ، ولا جهدنا كله ، ونرى أن ندخر بعض المال والجهد للخير في هذه الأعياد ، وسنرى أن هذا أطول خلوداً وأنفع للفرد وللوطن .

الأفراح والموسيقى والغناء

إعلان الزواج :

يقرر التفكير الإسلامى ضرورة إعلان الزواج ، ويرى أن الإعلان هو الفرق بين الحلال الذى يتم^١ فى علانية ، وبين الحرام الذى يتم فى الخفاء ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : أعلنوا هذا النكاح واضربوا عليه بالغيربال ، ويقول أيضاً : فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت فى النكاح ، وكان عمر بن عبد العزيز يحث على الضرب بالدف فى الأفراح ويقول : إنه إعلان للزواج ، وذلك يفرق بين النكاح والسفاح (١) . ومن مظاهر الإعلان فى الزواج التى أبرزها التفكير الإسلامى الوليمة (٢) وهى الطعام الذى يُصنَّع بمناسبة العرس ويدعى له الناس ، والوليمة سنة مؤكدة فَيُسْنُ للرجل عند الدخول بالمرأة أن يولم بما تطيب به نفسه ويقدر عليه مثله ، فإذا كان يقدر على أن يذبح فإنه يسن ألا يقل ما يذبحه عن شاة ، لقوله عليه السلام لعبد الرحمن بن عوف « أولم ولو بشاة » فإذا لم يقدر فإنه يُكْتَفَى منه بما يستطيع ، فقد أولم الرسول صلى الله عليه وسلم على صفية بتمر وسويق .

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٩ .
(٢) الوليمة هى طعام العرس خاصة ولا تطلق على غيره إلا مجازاً ، أما الأطعمة الأخرى التى تصنع عند مناسبات السرور ، فلها أسماء أخرى مثل : الإملاك ، وهو الطعام الذى يصنع عند العقد على الزوجة ، والإعذار ، وهو الطعام الذى يصنع عند الختان ، والوكيرة وهو الطعام الذى يصنع^٢ بمناسبة بناء دار ، والعقيقة وهو الطعام الذى يصنع احتفالاً بمولود .

الوليمة

والوليمة تكون في أول يوم للزواج ، وجعلها الرسول في ذلك اليوم حقاً ، أما في اليوم الثاني فالطعام فيه سنة ، أما طعام اليوم الثالث فقد وصفه الرسول بأنه سمعة لا ينبغي الأخذ بها ، قال صلى الله عليه وسلم : طعام أول يوم حق وطعام الثاني سنة وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع ، سمع الله به .

والإجابة إلى وليمة العرس فرض عند أكثر الفقهاء ، ويرى أبو حنيفة أن الإجابة سنة مؤكدة ، ويرى الأكثرون أنه لا يحل لمن دعى إليها أن يتخلف عنها ، ما لم يكن هناك عذر يدعو للتخلف ، وإذا دعى وهو صائم فعليته أن يذهب إلى محل الوليمة ويخبر الداعي بأنه صائم ، ويدعو له ثم ينصرف ، فإن كان ذلك يشق على صاحب الوليمة ويؤلمه عدم الأكل . فإنه يستحب للمدعو أن يفطر إن كان الصيام نفلاً ، لأن ثواب إدخال السرور على أخيه المسلم أكبر من ثواب صيام التطوع ، أما إذا كان الصيام فرضاً ، فإنه لا يصح له الفطر على أى حال ، وفي بعض المذاهب أن الصائم لا يفطر بحال وأن عذره ينبغي أن يقبل (١) .

وأباح الفقهاء ألا يذهب المدعو إلى الوليمة إذا كان الداعي ظالماً أو فاسقاً أو كان ماله موضع شبهة ، أو كانت الوليمة مشتملة على معصية ، أو إذا كان للمدعو عذر شرعى ، أو لم يعينه الداعي بشخصه وإنما دعاه في جملة من الناس دون تحديده وتعيينه (٢) .

ويستحب للحاضرين أن يقدموا التهئة للداعي ، ويفضل في الدعاء النص الذى ورد في حديث أبي هريرة وهو : « بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما على خير » .

بقيت نقطة خطيرة تتعلق بمظاهر الأفراح ، ذلك هو ما نشاهده أحياناً

(١) الجزيرى : الفقه على المذاهب الأربعة ج ٢ ص ٣٩٠ .

(٢) تقي الدين أبو بكر : كفاية الأخبار ج ٢ ص ٦٣ .

من اتجاهات لا يقصد بها الإعلان وإحياء هذه المناسبات ، وإنما يقصد بها التظاهر ، إذ تتخطى الاحتفالات كل ما أرادته السنة وما أراده الشرع نحو إحياء هذه المناسبة ، فتصل الاحتفالات إلى درجة كبيرة من السرف والمبالغة ، ولا يقصد بها وجه الله ، وإنما يقصد بها أنواع من العجب أو الفخار لا تعود بالخير على الزوجين ولا على المجتمع ، ومثل هذه الولائم تناسى فيها أحكام الشرع ، فلا يدعى لها إلا طبقة خاصة من المجتمع ، ويحرم منها الفقراء والمحتاجون ، وتقدم بها ألوان من الأطعمة والأشربة تفوق حد الاعتدال بمراحل ، وطالما انهارت بيوت بسبب هذه الولائم ، بل إن التاريخ يحدثنا عن دول انهارت بأكملها بسبب حفلات الزواج ، ومن هذه الدول الدولة الطولونية بمصر ، فقد ركب خماروية رأسه وهو يزف ابنته قطر الندى إلى الخليفة العباسي المعتضد ، فأعد لها ما لم يُسر مثله ولم يسمع به من قبل ، وأقام الحفلات والمآداب الحافلة بالبلدخ والسرف ، وكانت الأميرة تظهر في هذه المآداب وقد أثقلها الحرير والماس . . وعلى الجملة فإن المؤرخين يقررون أن هذه النفقات الضخمة أثرت على ميزانية مصر ، وتركت خماروية في شدة وضيق ، وكانت من أسباب اضمحلال دولة الطولونيين ونهايتها (١) .

فلماذا ذكرنا أن الإسلام يحث على إحياء هذه المناسبة وإقامة الولائم فيها ، فإن روح الإسلام تقضى بالاعتدال ، كما تقضى بأن تتخذ هذه الفرصة وسيلة لإدخال الفرح والسرور على كثيرين من المحتاجين ، وعلى كثيرين ممن يحيطون بأصحاب هذه المناسبة ، فالفرح يتسع باتساع مَنْ يشتركون فيه ويقرحون به .

الموسيقى والغناء :

ومن لوازم الأفراح الموسيقى والغناء ، وفي الأحاديث التي سقناها من قبل كلام عن الدف والغربال والصوت في النكاح ، ومن هنا يتحتم أن نقول

(١) انظر نشوار المحاضرة للتوخى ، وموسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ٥ ص ٤١ - ٤٣ .

كلمة عن الموسيقى والغناء وعن حكم الشرع فيهما ، وينبغي أن نسوق هنا كلمة عن تاريخ الغناء والموسيقى ، قبل أن نتحدث عن حكم الشرع فيهما .

كلمة عن تاريخ الموسيقى والغناء :

والغناء طبيعة في النفوس لأنه لغة العواطف والقلوب ، ولكل أمة نوع من الغناء ، وكان الغناء عند العرب على ثلاثة أوجه ، النصب والسناد والهزج . أما النصب، فغناء الركبان والقينات ، وأما السناد فاللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ، وأما الهزج فهو الخفيف الذي يُرقص عليه ، ويصحبه الدف والمزمار فيشير الطرب والسرور ، وكانت هذه الأوجه من الغناء منتشرة في أمهات المدن العربية كالمدينة والطائف وخيبر ووادي القسري (١) .

أما آلات الموسيقى عند العرب فأشهرها الدف والمزمار ، وما تفرع عنهما من آلات النفخ والقرع .

وبعد الإسلام وعقب الفتوحات الإسلامية عرف العرب موسيقى الفرس وغناءهم ، ويقال إن دخول الغناء الفارسي إلى البلاد العربية كان عن طريق سعيد بن مسجح ، وهو من أبرز المغنين بمكة ، وكان قد سمع بها البنائين الفرس يغنون بالفارسية وهم يعيدون بناء الكعبة عندما استقدمهم عبد الله بن الزبير لذلك ، فاستطاع سعيد بن مسجح أن يقتبس غناءهم وطرقهم ، كما أن عبد الله بن سريج كان أول من صنع عوده علي نمط عتدان الفرس ، وكان قد رآه أيضاً مع المغنين الفرس ، فقال أنا أضرب به علي غنائي ، فضرب به فكان أحلق الناس ، ثم دخلت آلات الأوتار كالعتدان والطناير والمعازف إلى الفكر الغربي من الفكر الفارسي ، ويقولون إن أصل الغناء أربعة : مكِّيَّان ومدنيَّان ، فالمكيان ابن سريج وابن محرر والمدنيان معبد ومالك ، وكان معبد يقول عندما ذاعت شهرته أنا اليوم سُريجي ، وكان العرب يقولون

(١) ابن عدي ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١٠٤ وابن خلدون : المقدمة (الفصل الثاني

والثلاثون من الباب الخامس) .

عن ابن سريج إنه "خلق من كل قلب لأنه يغنى لكل إنسان ما يشتهي (١). وكان الصلح الأول للإسلام منهمكاً في الدعوة الإسلامية ونشرها ، ولم يكن لدى الناس خلاله فراغ للغناء أو الموسيقى ، فلما قامت الدولة الأموية ، وانتقلت عاصمة الخلافة إلى دمشق ، اتجه أبناء المهاجرين والأنصار بالحجاز إلى استعادة السلطان لبلادهم ، فثاروا على يزيد بن معاوية ، والتفوا بعده حول ابن الزبير ، ولكن جهودهم لم تأت بباطل واستقر السلطان بعيداً عنهم ، فاتجه الجيل الجديد بالحجاز إلى رعاية شئون الأدب وشئون الفن لعل فيهما السلوى لما فقده الحجاز من جاه عريض وسلطان ضخم ، فظهر بذلك طويس والغريص وابن محرز وغيرهما ، وانتقل الحجاز بذلك من قمة في السياسة إلى قمة في الأدب وشئون الفن (٢) .

وفي نفس الوقت اتجه كثير من خلفاء بني أمية ، وكثير من عظماء الدولة إلى الاهتمام بالغناء والموسيقى ، وحرص بعضهم على أن تكون له قينة مغنية لا يفتأ يسمعها كلما أراد ، وقد بلغ من اهتمام القوم بالغناء أن ابن سريج دُعي في نختان ابن مولاة عبد الله بن عبد الرحمن فقال لأم الغلام : خفّضى عليك بعض الغرم والكلفة ، فوالله لألهن نساءك حتى لا يدرين ما جئت به ولا ما عزمتم عليه (٣) ،

وفي عهد الدولة العباسية زادت العناية بالغناء فقد كان للعباسيين مزيد اتصال بالفرس فتهياً بذلك السبيل لانتشار ثقافة الفرس وأفكارهم ، ونال الغناء والموسيقى حظوة كغيرهما من العلوم والفنون ، وأشهر المغنين في العصر العباسي إبراهيم بن المهدي ، وإبراهيم الموصلي ، وابنه إسحق ، وابنه حماد .
وأبى الإسلام في الموسيقى والغناء :

ويعود بعد ذلك للحديث عن حكم الشرع في الغناء والموسيقى ، والذي يبدو من المطالعات المختلفة التي سنعرض لها ، أن الغناء والموسيقى في ذاتهما شيء مباح ، بل يحسن في بعض المواقف ، فالموسيقى تندب لإثارة حماسة الجند

(١) الأغاني للأصفهاني ج ١ : ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي للمؤلف ج ٢ ص ٧١ - ٧٢ من الطبعة الثامنة .

(٣) الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ٢٥١ .

في الزحف للحرب والجهاد ، ويحسن مع الموسيقى في هذا المقام بعض الأناشيد الحماسية التي يُستغنى بها لتدفع الجندي للذود عن الدين والوطن ، وتذكّره بأجداد أسلافه ، وتحسن الموسيقى والغناء كذلك للحجيج على أن تكون بأشعار تثير الرغبة في الحج ، وتصف من الكعبة والمقام ما يجعل المسلم يستسهل الصعب ويعمل لينضم لركب الحجاج ، وتحسن الموسيقى والغناء كذلك في أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهيباً له ، ما دام هذا السرور مباحاً كأن يكون في عيد أو في عرس أو لدى قدوم غائب ، وفي وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن الكريم ، وسرى أن الرسول حثّ على استعمال الموسيقى والغناء أو أقر استعمالهما في هذه الحالات .

بيد أنا نجد ألواناً من الانحراف اتصلت بالموسيقى والغناء ، فكثيراً ما اشتغل بهما فتيات أو فتيان عرف عنهم البعد عن الاستقامة وعن الخلق الطيب ، وفي التاريخ كثر المختثون الذين كانوا يعملون في الموسيقى والغناء ، وفي مجالس الموسيقى والغناء كثر الخمر وبالتالي كثر الانحلال ، وكثيراً ما كانت كلمات الأغنية تثير الغرائز وتنحط بالعواطف بدل أن تسمو بها ، وكثيراً ما كان الأداء نفسه يحرك الغرائز الدنيا ، وطالما انشغل هواة الموسيقى والغناء بذلك عن واجباتهم الدينية والاجتماعية ، وصبّوا في الموسيقى والغناء كل حياتهم .

وهكذا تأثر الباحثون في الموسيقى والغناء بهذه المظاهر التي طرأت على الموسيقى والغناء ، فقال الكثيرون من الباحثين إلى تحريمهما والحث على البعد عنهما ، ولكننا نريد أن ندرس الموسيقى والغناء دراسة موضوعية ، نحل منها ما أحله الله ، وتحرم منهما ما انحرف واستلزم التحريم ، ومن الأبحاث المهمة في ذلك الموضوع ما دونه الإمام الغزالي ، ومنه نقبس بعض الفقرات (١) :

(١) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٣٨ وما بعدها .

الإمام الغزالي والسمع :

يقول الإمام الغزالي في السمع وما يترتب عليه من السرور والرقص :

— اعلم أن السمع هو أول الأمر ، ويُشَمِّرُ السمع حالة في القلب تسمى الوجد ، ويشمر الوجد تحريك الأطراف ، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب ، وإما موزونة فتسمى التصفيق أو الرقص .

— والقول بأن السمع حرام معناه أن الله يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يُعَرَفُ بمجرد العقل بل بالنص ، فعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص ، ولم يستقم في هذا المجال نص ولا قياس ، وبهذا يبطل القول بتحريمه ، ويبقى فعلاً لا حرج فيه كسائر المباحات ، بل إن هناك نصوصاً تدل على إباحته ، فالغناء سماع صوت طيب مفهوم المغنى محرك للقلب ، وسماع الصوت الطيب بالنسبة لحاسة السمع كروية الخصرة والماء الجاري بالنسبة للعين فلا يحرم ، فإن أدى النظر إلى الاطلاع على شيء حرام حرم النظر ، كالنظر إلى العورة ، وكالنظر بشهوة ، وكذلك يحرم السمع إذا كان سماعاً لشيء غير حلال أو أدى بطريق انحراف به عن الحلال .

— وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُحَدِّثُ له في السفر ، ولم يزل الحُداة وراء الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة ، والحداة أشعار تؤدِّي بأصوات طيبة وألحان موزونة ، ولم ينتقل عن أخذ من الصحابة إنكار ذلك .

— وتأثير الغناء في القلب سرٌّ صنعه الله وأودعه الأصوات ، فجعل منها ما يفرح ومنها ما يبكي ومنها ما ينوم ومنها ما يُضْحِكُ .. والصبي يسكته الصوت الطيب عن البكاء ، والجمال يتأثر بالحداة فيستخف الأحمال الثقيلة ويستقصر المسافات الطويلة ، ومن لم يحركه السمع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية ، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور ، وقد قيل : من لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج .

- ومن النصوص التي تدل على إباحة الموسيقى والغناء لإنشاد نساء المدينة بالدف والألحان عند قدوم الرسول إلى المدينة :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

فإظهار السرور لقدمه عليه السلام بالشعر والنغمات والرقص والحركات محمود ، وقد نقل عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم أنهم حجلوا في سرور أصابهم ، وذلك نوع من الرقص جائز في قدوم كل قادم يجوز الفرح به ، وفي كل سبب مباح من أسباب السرور ، ومن النصوص كذلك ما رواه البخاري ومسلم من أن أبا بكر دخل بيت الرسول فوجد به جاريتين تغنيان ، فقال : أمز أمير الشيطان في بيت الرسول ؟ فقال الرسول لأبي بكر : يا أبا بكر دعهما فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا .

أبو بكر البغدادي والسماع :

ويقرر الحافظ أبو بكر البغدادي في مؤلفه عن السماع أن من تمسك بتسمية أبي بكر للغناء بمزمار الشيطان قد أخطأ وأساء الفهم من وجوه ؛ منها تمسكه بقول أبي بكر مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ردّ هذا القول ، ومنها رجوع أبي بكر إلى إشارة المصطفى ، ومنها إغراض هذا القائل عن إقراره صلى الله عليه وسلم واستماعه الذي لا احتمال في أنه يقتضي الحل والإطلاق إلى لفظ أبي بكر ، ومحال أن يعتقد أبو بكر تحريم أمر حضره المصطفى وأقر عليه ، مع علم الصديق أنه عليه السلام لا يقر على باطل ، والصحيح أن يفهم من قول أبي بكر ما يليق به وهو أنه رأى ضرب الدف وإنشاد الشعر لعباً من جملة المباح الذي ليس فيه عبادة فخشي باطنه الكريم من تعظيم حضرة النبوة واحترام منصب الرسالة وشدة الاحتشام ، ما حمله على تنزيه حضرته عليه السلام عن صورة اللعب ، ورأى أن الاشتغال بالذكر والعبادة في ذلك الموطن الكريم أولى ، فزجر عنه احتراماً لا تحريماً ، فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم إنكاره لأمرين أحدهما أن لا يعتقد تحريم ما أبيح في الشرع توسعة لأئمته ورفقاء بها وتفسحاً في بعض الأوقات ، والثاني إظهار

الشارع مكارم الأخلاق وسعة الصدر لأهله وأمته فتستريح قلوبهم ببعض المباح فيكون أنشط لهم في العود إلى وظائف العبادة (١) .

ولنعد إلى كلام الغزالي الذي يقرر أن من النصوص التي تبيح الموسيقى والغناء ما رواه ابن العباس قال : زوجت عائشة ذات قرابة لها في الأنصار ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أهديتم الفتاة ؟ قالوا نعم : قال : أرسلتم معها من يغني ؟ قالت عائشة : لا . فقال الرسول : إن الأنصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحياكم

وعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم مر ببعض نواحي المدينة فإذا هو ببعض الجوارى يضرهن بدفهن ويتغنين :

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جبار

فقال صلى الله عليه وسلم : « الله يعلم إنى لأحبكن »

وأخرج الترمذي قوله عليه السلام : أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف ، ويعلق الشوكاني على ذلك بقوله : وفي هذا دليل على أنه يجوز في النكاح ضرب الأدفاف ورفع الصوت بشيء من الكلام على ألا تكون أغاني تهيج الشرور لاشتغالها على وصف الجمال والفجور ومعاقرة الخمر ، فإن ذلك يحرم في النكاح وفي غيرها (١) .

- أما الرقص فإن الإمام الغزالي يبيح منه ما لا يثير شهوة فاسدة ، كرقص الرجال وحدهم ، أو رقص النساء وحدهن دون أن يراهن من لا يحل لهن ، وقد استدلل الغزالي على الحل برقص الحبشة والزواج في المسجد النبوي يوم عيد ، حيث أقرهم الرسول على ذلك ، وأباح لزواجه عائشة أن تتفرج عليهم وهي مستورة به .

(١) أبو بكر البغدادى : السماع نقلا من التراثيب الإدارية لعبد الحى الكتانى ج ٧ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) نيل الأوطار ج ٦ ص ١٨٨ .

— ويحدد الغزالي الأسباب التي تحرّم الموسيقى والغناء ، فيجعلها أسباباً طارئة ؛ كأن يكون الغناء من امرأة تخشى الفتنة من سماعها ، أو من صبي أمرد كذلك ، أو أن تستعمل في الموسيقى آلات من شعار أهل الشرب أو المخنثين ، أو أن يكون الكلام الذي يُغنى ، فيه فحش ولغو ، أو أن يكون المستمع يثير الغناء شهوته ، ويحرك ثائرته ، أو أن يتخذ الموسيقى والغناء ديدناً فتسبب المواظبة عليهما التقصير في أداء الواجب الديني وأداء واجب الأسرة والمجتمع .

ذلك موجز البحث الطويل الذي أورده الإمام الغزالي ، وندعه الآن لنقتبس اتجاهات غيره من الباحثين ، وقد أبانت كتب الفقه أن التغنى من حيث كونه ترديد الأصوات بالألحان مباح لا شيء فيه ، ولكن قد يعرض له ما يجعله حراماً أو مكروهاً ومثله الموسيقى ، فيمتنع إذا ترتب عليه فتنة كما يمتنع إذا ترتب عليه حرام كشرب الخمر ، أو تضييع للوقت ، وانصراف عن أداء الواجبات ، أما إذا لم يترتب عليه شيء من ذلك ، فإنه يكون مباحاً (١) .

ويقرر بعض الباحثين أن ما ورد من أحاديث نبوية في تحريم الغناء والموسيقى كلها مشخنة بالجراح ، لم يسلم منها حديث من طعن عند فقهاء الحديث وعلمائه ، قال القاضي أبو بكر بن العربي : لم يصح في تحريم الغناء شيء (٢) وقد تصدى ابن حزم للأحاديث التي رويت في تحريم الغناء وبين أن رواها بين مجهول ومدلّس وضعيف ، وقرر أن بيع المزامير والعيذان والمعازف والطناوير حلال كله ومن كسر شيئاً منها ضمنه (٣) .

الإمام القشيري والسمع :

وقد كتب الإمام القشيري باباً عن السماع نقتبس منه بعض العبارات ، يقول الإمام القشيري : واعلم أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة ، والنغم

(١) الجزيري : الفقه على المذاهب الأربعة ج ٢ ص ٤٢ .

(٢) يوسف القرضاوى : الحلال والحرام في الإسلام ص ٢١٩ .

(٣) المحلى ج ٩ ص ٥٥ - ٥٦ .

المستلذة ، إذا لم يعتقد المستمع محظوراً ، ولم يسمع على مذموم في الشرع ، ولم ينجو في زمام هواه ، ولم ينخوط في سلك لهوه ، مباح في الجملة ، وإن حسن الصوت مما أنعم الله تعالى به على بعض الناس ، قال عز وجل « يزيد في الخلق ما يشاء » (١) وقيل في التفسير إن من هذه الزيادة الصوت الحسن ، وذم سبحانه وتعالى الصوت القبيح فقال « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » (٢) ، واستلذاذ القلوب واشتياقها إلى الأصوات الطيبة واسترواحها إليها ، مما لا يمكن جموده ، فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة فيهن عليه بالحداء ، وحكى عن الشافعي أنه مر مع أحد رفاقه بموضع فيه شخص يغنى ، فلما سمعه الشافعي قال لرفيقه : مل بنا إليه ، وسأل الشافعي رفيقه : أيطربك هذا ؟ فقال : لا . فقال الشافعي : إذن ليس لك حبس^٣ (٣) .

الإمام الشوكاني والسمع :

ونقل الشوكاني آراء كثير من الصحابة والتابعين في إباحة الأعواد والغناء ما لم ينحرف بها اتجاه من الاتجاهات الكريهة (٤) .

عبد الغنى النابلسي والسمع :

وقد كتب الشيخ عبد الغنى النابلسي الحنفي أحد فقهاء القرن الخامس عشر المشهورين ، رسالة عن الموسيقى والغناء أسماها « إيضاح الدلالات في سماع الآلات » وفيها يقرر أن الأحاديث التي استدلت بها القائلون بالتحريم — على فرض صحتها — مقيدة بذكر الملامى وبذكر الخمر والقينات والفسوق والفجور ، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك ، وعلى ذلك كان

(١) سورة فاطر الآية الأولى .

(٢) سورة لقمان الآية ١٩ .

(٣) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٦٢٧ وما بعدها .

(٤) نيل الأوطار ج ٧ ص ٣١٥ .

الحكم عنده في سماع الأصوات والآلات المطربة أنه إذا اقترن بشيء من المحرمات ، أو اتخذ وسيلة للمحرمات ، أو أوقع في المحرمات كان حراماً ، وأنه إذا سلم من كل ذلك كان مباحاً في حضوره وسماعه وتعلمه وقد نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والمحرمات . وذهب إلى مثل هذا كثير من الفقهاء .

الإمام شلتوت والسماع :

وقد أورد فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت هذا التلخيص لتلك الرسالة وعلق عليه بقوله : إن هذا يوافق تماماً في المغزى والنتيجة الأصل الذي قررناه في موقف الشريعة بالنسبة للغناء والموسيقى ، وعلى هذا فسماع الآلات أو الأصوات الجميلة لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت إنسان وإنما يحرم إذا استعين به على محرم أو اتخذ وسيلة إلى محرم أو ألهى عن واجب (١) .

عبد الحى الكتانى والسماع :

وقد عد عبد الحى الكتانى عشرين مؤلفاً وضعوا كتباً في حل الغناء والموسيقى ، ما لم يطرأ عليهما ما يقيد الحل أو يمنع ، ومن هؤلاء ابن قتيبة والإمام أبو منصور البغدادى وابن حزم الأندلسى والقشيرى وعز الدين ابن عبد السلام والشوكانى ، وينقل الكتانى عن مجموعة من العلماء رأيهم في أنه لا فرق بين سماع الأوتار وسماع صوت الهزار والبلبل وكل طير حسن الصوت ، فكما أن صوت الطير مباح سماعه فكذلك الأوتار (٢) .

وفى ختام هذا البحث نقرر أن « الشعبى » الفقيه الشهير والراوية

(١) الفتاوى : ص ٤١٣ ، ٤١٤ وانظر أيضاً الدلالات في سماع الآلات للشيخ

عبد الغنى النابلسى .

(٢) انظر في ذلك الأصفهاني : الأغاني ج ٢١ ص ١٢١ .

الموثوق به كان يجعل من داره مكاناً لابن سريج يغنى فيه عندما استقدمه أهل العراق من الحجاز (١) .

فليسمع المسلم الغناء أو الموسيقى ولكن في ظل هذا التفكير الدقيق ، وليطرح من الغناء والموسيقى ما يبعث الإثارة وما أسىء أداؤه ، وليكن فطناً بحيث لا يلهيه الغناء والموسيقى أو أى شىء مماثل لهما عن أداء الواجب كاملاً وفي وقته ، وعلى هذا فالإنسان نفسه يسىء استعمال ما أحله الله ، فيَحْرُمُ عليه لأنه بتصرفه المنحرف نقله من الحل إلى الحرمة .

ويمكننا في ختام هذا البحث أن نورد صورة من صور الانحراف بالغناء التي تُبعده عن الذوق السليم وبالتالي تجعله محرماً ، وهذه الصورة تنقلها بحروفها من إحدى المجلات المصرية ونصها كالآتي : ليت الست (المطرباية . . .) تحاول أن تشاهد نفسها في التلفزيون ، وتشوف كيف تبدو وهي تشب و (تلب) وتغمض وتفتح وتتموج ، كما أرجو أن تعلم أيضاً أن (فستانها) الذي حضرت به حفل المنوعات كان فستاناً غير معقول من ناحية الشكل (والموديل) واللياقة (٢) .

ومثل هذا يظهر كثيراً فينحدر بالغناء إلى الحرمة ، واعتقادي أن الصحفي الذي كتب هذا الخبر ليس باحثاً دينياً وإنما هو يكتب باسم الفطرة السليمة ، والدين الإسلامي دين الفطرة ، وقد بعد الأداء في هذا الغناء عن الفطرة السليمة فبعد عن الإسلام . .

(١) التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٣٢ ، ص ١٣٣ .

(٢) روز اليوسف في ١٣ نوفمبر ١٩٦٧ .

الماتم

الموت حقيقة رآها الناس وشهدوها عشرات المرات ومئات المرات ، وكان جديراً بهم أن يعتادوها كما اعتادوا الشتاء والصيف وشروق الشمس وغروبها ، ولكنهم لا يريدون أن يفعلوا ، وتمردهم على طبيعة الكون لا يوقف هاهـ الطبيعة ، ولا ينفعهم في شيء ، ولكنه يلحق بهم الضرر ، وإن جزع الناس عند الموت لثم يتحملة الأحياء ويمس شرهـ الأموات في كثير من الحالات كما سنرى .

وقد رسم الإسلام الطريق القويم للناس لعلهم يسرون فيه ، فينالهم الثواب والعزاء ، وتنزل بموتاهم الرحمة وحسن الجزاء ، بيد أن الناس في كثير من الأحوال سلكوا طريقاً أعوج غير الطريق الذي رسمه لهم الإسلام فضلوا وأضلوا ، وسنرسم هنا معالم الطريقين ، لعل الناس يجلبهم طريق الهدى والرشاد

والإسلام يعترف بالحزن عند الموت ، ويبيح البكاء بدون صوت ، وربما كان البكاء من وسائل تخفيف المصائب ، وقد بكى الرسول صلى الله عليه وسلم عند موت ابنه إبراهيم ، ولكنه قال : تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يخطئ الرب ، ولولا أنه وعد صادق ، وموعود جامع ، وأن الآخِر تابع للأول لو جَدُّنا (كَحَرْثًا) عليك يا إبراهيم أكثر مما وَجَدُّنا...

وروى عن الرسول قوله : إن الله لا يعذب بـحزن القلب ولا بدمع العين ، وإنما يعذب بهـذا ، وأشار إلى اللسان . وفي حديث آخر : إنه مهما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل ومن الرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان (١) .

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في جنازة ، فرأى عمر امرأة تبكي ، فصاح بها عمر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعها يا عمر فإن العين دامعة ، والنفس مصابة ، والعهد قريب . وفي عهد عمر مات سيف الله خالد بن الوليد وسمع عمر بعض النسوة يبكين ، فأراد رجل منعهن من البكاء ، فقال عمر : دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نفع أو لقلقة (والنفع التراب والقلقة الصوت) .

الإسلام والنعي :

وننتقل الآن إلى نقطه أخرى ، هي أن نذكر حكم الإسلام في النعي ، وهو إذاعة خبر الوفاة : روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : إياكم والنعي فإن النعي عمل الجاهلية (١) . وعن حذيفة أنه قال : إذا مت فلا تؤذِنوا بي أحداً ، إني أخاف أن يكون نعياً ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن النعي (٢) ولكن النعي الذي نهى عنه الرسول هو نعي الجاهلية ، وكانوا يرسلون من يعلن بخبر موت الميت على أبواب الدور والأسواق ، أما النعي الذي هو إعلام الناس بموت قريبهم فمباح لما يترتب عليه من المبادرة لشهود جنازته ، وتهيئة أمره ، والصلاة عليه ، والدعاء له ، والاستغفار ، وتنفيذ وصاياه ، وما يترتب على ذلك من الأحكام ، وقد نعى الرسول قادة غزوة مؤتة ، وقد يصبح النعي واجباً إذا ترتب عليه حقوق ورثة أو عدة زوجة وهكذا (٣) .

التزامات الأحياء تجاه الميت :

ويوصى الإسلام بسرعة دفن الميت ، كما يبحث على كثرة المصلين عليه ، ويقرر أن كثرة المصلين على الميت ينزل ثوابها عليه وعلى من أداها جميعاً ، وفيما يلي مجموعة من الأحاديث الشريفة التي تقرر هذه المبادئ الكريمة :
— أسرعوا بالجنازة فإن تكن صالحة فخير فقد مؤنه ، وإن تكن غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم .

(١) رواه الترمذی .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذی .

(٣) الشوكاني : نيل الأوطار ج ٣ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

- من صلى عليه مائة من المسلمين غفر له .
- ما من أربعين مؤمن يشفعون لمؤمن إلا شفّعهم الله (قبيل شفاعتهم)
- من صلى على جنازة فله قيراط ومن شيعها حتى تدفن فله قيراطان فسئل النبي عن القيراط فقال : مثل أحد .

وتشييع الجنازة تكريم للميت ، وفيه إيقاظ وذكرى ، ولذلك يحسن الخشوع عند تشييع الجنازة كما يحسن الصمت والفكر ، قال صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب الصمت عند ثلاث : عند تلاوة القرآن ، وعند الزحف ، وعند الجنازة . وقال : اتّباع الجنازة يذكّر بالآخرة .

ومن إجلال الموت أن يقوم الإنسان للجنازة إذا مرت عليه ، فقد روى عن أبي هريرة قال : مر على النبي صلى الله عليه وسلم بجنازة فقام وقال : قوموا فإن للموت فرعاً . وعن علي بن أبي طالب قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم لجنازة ، فقمنا ، حتى جلس فجلسنا .

والدعاء للميت مستحب وبخاصة من ولده ، قال عليه السلام : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له . ويستحب كذلك أن يغفر الأحياء ذنوب الأموات ما استطاعوا ذلك ، وأن يذكروهم بحسناتهم ، قال عليه السلام : اذكروا محاسن موتاكم . وقد مرّ على الرسول بجنازة فأثنى عليها خيراً ، فقال « وجبت » ثم مر عليه بجنازة فدكرت بالشر فقال « وجبت » ، إنكم شهداء الله في الأرض .

هيئة القبر :

وعند الدفن توضع علامة للتعريف بالقبر ، وذلك كحجر أو خشبة أو نحو ذلك ، ولكن لا تبنى القبور ، ولا تجصص ، ولا يكتب عليها ، فقد أودع الميت عند ربه ومعه عمله ، ولن يغنيه شيئاً أن يرتفع القبر أو تقام (١٣ - الحياة الاجتماعية)

- القياب أو نحو ذلك ، وفيما يلي مجموعة من الأحاديث ترسم هذه التشريعات
- عن أنس أن رسول الله أعلم قبر عثمان بن مظعون بحجر (١) .
 - عن أبي سعيد أن النبي نهى أن يبنى على القبر .
 - عن جابر قال : نهى رسول الله عن تجميع القبور .
 - وعن جابر كذلك قال : نهى رسول الله أن يكتب على القبر شيء .

العزاء وصورة الإسلامية :

وعقب تشييع الجنازة يقدم المشيعون العزاء لأهل الميت ، ويدعون لهم بالصبر والأجر وللميت بالغفران ، ويستمر وقت العزاء ثلاثة أيام يتوافد خلالها من لم يشيعوا الجنازة ليقدموا العزاء ، ولا ينبغي تكرار العزاء إلا لأقارب أهل الميت وأصدقائهم الأقربين ، وعلى هذا فمن قدم العزاء مرة لا يقدمه أخرى إلا إذا كان في ذلك تخفيف أثر المصائب على أهل الميت ، فقد ورد عن الرسول قواه « التعزية مرة » ، ويجلس أهل الميت في بيوتهم لاستقبال المعزين ، ولا تقام السراقات إلا لضرورة ككثرة الناس أو خشية المطر أو الشمس ، على أنها لا تقام قط إذا كانت على حساب ورثة لم يبلغوا الرشد ، أو كان أهل الميت لا يتحملون نفقتها بسهولة ، أو يحتاجون إلى قرض من أجلها ، وتكون إثماً إذا كان القرض برها ، ويمتد وقت العزاء بالنسبة للمسافر حتى حضوره أو للبعيد حتى وقت اللقاء ، ويثيب الله من يعمل على تخفيف المصائب على أهل الميت ، قال صلى الله عليه وسلم : ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبة إلا وكساه الله سبحانه من حلل الكرامة يوم القيامة . وقال : من عزى مصاباً فله مثل أجره .

وقد حرص المسلمون الصالحون على اتباع هذه التعليمات بدقة وإيمان ، وقد ذكر الجاحظ (٢) الاحتفال بدفن الشاب الصالح عبد الملك بن عمر ابن عبد العزيز ، قال الجاحظ : وبعد دفنه سووا عليه قبره بالأرض ،

(١) هذا هو المتبع في كثير من البلاد الإسلامية فترى المقبرة مسطحة كارض واسعة مسطحة وليس بها إلا قوائم تدل على التجمهر .
(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٨ .

ووضعا خشبتين من زيتون إحداهما عند رأسه والأخرى عند رجله للدلالة على القبر ، ثم قام والده يؤبنه ويطلب له الرحمة والمغفرة ، ويشهد الناس على رضائه بما قسم الله عليه ، وأخذ الناس بعد تشييع الجنازة يعزونه ويرجون له الصبر والسلوان ثم ينصرفون .

وعندما ظهر الانحراف في العالم الإسلامي نجد الاتقياء يوصون بالآتي يفعل عند موتهم إلا ما قرره الإسلام ، ومن هذه الوصايا نذكر طرفاً من وصية أبي الفضل الهمداني فقد أوصى أنه إذا جاءه الحق وتوفاه الموت ألا تعقد عليه مناحة ، ولا يلطم خد ، ولا ينشر شعر ، ولا يرفع صوت ، ولا يدعى ويل . . . وأن يكفن في ثلاثة أثواب بيض لا سرف فيها . . . (١) .

ولا يحل للمسلم أن يلبس أى شارة من شارات الحداد ، ولا يغير زيه وهيئته المعتادة من أجل موت أحد ، إلا الزوجة فالحداد واجب عليها مدة أربعة أشهر وعشرة أيام وفاء لحق الزوجية ورباطها المقدس ، ولأن هذه الفترة هي فترة عدة المتوفى عنها ، وهي بهذا تعد امتداداً لحياة الزوجية في كثير من الحقوق .

أما الطعام في يوم الوفاة فإن السنة بينت أن الجيران والأقارب ينبغي أن يصنعوه ويهدوه لأهل الميت ، وفي ذلك قال الرسول لأهله عندما جاء نعى جعفر بن أبي طالب : اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد أتاهم ما يشغلهم . أما تكليف أهل الميت أن يقدموا الطعام للناس فقد عده السلف الصالح نوعاً من النوح في حرمة ، ذكر ابن ماجه أن جرير بن عبد الله البجلي قال : كنا نرى الاجتماع إلى أهل البيت ، وصنعهم الطعام للمعزين ، من النياحة (١) . ولا يجوز الإسلام ذبح اللبائح تحت النعش أو غلي القبر وقد روى عن الرسول قوله : لا عقرب في الإسلام .

الصبر وثوابه :

وقد صور الفكر الإسلامي صوراً من الثواب الجم أعدها الله لمن مات

مريضاً أو مات غريباً أو صبر على مصاب ، وفيما يلي الأحاديث الشريفة التي تحمل هذه المعاني :

— من مات مريضاً مات شهيداً وَوَقَّى فتنة القبر .

— إن الرجل إذا مات في غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره .

— ما من مسلم يصاب بمصيبة فيضرع إلى ما أمر الله به من قوله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم عندك احتسبت مصيبتى فاجزنى عليها ، وعوضنى خيراً منها ، إلا آجره الله وعوضه خيراً منها .

ويذكر ابن ماجه أن أم سلمة سمعت هذا الحديث من زوجها أبي سلمة ، فلما مات أبو سلمة رددته ، ولكنها كانت عندما تقول « وعوضنى خيراً منها » تسائل نفسها : وهل هناك خير من أبي سلمة ؟ قالت أم سلمة : فتزوجني محمد صلوات الله عليه بعد أبي سلمة ، فكان خيراً وأعظم بطبيعة الحال .

زيارة القبور :

أما عن زيارة القبور فقد كانت محرمة في مطلع الإسلام أيام كان العرب قريبي عهد بعبادة الأبطال والأوثان ، فلما استقر الإيمان بقلوبهم أبيحت زيارة القبور لأنها تذكر بالآخرة ، ولأن فيها خشوعاً يحتاجه النفس ، قال صلى الله عليه وسلم : كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، نالآن فزوروها ، فإنها ترهّد في الدنيا وتذكر بالآخرة . وعلى هذا فإن زيارة القبور لهذا المعنى جائزة ، بيد أنها تحرم لو ارتبطت بإثم كالنوح أو الصياح أو الجزع ، وكاللهو والمبيت في المقابر وكالإكثار منها ، فقد روى ابن عباس وأبو هريرة . قالوا : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبور ، وفي رواية الخمسة إلا ابن ماجه عن ابن عباس : لعن رسول الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج .

العادات الرذيلة عند الموت :

ذلك هو الفكر الإسلامى وهو يتفق مع كل عقل سليم ونفس طيبة ، ولكن الواقع فى بعض البلاد الإسلامية بعيد جداً عن الفكر الإسلامى وبعيد عن الفطرة السليمة . إنه تقاليد وعادات مذمومة تحدرت من هنا ومن هناك ، لا صلة لها بالإسلام ولا بالخلق الكريم ، وهى لا توجد فى كل بلاد الإسلام ، لأنها لا علاقة لها بالإسلام ، ولا توجد فى كثير من الممالك غير الإسلامية لأنها لا توافق العقل ولا الفطرة السليمة ، إنها بقايا ضلالات تسربت فى الظلام ، ونحن هنا نلقى الضوء عليها لعلها تذوى وتزول من مجتمعنا الإسلامى ، إنها لا تعود بفائدة على الميت ولا على أهل الميت ، بل تعود بالضرر عليه وعليهم ، ومن العجيب أن الناس يعرفون ذلك ، فلماذا لعمري يظلون عليه ، إن الاستمرار على الضلال يضاعف أثر الضلال ، وإن البقاء على الحيف مع معرفة أنه حيف تخطئ لحاود الله واستجلاب لغضبه ، فلنبصر الأمر ، ولنطلب من الله الهداية حتى لا نضل عبيداً لتقاليد تؤمن بزيفها وخطرها ، ولنتعاون على أن يغلب الرشيد الغي والهدى الضلال والله المستعان .

ما الصورة التى انتشرت عند بعض المسلمين مرتبطة بالمآتم ؟

سنرسم هذه الصورة بإيجاز فهى لا تستحق وقفة طويلة ، لأنها وجه آخر فى تاريخ الدين يرتكبونها أو يقرؤونها .

عندما يمرض الإنسان ويشهد به المرض يتجه أهله بكل قواهم إلى إعداد هذه الألوان من الإثم ، فالملابس السوداء تعبد للنساء ، وأربطة الرقبة السوداء تشتري للرجال ، وما إن يلفظ المريض نفسه الأخير ويصبح وديعة عند الله يحتاج إلى دعوة صالحة أو صديقة تزيل عنه الوحشة ، نرى أهله لا يتجهون هذا الاتجاه ، وإنما يتجهون للمظاهر الكاذبة وللتقاليد الخاطئة ، فالصراخ يرتفع ، والنواح يعلو ، وقد تلطم الوجوه وتشق الجيوب ، ثم تظهر المغالاة العجيبة فى الأكفان ، وهى شئ لا يحس به الميت الذى سيندس بكفته فى التراب بعد حين ، وعند خروج الميت تذبح الذبائح ، ثم تقام السرايدات الفخمة ذات الأضواء المشعة والحركة الصاخبة ، حتى ليوشك المآتم أن ينقلب مسرحاً للمباهاة والمفاخرة ، وتنقل مكبرات الصوت أنغام القراء

وصيحات الاستحسان إلى كل اتجاه ، ويرى فضيلة الشيخ شلتوت ألا ثواب للميت من هذه القراءة لأنه لا يراد بها البركة ، وإنما يراد التطريب ، ولا ثواب للقارئ لأنه يأخذ أجره عليها ، ولا ثواب لدافع الأجر ، وإنما يكون ثوابه على ما دفع من مال إن كان القارئ مستحقاً للصدقة (١) ، ولعله لهذا السبب لا توجد قراءة للقرآن في المآتم بأكثر البلدان الإسلامية كالسودان ، وفي إندونيسيا ودول الشرق الأقصى قد توجد قراءة للقرآن ولكن في مكان منفصل عن المعزين .

وقبل أن نترك قراءة القرآن نذكر أن قراءة القرآن العادية يصل ثوابها للميت لأنه ينتفع بسائر القربات من عبادات بدنية كصلاة يوهب ثوابها له أو صوم أو حج ، وكالصدقات والدعاء والاستغفار كما ذكره ابن تيمية وابن القيم وقد عقد الشوكاني فصلاً عن (وصول ثواب القرب المهداة إلى الموتى) وأورد فيه مجموعة من الأحاديث الصحيحة التي تجعل الميت ينتفع بما يوهب له من صيام أو صدقة أو قراءة قرآن (٢) .

أما المقابر فيظهر فيها التناقض في خارجها ، من أبنية أنيقة ، وقباب عالية أحياناً ، والميت بداخلها كالسجين الذي يوضع بجائماً مجهوداً في قفص من ذهب ، يتألق في صنعته الصنّاع ، ولا يعيرون التفاتاً إلى السجن المسكين .

وقد يفكر أهل الميت فيه ولكن بصورة عرجاء ، فقد ابتدحت عصور الضعف شيئاً اسمه (إسقاط الصلاة وإسقاط الصوم) يجمع أهل الميت لها خلياً ويقرعون قراءات ويقدمون الحلى للفقراء على أنه فدية ، ولكن يشترطون زده بطريق الهبة ، وهكذا نراها تمثيلية أو مهزلة ، ويقول عنها الشيخ شلتوت : والواقع إنه لم يرد بذلك مصدر شرعي صحيح ولا ضعيف ،

(١) الفتاوى ص ٢١٠ .

(٢) نيل الأوطار ج ٢ ص ٣٣٣ .

وإذا ورد فهل يعقل أن تكون تلك الحيلة عملاً مشروعاً يقبله الله وينسقط به عن الميت الصلاة والصوم (١) ؟

وبعد ذلك يُنسى الميت نسياناً تاماً، ويندمج أهله في خلاف حول ثروته، وفي الاستمتاع بما خلف إن كان قد خلف شيئاً، ولا يذكر بعد هذا اللهم إلا بطريق أعرج أيضاً هو ما يسمى بالخميس الصغير أو الخميس الكبير أو الأربعين أو الذكرى السنوية، وفي هذه المناسبات تتجدد المظاهر والمآتم، وتقدم الأطعمة وتنصب مكبرات الصوت وقد تنوح النائح، وقد لا يذكر الميت بين هذا الضجيج. وهذه الأشياء بدع مدمومة لم تعرفها العهود المتقدمة، وهي دخيلة لا يشهد لها أصل من أصول الدين، وتخالف الحديث الشريف الذي أورده الشوكاني في نيل الأوطار ونصه « التعزية مرة » وقد سبق أن أوردناه.

وقد رأيت بنفسى أحداثاً تكررت أمامى في أكثر من حالة، وهي تنبىء عن الصنعة الزائفة في مظاهر المآتم. فقد رأيت مريضاً طال به المرض حتى ضج منه ذووه وأهملوه، فلما مات ارتفع النواح وشقت الجيوب.

ورأيت مريضاً على جانب من العلم والمعرفة، وقد أوصى ألا يرتفع عليه صوت أو تخالف الشريعة في جنازته، ولكن كيف تنفذ هذه الوصية، إنها إن نفذت كان في ذلك العار على أهله والشار، ولذلك ما إن أسلم الرجل روحه حتى نسيت وصيته، لا حزناً عليه فليس في الحزن عيب، ولكن خوفاً من القيل والقال فانطلق الصراخ.

والملابس السوداء تلبس، ولكن الأناقة لا تنسى، والترقب لا يهمل.

وقراءة القرآن ترتفع في مكبرات الصوت وهي أشبه بالغناء، ويتلوها صراخ السامعين بالاستحسان حتى يصبح السراشق يعج بضجيج يستنكره كل

عاقِل في ظروف الحزن والأسى ، ولا يناسب الخشوع اللازم عند قراءة القرآن ، ذلك الذي ورد في الآية الكريمة : « وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » (١) .

مسئولية الميت والأحياء :

وبوسعنا أن نقرر أن الإثم يلحق بمن اشترك في هذه الأعمال بصورة أو بأخرى ، حتى الميت يأثم له إذا عرف أن هذا سيجرى له بحكم العادة ولم يُوصَ بمنعه ، بل أن أحاديث الرسول تقرر بدون استثناء اشتراك الميت في الإثم (٢) ، فقد روى عمر بن الخطاب عن الرسول قوله : الميت يعذب بما نبح عليه ، وعن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا قال أهل الميت : واعضداه . واكاسباه . واناصره . واجبلاه ونحو ذلك ، يتعتع الميت ويقال له : هل أنت كذلك ! هل أنت كذلك ؟ ويتحمل الميت المسؤولية كاملة إذا أوصى بأن يبكى ويناح عليه كما كانت عادة الجاهلية ، فقد روى أن طرفة بن العبد قال :

إذا مت فابكيني بما أنا أهله وشقى على الجيب يا أم مهبد

أما الإثم الذي يقع على النائمات فكبير ، وهو يقع كذلك على من سكت عن النواح وهو يستطيع أن يُسكته ، فإن كان لا يستطيع فعله ألا يشيخ مثل هذه الجنائز ، ولا يعزى فيها ، فمن ابن عمر قال : نهى رسول الله أن تتبع جنازة فيها راة ، وروى كذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ليس منا من شق الجيوب ، وضرب الحدود ، ودعا بدعوى الجاهلية ، وقوله : النياحة على الميت من أمر الجاهلية .

بقيت في هذا الموضوع ناحية تاريخية ترينا متى بدأت الانحرافات ، وترينا كذلك أنها ظهرت على يدى بعض الجهلة من ذوى النفوذ ، ففي القرن الثالث ظهرت بمصر عادة شق الجيوب وصبغ الوجوه بالسواد عند الموت

(١) سورة الأعراف الآية ٢٠٤ .

(٢) باعتباره - فيما نرى - يعرف ما سيتم بموته دون أن يتصرف تصرفاً حاسماً لمنع ذلك من الحدوث (انظر نيل الأوطار ج ٣ ص ٣٤٧) .

وقد منع العامل ذلك وسجن النائمات ، ولما جاء الخليفة الحاكم حظر على النساء الخروج خلف الجنائزات كما حظر العويل والصراخ (١) وفي القرن الرابع ظهرت عادة بناء الكبراء لأنفسهم مقابر ليدفنوا بها بعد موتهم ، وأول من فعل ذلك أم المقتدر وكانت جارية رومية ، فقد بنت لنفسها تربة بالرصافة (٢) ثم تبعها آخرون من الخلفاء والكبراء .

وهكذا يتضح أن هذه العادات ظهرت في فترات الضعف ، وظهرت على يد مجموعة من الجهلة ، وأن مقاومتها ظهرت مبكرة أيضاً ، واكن بعض هذه العادات عاش حتى الآن في بعض البلاد .

وجدير بالذكر أن إندونيسيا وكثيراً من البلاد الإسلامية تتبع الفكر الإسلامى إلى حد كبير في المسائل المتصلة بهذا الموضوع ، فلا أصوات ولا نواح ولا مقابر مرتفعة أو مخصصة ، ومن الغريب أن مصر وهى مركز مهم للفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية تعيش بها هذه الآفات ، فاللهم أشهد أنا قد بلغنا تعاليمك إلى الناس وجددنا لهم ما أوصى به نبيك صلوات الله عليه ، وليس للناس بعد ذلك من عذر .

(١) يحيى بن سعيد الورقة ١١٥ ب (مخطوط) نقلا عن الحضارة الإسلامية لآدم مترز

ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٢ ص ٢٠٣ .

زواج الأب بعد وفاة زوجته

هناك موضوع يرتبط بموضوع « المآثم » الذى انتهينا آنفاً من دراسته ، ذلك هو موضوع رجل ماتت زوجته ، أو امرأة مات زوجها .

وفى الحديث الشريف يقول الرسول صلوات الله عليه : « . . . واصحب ما شئت فإنك مفارق » وهكذا يعيش الزوجان معاً ، وقد تطول العشرة ، وينجبان الأولاد والبنات ، ثم . . . لا بد من فراق ، وطبعي أن الزوج والزوجة لن يموتا فى وقت واحد إلا فى القليل النادر .

وإذا كان الميت قد انتهى أمره ، فإن الذى يبقى من الزوجين يواجه حياة جديدة ، أغلب الظن أنها موحشة ، ومريرة ، وقاسية ، فالرفيق فى الصحة والمرض ، الرفيق فى السفر والحضر ، الرفيق فى الجوع والشبع ، الرفيق فى الأانس والعشرة . . . قد غاب ، وترك فراغا هائلا .

من أكثر عناء وألماً ؟ الزوج بعد وفاة زوجته؟ أو الزوجة بعد وفاة زوجها ؟ .

بقدر ملاحظتى للتجارب التى رأيتها، ومع افتراض الكفاية الاقتصادية فى الحالتين، يكون الزوج الذى فقد زوجته أكثر عناء ووحشة من الزوجة التى فقدت زوجها ، لأن ما يفقده الزوج بوفاة زوجته أكثر مما تفقده الزوجة بوفاة زوجها ، فالمرأة بلا شك تفقد الأئيس والرفيق ، ولكن الرجل يفقد الأئيس والرفيق ، ويفقد مع ذلك المعين على ضرورات الحياة، فمن الذى سيعيد له طعامه ؟ أو ينظم ملابسه وفراشه ؟ . . .

وإذا كان له أولاد صغار ، فمن الذى سيرعى هؤلاء ؟ وإذا كان أولاده قد تزوجوا وتركوا البيت فمن الذى سيرعاه هو ؟ .

ثم إن الزوجة قد تجد ابنتها أو ابنها فى حاجة إليها لتساعده على تربية الأحفاد ، وهو شئ لا يحظى به الرجل .

وإذا جاز أن نقول كلمة عن الحاجة الجنسية عند وجودها ، فإننا نذكر أن صبر المرأة على الجنس أكثر من صبر الرجل .

والخلاصة أن الرجل يواجه بعد وفاة زوجته حالة بائسة ، تحتاج منا فى هذه الدراسة الاجتماعية إلى وقفة تفكير ، هناك أبناء غمر الإيمان قلوبهم ، وعزفوا عن حطام الدنيا ، وهؤلاء يسرعون للتفكير فى أبيهم ، وقد يجدون فى الأسرة أو فى محيطهم أرملة أو عانساً يمكن أن تكون زوجة لهذا الأب ، وذلك واجب على الأولاد ، ويزيد التزامه إذا كان الأب لا تزال فيه بقية من صحة أو حاجة للعلاقات الجنسية .

وهناك أبناء تركز طمعهم فى حطام الدنيا ، فهم لا يريدون لأبيهم زوجة تشاركهم الميراث عندما يموت الأب ، وهؤلاء قد ماتت قلوبهم حتى أصبحوا أقرب للقتلة والسفاكين ، إنهم يريدون عذاب الأب وموته حتى يخلص لهم كل شئ ، ولا يهمهم ما يعانى من آلام .

والخلاصة أن الإنسان عندما تتقدم سنه يكون أكثر حاجة لزوجة تصحبه فى خريف العمر ، وعلى الأبناء البررة ألا يتركوا أباهم يعيش فى وحدته ووحشته ينتظر الموت .

إنها دعوة للأبناء أن يؤدوا واجبهم تجاه الآباء ، فكما اتجه الأب لتزويج ابنه عندما بلغ مبلغ الشباب ، وفرح عندما زف له شريكة حياته ، فليتكز

الأبناء أن آباءهم أكثر حاجة للزوجة في فصل الحريف ، لأن الزوجة حينئذ هي كل شيء للشيخ ، وبخاصة أن حظه في ارتياد النادى أو في الرحلات أو حتى في ارتياد المقاهى قد قلَّ أو انتهى ، وذلك بخلاف الولد في شبابه لأن الدنيا تكون متفتحة له ، وليست الزوجة للشاب إلا اكتمالا للسعادة ، في حين أن الزوجة للشيخ هي كل شيء ، هي الحياة والبسمة والأمل .

بقيت كلمة نوصى بها هؤلاء الأزواج الذين فقدوا زوجاتهم ، وهذه الكلمة هي أن يختاروا الأنيس ، وألا يفكروا في جمال المرأة أو شبابه ، حتى لا نرث شابة لشيخ ، فنداوى مأساة ونخلق مأساة أشد خطورة .

وعندما نوصى بأن يتزوج الرجل الذى فقد زوجته ، ونوصيه بأن يتزوج أرملة أو سيدة قريية منه في السن ، فإننا بذلك نعالج أيضاً حالة المرأة التى فقدت زوجها ، لأنها ستكون المرشحة الأولى لهذا الفراغ .

وأشهد أنى أعرف حالات تمت فيها هذه الزيجات ، فرفرف الأنس والبسمة على بيت كان قد غمره الضباب والظلام .

الأولياء

والموالد وصناديق النذور وحلقات الذكر

مجموعة من الموضوعات متلاصقة أو متلاحقة ، يترتب بعضها على بعض
تبتدىء بحديث عن الأولياء وتأثيرهم في الحياة الاجتماعية ، ثم يلحق بالأولياء
موضوعات ارتبطت بهم بطريق أو بآخر ، وإن كانت في بعض الأحيان
تعيش منفصلة عنهم مع أن جنورها عميقة الصلة بهم .

والناظر إلى المجتمع الإسلامي في عهدنا الحاضر يجد « الأولياء » منتشرين
به انتشاراً واسعاً ، حتى لا تكاد قرية من القرى في البلاد الإسلامية تخلو
من ولي يُهرع الناس إليه ، ويتلمسون منه البركة ، ومن الواضح أن دوائر
الأولياء تختلف اتساعها اختلافاً كبيراً ، فبعض الأولياء يقنع بدائرة ضيقة
في قرية واحدة أو مجموعة متجاورة من القرى ، وبعضهم يتسع نفوذه
فيشمل جزءاً كبيراً من قطر أو قطراً بأكمله ، والناس تتبع هذه الدوائر
بمقدار الحاجة ، فهم يكتفون بولي قريتهم أو دائرتهم في الأمور العامة ،
يقسمون به ويقدمون له النذور ، أما في المشكلات الكبرى ، فإنهم يشدُّون
الرحال إلى الأولياء في الدوائر الكبرى ، فكان الواحد منهم يتبع مجموعة من
الأولياء تتناسب مع مشكلات الحياة ، ويكاد يكون هذا المظهر شائعاً في
كل البلاد الإسلامية ، لقد رأيت في إندونيسيا وبالهند ورأيت في قلب إفريقيا ،
وهنا في مصر يتضح هذا الوضع أدق وضوح .

ونحن في دراستنا عن الأولياء والموضوعات المتصلة بهم نعتمد على أدق
المراجع ، ونحاول في دعوتنا طريق اليسر ، أملاً في أن نقلل من الانحراف
أو نزيله ، وندعو جماهير شعبنا المسلم إلى قراءة هذه الدراسات في كثير من
التروى ، لعلنا نلتقي على ما يرضى الله ويرضى شريعة الله .

ما السولى ؟

يقول الإمام القشيري (١) : إن السولى له معنيان أحدهما (على أنه فعيل بمعنى مفعول) من يتولاه الله ويدبّر أمره ، فلا يكله إلى نفسه لحظة ، بل يتولى دائماً رعايته على حد قوله تعالى : « وهو يتولى الصالحين » (٢)

والمعنى الثانى (على أنه فعيل مبالغة من الفاعل) أى من يتولى عبادة الله وطاعته ، فعبادة الله تجرى لديه على التوالى من غير أن يتخللها عصيان .

ويقرر الإمام القشيري أن كلا الوصفين واجب حتى يكون الإنسان ولياً لله : يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء ، ودوام حفظ الله تعالى إياه فى السراء والضراء .

ولم يكتف الأئمة الصوفية بما ذكره القشيري ، بل يضيفون على الواجب ألواناً من الآداب يتحتم أن يتحلى بها الإنسان ليكون ولياً لله ، فقد حكى الأستاذ أبو على الدقاق قال : قصد أبو يزيد البسطامى بعض من وُصِفَ بالولاية ، فلما وافى مسجده ، قعد ينتظر خروجه من خلوته ، فخرج الرجل وتنخم فى المسجد فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة فكيف يكون أميناً على أسرار الحق (٣) ؟

وقد وضع الباحثون ما يمكن أن نسميه مقاييس يعرف ولى الله بانطباقها عليه ، وفيما يلى قبس من هذه المقاييس :

قال إبراهيم بن أدهم لرجل : أتحب أن تكون لله ولياً ؟ فقال نعم . فقال : لا ترغب فى شىء من الدنيا والآخرة ، وفرّغ نفسك لله تعالى ، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك .

(١) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥١٩ - ٥٢٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٦ .

(٣) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٢٠ .

ويقول النصر آبادي : ليس للأولياء مطلب ، إنما هو الذبول والحمول .

ويقول سهل بن عبد الله : الولي هو الذي توالى أفعاله على الموافقة (١)

ويذكر القشيري الصفات التي يلزم أن يتحلى بها الولي بقوله : صدقه أداء حقوق الله سبحانه ، ثم رفقته وشفقته على الخلق في جميع أحواله ، ثم انبساط رحمته لكافة الخلق ، ثم دوام تحمله عنهم بحميل الخلق ، وابتدأه بطلب الإحسان من الله عز وجل إليهم من غير التماس منهم ، وتعليق الهمة بنجاة الخلق ، وترك الطمع بكل وجه فيهم ، وقبض اللسان عن بسطه بالسوء عليهم ، والتصاون عن شهود مساويهم ، ولا يكون خصماً لأحد في الدنيا ولا في الآخرة (٢)

وهناك مقياس يتجاهله كثير من الناس ، واهمين أن التكاليف الشرعية قد يعنى منها من وصف بالولاية ، وذلك خطأ كبير ، فقد قرر علماء الصوفية : أن كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهي كفر (٣) .

ذلك هو الولي وتلك هي خصائصه كما ذكر الإمام القشيري خير من كتب في هذا الموضوع ، والأولياء الذين تنطبق عليهم هذه السمات وتلك الخصائص هم الذين نزل فيهم قوله تعالى « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » (٤) وعلى هذا فليس الولي من اتصل بنسب شريف أو لبس الأسماء ، أو راح يندى من العبادة والمظاهر ضوراً كأنما يدعو الناس بها أن يعدوه ولياً .

وينبغي أن يتضح أن كلمة « ولي » بالمعنى الشائع لم ترد في القرآن الكريم ولا في السنة على الإطلاق ، وإنما اقتصر ورودها في هذين المصدرين

(١) القشيري : الرسالة القشيرية ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٨٠ .

(٤) سورة يونس الآية ٦٢ .

بمعنى التناصر ، فولى الله هو الذى ينصر دينه ، ويدافع عن دعوته ، ويطيع
تعاليمه ، والله « ولى » الذين آمنوا ، أى ناصرهم ، ولنورد بضع آيات
تحمل هذا المعنى :

الله ولى الذين آمنوا (١) : ناصرهم .

ليس لهم من دونه ولى (٢) : نصير .

لا تتخلوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض (٣) : نصراء
وأصدقاء .

إنما وليكم الله (٤) : ملجأكم وناصركم .

وعلى هذا فمدلول الآيات تفيد أن كلمة ولى تنطلق على كل من تبع
دين الله ونصره ودافع عن دعوته وأطاع تعليماته ، وليست هناك طبقة خاصة
من بين المسلمين يطلق عليها « الأولياء » فالمسلمون كلهم أولياء الله وتتفاوت
مكانتهم فى الولاية بدرجات الطاعة والإخلاص . . .

أما الاستعمال الاصطلاحي للكلمة ، وحملها المعنى المتبادر للذهن الآن
عندما نقول هذا « ولى » فحديث النشأة ، ولم يكن بين صحابة الرسول أحد
يطلق عليه « ولى » مهما أكرمه الله بكرامة أو حباه بتكريم ، ويقول المؤرخون
إن الاستعمال الحديث للكلمة ظهر فى القرن الثالث وشاع فى القرن الرابع
وبدأ فى ذلك الوقت يظهر من يسمون الأولياء بالمعنى الحديث الذى يكثر معه
ارتفاع القباب وشد الرحال له ، والتبرك به ، وكان ذلك على يد الصوفية (٥)
أما غير الصوفية فقد ظلوا على تمسكهم بأن جميع المسلمين الذين يطيعون الله

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٥١ .

(٣) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٤) سورة المائدة الآية ٥٨ .

(٥) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢١٨ ومعجم الأدباء لياقوت ج ٤

ويقومون بأحكام الدين هم أولياء الله ، وسار العلماء والأدباء على هذا النظام فلم يعترفوا ببطيخة تسمى الأولياء ، ولذلك لا نجد عالماً من علماء الجغرافيا يتكلم عن ولي من الأولياء ، وكذلك لا نجد شاعراً يذكر أحداً منهم (١) .

وهناك ملاحظة أخرى نعلها خطيرة ، وهى أنه مع ظهور الأولياء فى القرن الثالث والرابع تغيرت مقاييس الولى التى سبق أن اقتبسناها من القشيرية وأصبح للولاية شرطان هما : أن يكون الولى بحاب الدعوة ، وأن تقع على يديه الكرامات .

الكرامات :

ومع إمكان حدوث الكرامات لمن تولاه الله ؛ فإن أئمة الصوفية لم يكونوا يهتمون بها ، ولم يكن يتعلق بها إلا العوام منهم ، فيحكى أنه قيل لأبى محمد بن عبد الله المرتعش : إن فلاناً يمشى على الماء . فقال : عندي أن من مكناه الله تعالى من مخالفة هواه ، أعظم من المشى على الماء ، وقيل لأبى يزيد البسطامى : فلان يمشى فى ليلة إلى مكة . فقال : الشيطان يمشى فى ساعة من المشرق إلى المغرب ، وكان أبو سهل التستري لا يعتد بإظهار الكرامات ويقول : أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك .

ومع موقف أبى سهل من الكرامات فإن عامة الصوفية حرصوا على أن ينسبوا له عدداً منها ، فقد جاءه رجل مرة ، فقال له : إن الناس يقولون إنك تمشى على الماء ، فأجاب : سل مؤذن المسجد فإنه رجل صالح لا يكذب ، قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدري ، ولكنه نزل الحوض فى بعض الأيام ليتطهر فوقع فى الماء ، ولولاى لغرق فيه (٢) ، بيد أن عامة الصوفية لا يقبلون هذا من أبى سهل ومن المؤذن ، ويرون أن هذه مظاهر لستر حال أبى سهل . وليت شعري إذا كان

(١) كشف المحجوب : كتاب باللغة الفارسية نقلا عن الحضارة الإسلامية لآدم متز ج ٢

ص ٤٢ و ص ٥٠ .

(٢) الرسالة القشيرية . باب كرامات الأولياء ص ٦٧٨ وما بعدها .

(١٤ - الحياة الاجتماعية)

أبوسهل أراد أن يستر نفسه أو أراد الله أن يستره، فلماذا حرص هؤلاء على كشف ما أراد الله بستره أو أراد أبوسهل ستره ؟ وهكذا اتجه أكثر الأئمة الصوفية إلى إثبات ستر الكرامات ، وكان الإمام أبوبكر بن فورك يقول : من الفرق بين المعجزات والكرامات أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها ، والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها ، والنبى يدعى المعجزة ويقطع بها ، والولى لا يدعى الكرامة ولا يقطع بها لجواز أن يكون ذلك مكرراً (١) .

ويقرر القشيري إنه فطن إلى كرامات بعض شيوئحه بعد موتهم ، ولم يفتن لها في حياتهم ، ويعلق القشيري على ذلك بقوله : لأن أحوال الولى تكون مستورة (٢) .

وقبل أن نترك الحديث عن الكرامة نقرر أن القرآن الكريم لم يتحدث عن الكرامة ، ولكن السنة الشريفة ذكرتها ، قال عليه السلام : رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره . وقد وجدت الكرامة في التاريخ وفي واقعنا كثيراً ، ومن أشهر الكرامات في التاريخ ما حدث لعمر بن الخطاب إذ رأى وهو على المنبر جيوش المسلمين وقد أوشك العدو أن يضربها من الخلف من جبل أهمل المسلمون تحصينه ، فصاح عمر بقائد جيش المسلمين واسمه سارية : ياسارية ، الجبل . وانصب ذلك الصوت في أذن سارية ، فسارع يحصن الجبل ويرد العدو ، واستمر عمر في خطبة الجمعة ونزل وصلى الجمعة ، وسأله الناس بعدها : ما قصة الجبل وقصة سارية ؟ وقد اتضح أن روجه لم تكن تحصرها جدران المسجد في هذه اللحظة ، وإنما امتد نظره إلى الأرجاء البعيدة .

وفي واقع حياتنا تحدث الكرامات لكثيرين من الناس تكريماً لهم ، ودفعاً للسوء عنهم أو عن ذويهم في ظرف من الظروف ، ويقرر الأستاذ

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٧٠٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٠٤ .

فريد وجدى (١) أن حدوث الكرامة ممكن من وجهة علم النفس ، فإن الإنسان متى استغرق جميع قواه في ذكر الله والفكر فيه حدث له من ذلك حال خاص يناسب جلالة الموضوع الذى فى فيه ، فتراه يستصغر كل كبير ، ويحتقر كل جليل ، ويزرى بكل لذة مادية وينظر إلى الخلق في تهالكهم وتفانيهم على حطام الدنيا نظرتة إلى طوائف الحيوانات تتنازع الجيف وتتجاذب ما فيه هلاكها :

ومثل هذه الحال إذا عاشها إنسان أشرق عليه أنوار روحانية ، فأكسبته بين الناس جلالة ، فظهر كأنه غريب فيهم ، أجنبي عنهم ، ومثال هذا لا يخلو مجتمع منه ، وحدث الخوارق على أيدي هؤلاء مؤكداً ، فإن الإنسان بانقطاعه عن علائق الدنيا وإقباله على الله ، أى على القدرة المدبرة المطلقة ، وتقليله من الطعام تشرق عليه قوى روحية بما لا يكون عند الدين انصرفوا إلى شهواتهم ووقفوا مع الحس في معاملاتهم ، فيكون من أثر هذا الإشراف تسلط هؤلاء على الماديات ، والإنسان مستودع كبير للقوى الروحانية ، ولكنها مغلوبة على أمرها باهتمام الإنسان بالماديات ، فإذا حصل العكس وأهمل الإنسان الماديات واهتم بالروحانيات ، فإن هذه القوى تنتعش وتقوى وتؤثر .

هل يعرف الولي أنه ولي ؟

والآن بعد هذه الدراسة التي أوردناها عن الأولياء والكرامات ، نسأل سؤالاً نريد له مزيداً من الإيضاح هو : هل يعرف الولي أنه ولي ؟ وهل يعرفه الناس ؟ .

في الإجابة عن هذا السؤال نقرر أنه بناء على الخصائص التي أوردتها القشيري للولي والتي ذكرناها آنفاً ، يوجد في العالم الإسلامي كثيرون ممن تولاهم الله وتولوه ، أدوا حقوقه وتخلقوا بأخلاق الإسلام ، وبالتالي رعاهم الله وحفظهم ، ولكن هل يعرف الواحد منهم أنه وصل إلى هذه المكانة

(١) دائرة معارف القرن العشرين : الجزء العاشر مادة (ولي) .

الخاصة ، أو بعبارة أخرى ، يعرف أن أعماله قد قبلت ، وأخلاقه قد طابقت روح الدين ، وأن الله خصه بمزيد من الرعاية والتكريم ؟ .

يقول القشيري (١) إن هناك اختلافاً في الإجابة عن هذا السؤال ، فبعضهم يرى أنه لا يجوز أن يعلم الولي أنه ولي ، لأن الولي يلاحظ نفسه بعين التصغير ، وإن ظهر عليه شيء من الكرامات خاف أن يكون مكرراً ، وهو يستشعر الخوف دائماً أبداً لخوف سقوطه عما هو فيه ، وأن تكون عاقبته بخلاف حاله ، وهؤلاء يجعلون من شرط الولاية وفاء المال ، ويضيف القشيري أنه إلى هذا الرأي ذهب جمع من الشيوخ لا يحصون ، وذهب إليه كذلك من شيوخ القشيري الإمام أبو بكر بن فورك ، وقد ورد في الحديث قول الرسول : إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأنقياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يُدْعَوْا ولم يُعْرَفُوا .

ومن الناس من قال إنه يجوز أن يعلم الولي أنه ولي ، وليس من شرط تحقيق الولاية في الحال الوفاء في المال .

وعلى الرأي الأول لا يعرف الناس الولي لأنه هو لا يعرف نفسه ، وعلى الرأي الثاني لا يعرفه الناس أيضاً لأنه إن عرف نفسه ستر أمره ، وهيهات أن يصل ولي إلى درجة الافتخار والمباهاة أو إبراز ما منحه الله من تكريم .

ويرى بعض المفكرين إمكانية أن يعرف إنسان الولاية في إنسان لسبب من الأسباب كأن يراد منه أن يساعده في شيء أو يسهل له أمراً في سبيل الله .

وبناء على هذا لم يُعْرَف الأولياء الحقيقيون ، ولكن عامة الصوفية وبعض العامة كانوا يندفعون اندفاعاً نحو العشور على بعض الناس يمنحهم نوعاً من التقديس والتعظيم ، وليعدوهم أولياء ، كيف وجدوهم ؟ .

وجلسوهم في فريق من الرجال والنساء ينحدرون من البيت النبوي الكريم ، وكان اتجاه الشيعة في هذا المجال أوسع وأعمق (١) .

ووجد عامة الصوفية وعامة الناس بعض الصالحين فجعلوهم أولياء ، وأحياناً خُذعوا ببعض المدعين أو البلهاء أو المستترين في الأسماء فعدوهم أولياء ، إذ كان العامة في حاجة إلى شخص ملموس أو ضريح يُرى يتوسلون به بعد أن ضعفوا على الصلة المباشرة بالله العلي العظيم ، لأنهم لم يستطيعوا رؤيته في خلقه وفي أفعاله ، أو لم يكتفوا بذلك فاهتموا بالبحث عن وسيط ، وهو ما دفع المصلحين بنجد للقضاء على الأضرحة والمقابر حتى لا يتعبد بها الناس .

وهذا يصل بنا إلى شيء منهم يرتبط بالأولياء ، فعلى فرض أننا عرفنا بعض الأولياء ممن اختصهم الله بالرضا فماذا نفعل معهم في حياتهم أو بعد موتهم ؟ لا شيء ، يمكننا أن نفعله معهم في حياتهم سوى الاحترام كأنا نرى أن الله راض عنهم ، فإذا ماتوا اتبعنا معهم ما يتبع مع سواهم من المسلمين من غسل وتكفين وصلاة ودفن ، ولا شيء أكثر من هذا ، لأن أمرهم أصبح موكولاً إلى الله ، وتكون قبورهم كقبور سائر المسلمين يحرم تشييدها وزخرفتها وإقامة المقاصير عليها ، كما يحرم وضع الأستار والعائم عليها ، وكذلك إيقاد الشموع والثرثريات حولها (٢) وقد سبق أن ذكرنا الأحاديث الشريفة التي تحرم بناء القبور وتخصيصها على جميع المسلمين على السواء .

هذا عن تشييد القبور والأضرحة ، أما زيارة قبور الأولياء فتكون على نمط زيارة قبور المسلمين ، للذكرى والدعاء والاعتبار ، كما ذكرت أحاديث الرسول التي سبق أن اقتبسناها ، وكما كان يُفعل مع قبور الصديقين والشهداء والصالحين من الرعيل الأول للإسلام ، وما زاد عن ذلك فهو

(١) كلنا نجل الصالحين من آل البيت ، ولكن الإسلام علمنا الوسائل الصحيحة لاحترام الصالحين .

(٢) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت . الفتاوى ص ١٩٠ .

تجاوز للحد المشروع في زيارة القبور ، واقتحام لغير المشروع باسم المشروع ؛ فوقفه الاستئذان على باب الضريح ، واستقباله مع رفع الأكتف بالضراعة والمناجاة ، والطواف حوله مع تقبيل جوانبه والتسبح بحديده أو خشبه ، وشرح القضايا والمهام . . عمل غير مشروع ، ويأباه الله ويأباه الرسول ، ويغضب منه أصحاب الأضرحة أنفسهم» (١) .

وفي الحديث الصحيح : إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك .

وهكذا يحرم الإسلام بناء القبور وتشيد المقاصير ، ثم يحرم في زيارة الموتى أن نطوف بهم وأن نستغيث بجاههم ، وهناك موضوع ثالث لعله أكثر تحريماً من هذين ، ذلك هو اتخاذ قبور هؤلاء مساجد ، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : إن من كانوا قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن ذلك ، وهكذا نهى الرسول وشدد في النهي عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، وذلك يصدق على الصلاة إليها والصلاة فيها ، فيجب - محافظة على عقيدة المسلم - لاختفاء الأضرحة من المساجد ، وبخاصة إذا كانت من جهة القبلة ، ومن باب أولى يجب منع الصلاة في نفس الضريح (٢) ويشدد الحرص على ذلك مع العوام الذين هم أقرب إلى الزلل ، والذين يبالغون في اتجاههم إلى الأولياء والهتاف بهم ، وليتذكر المسلمون قول الله تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٢٢٢ وانظر « فتاوى شرعية لفضيلة الأستاذ حسين مخلوف »

ج ١ ص ٣٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤-١٠٥ وانظر كذلك فتاوى ابن تيمية ج ١ ص ٢٩٣-٢٩٤

(٣) سورة الجن الآية ١٨ .

وقبل أن ندع موضوع الأضرحة والقباب نقرر أننا لا نتبنى السياسة التي تقضى بإزالة هذه الأضرحة ، وإنما نميل إلى حل أهدأ يتخذ عناصره من ناحيتين ، الناحية الأولى قيام حملة توجيه وإرشاد لیتجه الناس إلى الله داعين وراجين فهو أقرب إليهم من جبل الوريد ، قال تعالى « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » (١) ولنصرفوا تماماً عن الاتجاه لغير الله ، والناحية الثانية ألا نقوم بتشديد هذه القباب والأضرحة فى المستقبل ، وذلك سينتج بطبيعة الحال عن هذه الحملة الإرشادية الكبرى ، ولنترك قباب الماضى على أنها شىء من التاريخ تدل على مدى التفكير فى فترة من الفترات ، وهى بهذا مادة للدراسة من ناحية تطور الفكر التاريخى ، ومن ناحية الفن المعمارى ، وتعليم الناس هو الذى يبعدهم عن تقديس الموتى ، أما إذا هدمنا القباب واستعضنا عنها بحجر أو خشبة بدون تعليم وتوجيه فإن الناس سيظلون على تقديس الأولياء ، ارتفعت فوقهم القباب أو أزيلت ، وهناك أولياء يقدرسون وليس فوقهم قباب وليست لهم أضرحة .

الموالد :

عند الحديث عن الأعياد تكلمنا عن الموالد الست التى اقترحها الفكر الفاطمى لأغراض مذهبية ، وقد كان إحياء هذه الموالد فرصة لعامة الصوفية وعامة الجماهير ، فقد أضاف هؤلاء عدداً لا يحصى من الموالد لشخصيات مختلفة من الذين وضعهم هؤلاء بحق أو بدون حق فى قائمة الأولياء ، ويبدو من ملاحظة نسب أصحاب الموالد ، أن الغالبية العظمى منهم تتصل بأسرة الرسول صلوات الله عليه ، ونستطيع أن نلمح من هذا الاتجاه ملامح الفكر الفاطمى ، فبينما لم يعرف الناس مولداً لأبى بكر ولا مولداً لعمر وأمثالهما من كبار المسلمين ، عرفوا عشرات الموالد لمن يتصلون بالدوحة المباركة أى اتصال .

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

وهناك اتجاه ييسر على الناس أحوالهم ، فيرى في المولد فرصة لإشاعة السرور والبهجة في صدور الناس ، ومن هنا عدت الموالد نوعاً من الأعياد ، وربما كان لهذا الاتجاه ميلنا لو وقفت الموالد عند هذا الحد ، أو شملت بعض ما هو نافع وطيب ، كأن توجد بها حلقات للعلم والمعرفة ، وصور من الوعظ والإرشاد ، وتوجد بها كذلك سوق للكتب ونشر للمعرفة ، مع شيء من الموسيقى والأناشيد الدينية ، وعلى أن تخلو الموالد من كل شيء يتنافى مع الفكر الإسلامى .

ولكن الموالد كما نعرفها لا يجيزها الإسلام ، وهيئات أن يجيز الإسلام أن يخرج أفواج الناس رجالاً ونساء وأطفالاً متجهين إلى صاحب المولد ليلقوا عليه أحباهم ، وهيئات أن يجيز الإسلام ذلك الصخب والضجيج الذى ينشره المقامرون والمشعوذون والراقصون ، ويندس به المتسولون والمتسولات والنشالون والنشالات ، وهيئات أن يبيح الإسلام أن تمسح وجوه العبادة ، وتستباح البدع المنكرة ، وتنتشر الآثام التى تخالف الفضيلة (١) .

وفى بلى نعطى صورة واضحة المنكر لبعض الموالد التى يقيمها الناس ؛ وفى الهند يقيم مولد لولى واسع الشهرة ، هو الشيخ معين الدين شينسى ، ويدعو أهل الشيخ وذووه الناس من مختلف الأقطار الإسلامية فى الشرق الأقصى للاشتراك فى هذا المولد ، ومن نص الدعوة التى وزعت فى إحدى السنوات تقتبس العبارات الآتية :

« وفى هذه المناسبة سيفتح « باب الجنة » المؤدى إلى الروضة الشريفة ، وسيظل مفتوحاً مدة ستة أيام ، وسيباح للمحبين والمريدين أن يدخلوا هذه الجنة ، وأن يقوموا بالطواف سبع مرات حول الروضة الشريفة كما يفعل

(١) انظر الوصف الشامل الذى كتبه فضيلة الشيخ شلتوت عن الموالد كبراء للمفاسد فى كتابه « الفتاوى » ص ١٩٣ - ١٩٤ .

الحججاج في مكة المعظمة ، ومن المأثور أن هؤلاء الذين سيعبرون باب الجنة إلى الروضة ستفتح لهم أبواب الجنة بعد موتهم

« وأكثر من ذلك فإن أحباب الله الذين ينوون الحج إلى مكة وتمنعهم ظروف خاصة عن القيام بذلك ، يمكنهم أن يجثوا لزيارة روضة الشريف ، وسيجنون منفعة عظمى من هذه الزيارة

— وستفد في أثناء هذا الاحتفال العظيم وفود كثيرة ؛ حيث يقومون بالطواف والزيارة ويملئون قلوبهم بالأمل والغبطة

« وكل آلام السفر التي يتحملها الوافدون لهذه الزيارة ستقلب لهم أمناً وهدوءاً وسكينة (١) . »

وأولياء الله هم — بنص كتاب الله — الذين آمنوا وكانوا يتقون ، كانوا في حياتهم عباداً مخلصين ، لم يتجهوا بقلوبهم إلى غير الله ، ولم يقفوا بباب أحد سواه ، ولم يرفعوا أكف الضراعة إلا إليه ، وكانوا يدعون الناس إلى هدى الله وشرعه ، وهم يحبون من الناس أن يسلكوا سبيلهم ، يعبدون الله كما عبدوه هم ويتقربون إليه بما تقربوا إليه ، فإذا ما انحرفنا عن طريقهم فوجهنا وجوهنا — في عبادة الله — إليهم ، وأحطنا قبورهم بالمنكرات والموالد الحافلة بالآثام ، فإنهم يغضبون لذلك ولا يرضون بهذه المنكرات (٢) .

صناديق النذور :

ويتصل بالأولياء والموالد موضوع النذور وصناديق النذور ، ويتحتم علينا أن نذكر رأى الإسلام في النذور ، وكيف حرفه العامة وربطوه بالأولياء

رأى الإسلام في النذور :

يقول الفقهاء إن النذر هو أن يوجب المسلم على نفسه أمراً لله لم يكن

(١) انظر الوثيقة كاملة في كتاب المجتمع الإسلامى للمؤلف ص ٣١٨ وما بعدها .

(٢) الفتاوى : للامام الأكبر الشيخ شلتوت ص ٢٢٠ .

ملتزماً به ، ويحتمون أن يكون النذر لله تعالى ، ويقررون أنه لا يحل النذر لولى ولا لغيره وإن وقع يكون باطلا .

واختلف الأئمة في حكم النذر لله ، فقال الحنابلة بكراهته ولو كان لعبادة ، وفي ذلك يقول ابن حزم (١) : وَيُسْنَى عَنْ النَّذْرِ جَمْلَةً ، فَقَدْ رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍاهُ قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَى عَنِ النَّذْرِ وَيَقُولُ : لَا يَرُدُّ شَيْئاً وَإِنَّمَا يَسْتَخْرِجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ .

فإن وقع النذر وكان في طاعة ، وجب الوفاء به ، أما إذا كان النذر في معصية كقوله لله على نذر إن قابلت فلاناً لأقتلنه ، فلغو وباطل ، وقال الشافعية والحنفية بنديه إذا كان فيه قربة لله من صلاة أو صوم أو حج أو صدقة ، وكراهته إذا كان نذر لحاج ، وفصل المالكية فقالوا إنه يكون مندوباً إذا أوجبه الإنسان على نفسه لنعمة حصلت فعلا له أو نعمة دفعت فعلا عنه ، كأن يقول لله على نذر أن أصوم غداً شكراً لله . . أما النذر المعلق وهو أن ينذر قربه لله إذا حصل له شيء من الله كأن يقول : إن شفى الله مريضى فعلى كذا ، فبعضهم يقول بكراهة هذا ، وبعضهم يقول بجوازه ، ولكن هذا الاختلاف إذا كان الناذر لا يعتقد أن مثل هذا النذر نافع في حصول غرضه ، أما إذا كان معتقداً ذلك فإن النذر يصبح محرماً ، قال صلى الله عليه وسلم : لا تنذروا فإن النذر لا يرد من قضاء الله شيئاً .

أما إذا علق النذر على شيء من فعله هو ، كقوله إن فعلت كذا فعلى صوم الخميس ، فإن هذا النذر يكون مكروهاً .

أما الوفاء بالنذر لله فواجب ، قال تعالى « وليوفوا نذورهم » (٢) ولكن بشرط أن يكون النذر لطاعة ، فإن نذر معصية فلا يجوز أن يقوم بها ،

(١) المحل ج ٧ ص ١٠ .

(٢) سورة الحج الآية ٢٢ .

قال صلى الله عليه وسلم : من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه « (١) .

النذور لله فقط وفي طاعة :

ذلك هو مجمل القول في النذر ، وعلى هذا فلا يمكن أن يكون النذر لغیر الله ، ولا يمكن أن يكون في معصية ، ويكره أن يعلق بشيء ، ويحرم إذا اعتقد الناذر أن النذر نافع لتحصيل غرضه ، وعلى هذا فإن من ينذر نذراً لولي إن نجح ولده أو شفى مريضه فالنذر باطل ، وقد يذكر الناذر اسم الله مع توجيه النذر للولي كأن يقول لله على نذر إن نجح ابني أن أذبح ذبيحة لفلان الولي ، أو أن أعمل له « ليلة » فهذا نذر باطل أيضاً ، ويجيزه بعض العلماء على ملاحظة الجهل في الناذر وتصور النذر على أنه لله وأن « الليلة » أو المال صدقة للفقراء فإذا لم يذكر اسم الله فالنذر باطل بالإجماع (٢) .

وفي كلمة واحدة يحتم جمهور الفقهاء أن يكون النذر قربة لله ، ولا يذكر معه غيره ، وينبغي ألا يكون مشروطاً بنجاح أو شفاء أو نحوها ، لأنه يأخذ صفة المقابلة والمبادلة ، ومن الخير للراغب في النجاح أو في شفاء مريضه أن يدعو الله دعوة خالصة ، فإذا حقق الله رغبته نذر نذر شكر على ما نال .

ومن هنا يتبين لنا أن صناديق النذور الموجودة بأضرحة الأولياء لا تتمشى مع الفكر الإسلامي ، لأن النذر ارتبط بولي والنذر لا يرتبط إلا بالله ، والمال الذي ينذره الإنسان لله يقدمه لعباد الله المحتاجين إليه ، وقد يقال إن صناديق النذور ينفق منها على خدم الضريح أو المسجد المتصل به ، ونقول إن الفكر الإسلامي لا يوافق على أضرحة ولا على خدم لها ولا على مساجد تتصل بها ، كما ذكرنا من قبل ، وعلى هذا فما يوجد في صناديق

(١) الجزيري : الفقه على المذاهب الأربعة ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) فضيلة الأستاذ الشيخ حسين مخلوف : فتاوى شرعية ج ١ ص ٣٧٤ .

الندور يصرفه أولو الأمر للفقراء والمساكين وفي وجهات البر والمصالح العامة (١)

دراسة واقعية عن حصيلة الندور وتوزيعها :

نشرت صحيفة الأخبار يوم ١٩٨٤/١٢/٢١ دراسة خطيرة رسمية عن مقدار حصيلة صناديق الندور وعن الطريقة التي اتبعت في توزيعها ، وهي معلومات غريبة وعجيبة ننشر موجزها فيما يلي :

في جلسة المجلس المحلي لمحافظة الغربية ذكر الشيخ سيد نصار مدير الأوقاف بالمحافظة أن أموال الندور بمدينة طنطا بلغت سنة ١٩٨٤ مليوناً و ٨٦٦ ألف جنيه ، منها مليون و ١٥٠ ألفاً حصيلة صندوق السيد البدوي .

وعن عملية توزيع هذه الندور قال الشيخ سيد ما يلي :

- حصل خليفته السيد البدوي على ١٠٣,٥٧٢ جنيهاً هذا العام .
- حصل حامل مفتاح المقصورة على ٣٤,٥٢٤ جنيهاً هذا العام .
- إمام المسجد حصل على ١٣,٨٠٠ جنيه هذا العام .
- رئيس العمال حصل على ٩,٢٠٠ جنيه هذا العام .
- كل عامل من عمال المسجد حصل على ٤,٦٠٠ جنيه هذا العام .

وأثارت هذه الأرقام دهشة أعضاء المجلس لأنها أضعاف ما خصص لرئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء ، ولأنها تفوق ما قدرته الدولة للعاملين ، إذ حدد القانون أن المكافآت لا تزيد عن ٢٥ ٪ من المرتب .

وطالب الأعضاء بإنفاق أكثر هذه الحصيلة على إصلاح المساجد وتعميرها بالمحافظة أو بالقطر كله ، وأن تخضع مكافآت عمال المسجد الأحمدي إلى القانون .

وليت ذلك يتبع مع جميع صناديق الندور بكل المدن المصرية . وقد أكد أحد أعضاء المجلس المحلي أن التبرعات العينية داخل المسجد تفوق حصيلة الصندوق .

(١) الفتاوى : الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت ص ٢٤٢ .

حلقات الذكر :

بقى من الموضوعات التي ارتبطت بالأولياء في أكثر الأحوال ، وإن انفصلت عنهم أحياناً ، موضوع حلقات الذكر التي تشيع في الريف في كثير من الأحوال ، وإنما ارتبطت حلقات الذكر بالأولياء لأن عامة الصوفية هم الذين عظموا الأولياء وقدسوهم وأقاموا لهم الموالد ونصبوا هذه الحلقات ، وقد وجد هؤلاء الدراويش في حلقة الذكر « الحضرة » ملاذاً لهم من الفقر ومن العمل ، ويصف الخوارزمي جماعة الدراويش بقوله : إن الواحد منهم خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق ، لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات ، ولا يستبطئه إخوانه ، ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر منه في الفطر صدقة ، ولا في العيد أضحية ، فهو كالمسجد يحمل إليه ولا يحمل عليه ، ويؤخذ بيديه ولا يؤخذ من يديه ، فهو إما غانم أو سالم (١) .

واتخذ هؤلاء الدراويش أو عامة الصوفية حلقات الذكر وسيلة لتحقيق هذه الغاية ، والعهد بالذكر الصحيح أن يكون استحضاراً لعظمة الله وامتناء للقلب بجلاله ، بطريق النظر في بديع صنعه ، وآثار قدرته وحكمته ، وأن يكون اتصالاً للطاعة واستمراراً لتعلق الإنسان بربه واسترشاده به . وطلبه الهداية منه .

ذلك هو الذكر الذي أوصى به الله تعالى في كتابه الكريم ، عندما قال : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » (٢) وعندما عدّ « الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » (٣) بين الطوائف التي أعد لها مغفرة وأجرًا عظيمًا ، وليس منه إطلاقاً ذلك الصخب والصياح الذي لا يحمل الحشية والخشوع والرهبة لنفوس الذاكرين مع أن هذه الصفات هي المظاهر الحقيقية للذكر

(١) رسائل الخوارزمي : ص ٩٠ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤١ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٥ .

قال تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » (١) . وقال « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (٢) .

وفي بحث بعنوان « فاذكروني أذكركم » يقول أحد الكتاب : وإني أعيذ القارئ أن يفهم من الذكر تلك الحركات البهلوانية التي يضطنحها ويجيدها بعض مدعي التصوف ، وتلك الأصوات العالية التي ترتفع من الأفواه ولا تتجاوز الحناجر إلى ما وراءها ، إنما يراد بالذكر أن يكون المؤمن على صلة دائمة بالله في عباداته وفي عمله ، في خلوته وحين يكون مع الناس ، فهذا الذكر هو الذي يحمل المؤمن على أن يستحي من ربه فلا يغفل عن مراقبته ، ولا يجرؤ على معصيته ، ولا يقصر فيما أوجب عليه ، وهو في خالاته كلها ممتلىء القلب بالخشوع لله والامتثال له ، والحياء منه (٣) .

على أن الرسول صلى الله عليه وسلم حدد مكانة حلقة الذكر الصحيح بالنسبة لحلقة العلم . فقد روى أن الرسول دخل المسجد فوجد به حلقتين إحداهما فيهما قرآن وذكر والثانية حلقة علم ، فقال : كل على خير ، وحلقة العلم أفضل ، وقد بعثت معلماً . ومال إلى حلقة العلم وجلس بها (٤) .

ومما يؤخذ على حلقات الذكر المعروفة تحريف النطق باسم الله تعالى بحيث تسمع كلمة « الله » من هؤلاء وقد اشتد بهم الهياج كأنها : أه أه . وهو تحريف يلزم لإيقافه والعودة للنطق الكامل الصحيح .

بقيت كلمة مهمة في ختام هذا البحث نذكر بها رأيا عن حلقات الذكر المنتشرة في الريف ، وتلك الكلمة تشبه ما ذكرناه آنفاً عن الموالد إذا نخلت من كل إثم وأصبحت مقصورة على البهجة والذكرى وحلقات العلم وما مائل

(١) سورة الأنفال الآية الثانية .

(٢) سورة الرعد الآية ٢٨ والنظر الفتاوى ص ١٩٧ .

(٣) دكتور مصطفى زيد في منبر الإسلام (عدد شعبان سنة ١٣٨٦) ص ١١٢ .

(٤) رواه ابن ماجه .

ذلك ، والكلمة التي نريد إثباتها هنا مرتبطة بنوع من الخبرات والاتصالات بالريف ، فإن التجمعات لحقات الذكر بالريف تضم أكثر الناس هناك استقامة وحسن خلق ، وهناك جموع أخرى بالريف مفرقة في غيرها كتجمعات التآمر وتدخين الحشيش واللصوصية ، ومن الحق أن يحتضن المصلحون التجمعات الطيبة التي تضمها « الحضرة » ليأخذوا منها مادة أكثر استجابة للخير والإصلاح ، بدل أن يحاربوها وينقضوا عقدها ، ولكن هذه التجمعات ينبغي — بما فيها من ميل للخير — أن تستجيب لدعاة الخير والإصلاح ، فنجعل من تجمعاتها وسيلة للذكر الجماعي الصحيح بحيث تنطق باسم « الله » نطقاً سليماً إن ذكرت اسمه الكريم ، وحيث تكون أقرب للبخشوع والإجلال من الصياح والصخب ، وحيث يستمعون إلى باحث يعرض عليهم ألواناً من عظمة الله يلمسها الإنسان في نفسه وفيما حوله ، ليكون ذلك زاداً يبق ، ومعارف توجه صاحبها توجيهاً سليماً . وبالله التوفيق .

مكبرات الصوت

إذا كنت أتجه بمباحث هذا الكتاب إلى المسلمين في كل أنحاء العالم ، فإن الكلام عن « مكبرات الصوت » يوشك أن يكون حديثاً خاصاً للمصريين ؛ فلقد طفت أكثر البلاد الإسلامية وغير الإسلامية وعشت فيها فترات قصيرة أو طويلة ، ورأيت أفراحها ومآتمها وصوراً من احتفالاتها ، ولكنى لم أجد هذه الآفة التى يسمونها « مكبرات الصوت » منتشرة إلا فى بلادى ؛ والموضوعات التى نبحثها عن « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » تتطور بتطور الحياة ، فيظهر فيها بحث عن التلقيح الصناعى ، وحلقات الذكر ، ... عندما توجد هذه الأشياء ولذلك كان من المحتم أن ندرس هنا موضوع مكبرات الصوت لنرى ما به من فوائد ومضار ، ولنرى رأى الإسلام فيه إن كان ضاراً .

وهذا المكان من مباحث هذا الكتاب هو أنسب مكان للكلام عن « مكبرات الصوت » فقد تحدثنا فيما سبق عن الأفراح والمآتم والموالد وحلقات الذكر ، وتوشك « مكبرات الصوت » أن تكون عنصراً هاماً من عناصر هذه المناسبات ، فلا نكاد نرى اليوم مناسبة منها دون أن يبدو فيها هذا « الميكروفون » اللعين بسبب وبدون سبب .

وقد بالغ الناس فى استعمال « مكبرات الصوت » مبالغه شديدة ، وأذكر مرة أننى سمعت تجارب تجرى لإعداد هذا الجهاز ، فتوقعت مناسبة من المناسبات يحيطها مغن أو قارئ مثلاً ولكن الوقت مر ، ولم نسمع من هذا الجهاز إلا عبارات بدائية يقولها مهنئون لأصحاب عرس ، وإلا عبارات ترحيب من هؤلاء لزوارهم ، ويصمت هذا الجهاز حيناً ثم يزعم واحد من هؤلاء فيه . وفى مرة أخرى كان هناك مأتم صغير بالريف وكان قارئ

القرآن ففى عادى الصوت أو قل إن صوته كان أقل من العادى ، وكان جديراً به وبأصحاب المأتم أن يحفظوا هذا الصوت فى دائرة ضيقة ، ولكن المسكين أخذ يقرأ فى الميكروفون وليس هناك من يستحسن الاستماع إليه .

وهكذا فقد هذا الجهاز معناه ، فقد اخترعه مخترعوه وسيلة فأصبح غاية ، اخترعوه لينقلوا به صوتنا إلى من يحتاج لسمع هذا الصوت ، وإذا به الآن يفقد مدلوله ويفقد مكانته ، فيؤتى به دون أن يوجد من يتكلم أو دون أن يوجد من يحتاجه للسمع .

ومن الطبيعى أن هذا الاختراع فى حد ذاته عظيم الفائدة عندما يحسن استعماله ، وقد ظهرت الحاجة إليه ملحة منذ عهد طويل ، ويذكر التاريخ أنه فى غزوة حنين عندما دفعت المفاجأة المسلمين إلى الفرار ، صمد الرسول وقاتل ، وأراد أن ينادى المسلمين ليعودوا إليه ، فطلب من عمه العباس أن يفعل ذلك وكان صوته جهورياً . وتكررت أمثال هذه الحالة عدة مرات فى التاريخ ، فكم من خليفة احتاج أن يلقى خطاباً وهو مريض ، فألقاه بصوت خفيض وبجواررة إنسان جهورى الصوت ، ينقل عباراته للناس ، لهذا ولسواه من نظائره اخترع العلماء هذا الجهاز المفيد ، وطالما نفتقده الآن فى الجامعات لتصل أصواتنا إلى أذان الأعداد الكبيرة التى تزدهم بها المدرجات

وهكذا اخترع هذا الجهاز لهذه الغاية ، كما اخترع نفير السيارة لتنبيه المارة ، وكما اخترع الجرس بالمدرسة أو بالمنزل للتنبيه بموعد أو بمقدم زائر ، وكما اخترع جهاز للتبريد وقت القيظ وجهاز للتدفئة وقت الصقيع وإننا نقولها كلمة حاسمة ، هى إن استعمال مكبر الصوت لغير الغاية التى اخترع من أجلها ليس إلا استعمال النفير دون مارة ، أو كاستعمال جهاز التبريد فى الشتاء ، أو جهاز التدفئة فى قيظ الصيف . . .

وفي كثير من اجتماعات العزاء أو الأفراح يوجه أصحابها مكبر الصوت ، لا إلى داخل السرادق أو مجتمع الناس ليسمع المعزون أو المهنتون ، بل يوجهونه إلى الخارج ، ليمتد صياحه إلى ما شاء الله . ويفرض على الناس سماع ما لا يريدون ، أو ما هم عنه في شغل شاغل .

وقد حدد علماء التربية الإسلامية بدقة مدى صوت المدرس ، فذكروا أن على المدرس ألا يجاوز صوته مجلسه ، وألا يقصر عن إسماع الآخرين (١) . وهذا هو المدى الذي ينبغي أن يستعمل مكبر الصوت فيه ، أي أن يوصل الصوت إلى من يترقبه ويريد سماعه ، ولا يزيد .

كم من مريض أربقه هذا الضجيج ، وكم من نائم أرقه هذا الصياح ، وكم من طفل أزعجته هذه الأصوات ، وفي فترة الامتحانات يضج الطلاب المبكيون على دروسهم ، ولكن أصحاب المناسبات لا يرحمون ، والعلماء الباحثون ، والعابد في خلوته ، والرجل في أهله ، كل هؤلاء يحتاجون للسكون والهدوء ، ولكن هذا « الميكرفون » يخرق الفضاء ، ويشتت الفكر ، ويقصّب المضجع .

وإذا وضعنا الاستعمال الخاطئ لهذا الجهاز في مقياس الإسلام ، وجدناه أذى للناس ، والمؤمن مأمور بكف الأذى عن الناس ، بل بأن يكون رحيماً بهم ما استطاع السبيل لذلك ، قال تعالى :

— محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم (٢) .

— قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون (٣) .

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ٣٩ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩ .

(٣) سورة المؤمنون الآيات ١-٣ .

والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً (١) .

ويقول الإمام الغزالي (٢) وهو يتحدث عن حقوق المسلم على المسلم : . . . ومن هذه الحقوق ألا يؤذى أحداً من المسلمين بفعل ولا قول ، قال صلى الله عليه وسلم : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وقال في حديث طويل يأمر الناس فيه بالفضائل : . . . فإن لم تقدر فدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدقت بها على نفسك ، وقال : لقد رأيت رجلاً ينعم في الجنة بسبب شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين وقال : من زحزح عن طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم ، كتب الله له به حسنة ، ومن كتب الله له حسنة ، أوجب له بها الجنة ، وقال : لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه ، ولا يحل لمسلم أن يروع مسلماً ، وقال : إن الله يكره أذى المؤمنين .

وفي الحديث الشهير : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

ويتضاعف ضرر « مكبرات الصوت » وإثمها في كثير من الحالات ، فإذا أزعجت المصلين ، ونحالت دون الخشوع في الصلاة فهي إثم ، وإذا عرضت القرآن الكريم بحيث لا يستمع له الناس ولا ينصتون له لانشغالهم بأغنائهم فهي إثم ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » (٣) فيجب أن يقرأ القرآن لمن يستعد لسماعه والإنصات إليه ، أما أن يقرأ لرجل كادح في حقله أو عامل في مصنعه بحيث لا يستطيع السماع والإنصات فهو تعريض القرآن الكريم لما لا يجب أن يتعرض لإياه ، وفي كثير من الأحوال وبخاصة في الموالد يكثر عدد مكبرات الصوت ، ويستطيع الواحد وهو واقف في مكانه أن يستمع إلى

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٨ .

(٢) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠٤ .

ثلاثة أو أربعة منها ، وكأنما كل واحد يريد أن يخفت صوت الآخرين أو يتغلب عليها ، وبعضها أو كلها يذاع منها القرآن الكريم ، ولا شك أنه من الإثم أن يوضع القرآن الكريم في هذه المكانة .

وبعد ، هذه صيحة نرجو أن يتدبرها الناس ليمنعوا ضرراً محققاً دون أي نفع على الإطلاق ، إنها عادة مرذولة ، وبدعة ضالة ، فليوقفها الرأي الحازم والفكر الرشيد ، ومن العجيب أن الجهات الحكومية المختصة أدركت سوء استعمال هذا الجهاز فقررت ألا يستعمل إلا بإذن خاص من الشرطة ، ولكن يؤسفنا أن نقرر أن الإذن يعطى دائماً ، وما هو إلا أن يطلبه الطالب فيجاب له ، فليت شعري لماذا كان الإذن إذا لم يتحقق مانحه من الضرورة التي تدعو لاستعمال هذا الجهاز ؟ .

والذي قلناه عن مكبرات الصوت ينطبق على المذياع وبخاصة (الترانزستور) وعلى أجهزة التسجيل وأمثالها ، فكثيراً ما يرفع أصحابها أصواتها إلى ما يتعدى نطاق حاجتهم ، وقد اضطرت بعض الأندية والمحال العامة المخصصة للترويح (الكازينوهات) أن تضع لوحات تكتب عليها منع استعمال (الترانزستور) وذلك حرصاً على راحة روادها ، وتنظيماً لاستعمال هذه الأجهزة .

إن العقل السليم يحكم هنا بما يحكم به الشرع ، وما أشق أن نضر الناس دون أن ننفع أنفسنا بما نضر به الآخرين .

* * *

وكلمة أخيرة نذكر فيها ما يؤكد أطباء الأذن ، هي أن أجهزة السمع

تعتمد على شعيرات دقيقة وضعيفة جداً ، وتؤديها الأصوات المرتفعة ، مما يسبب ضعف السمع وأحياناً يسبب الصمم لمن يتعرضون للأصوات العالية . بل إن الأصوات المرتفعة تهدد الصحة عموماً .

وتقول الإحصائيات إن ضعف السمع قد انتشر الآن بين الشبان بسبب انتشار مكبرات الصوت التي يكثر ضررها ويقل نفعها .

الترويح عن النفس والرياضة

التسلية ، واللهو البريء ، والرياضة التي تنشط الجسم والعقل ، كلها أشياء لازمة للإنسان ، وتكوّن عناصر ضرورية في حياته ، فالإنسان الذي يعمل من حقه أن يلعب ، والذي يجد من حقه أن يستجم ، والذي يكدح من حقه أن يستريح ، وقد قال علماء التربية إن اللعب يفيد العمل ، وأن الذي يعمل ويلعب ينتج أكثر ممن يعمل ولا يلعب .

والإسلام دين الفطرة ، ومن أجل هذا اعترف بهذا الاتجاه ودعّمه وأيده ، وقد ورد في الحديث الشريف : إن لربك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً . . فأعط لكل ذي حق حقه . وروى أن أصحاب رسول الله قالوا له : يا رسول الله نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة ، حتى كأننا نراها رآى العين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الزوجات والأولاد والضياع (شغلنا بها) ونسينا كثيراً . فقال الرسول : إنكم لوتدومون على ما تكونون عندي لصداقتكم الملائكة على فراشكم وفي طرقةكم ، ولكن ساعة وساعة ، وكررها ثلاث مرات .

وفي أحد مجالس الرسول التي كان يعقدها لتلاوة القرآن ، تقدم عربى شاعر وهمّ بإلقاء قصيدة ، فقال أبو بكر : أقرآن وشعر ؟ فقال الرسول : ساعة من هذا وساعة من هذا (١) .

ويُروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر بمنزل حسان بن ثابت وعنده جارية تغنيه :

وهل على ويحككم إذا لهوت من حرج ؟

فتبسم الرسول وقال : لا حرج (٢) .

(١) عبد الحى الكتانى : التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) ترجمة حسان فى « الإصابة » .

وقال على بن أبي طالب : روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلب إذا أكره عني ، وقال أبو الدرداء : إني لأستجيم بالشئ من الله وليكون أعون لي على الحق .

.. ومن التفكهة واللهو البريء الذي أباحه الإسلام المزاج الذي لا يضر ، ايجلب المزاج السرور للنفس ويدفع عنها الحزن ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وكان الرسول يمزح ولا يقول إلا حقاً ، وما روى في ذلك أن عمته صفية جاءتته تقول له : يا رسول الله ، ادع الله لي أن يدخلني الجنة . فقال لها : يا أمه إن الجنة لا يدخلها عجوز ، وانزعجت المرأة هنية ، ولكن الرسول سرعان ما شرح لها ذلك بقوله : إن العجوز لا تدخل الجنة وهي عجوز ، بل يعيدها الله شابة بكرأ ، فتدخلها وهي شابة بكر ، وتلا عليها قول الله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاءً ، فجعلناهن أبكاراً ، عرباً أتراباً » (١) .

ومن قصص المزاج التي أضحكت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأوردتها كتب الحديث ، ما ذكره ابن ماجة قال : خرج أبو بكر في تجارة ، ومعه نعيان وسويبط بن حرملة ، وهما من البديين ، وكان نعيان على الزاد ، وكان سويبط رجلاً مزاحاً ، فقال لنعيان مرة : أظعمني فإهمله فترة ، وقال لأغيظنك ، وكان أبو بكر عنهما في شغل ، فادخر سويبط هذه لنعيان ، ثم حل الركب محلة ، فقال سويبط لأصحابه المخلطة : تشترون مني عبداً لي ؟ قالوا نعم . قال : إنه عبد كثير الكلام وسيدهي أنه يخر فلا تسمعوا له ، وعلى أن أسلمه لكم ، فإن كنتم ستسمعون لبقائه بحث عن مشتر غيركم . قالوا : لا عليك ، فلاننا نثق فيك ، فاشتروه بعشر قلائص ، وأتوا فوضعوا في عنق نعيان عمامة أو جبلاً فقال نعيان إن هذا يستهزئ بكم وإني حر ولست بعبد ، فقالوا : نحن نعرف فيك هذا الإدياء ، ولم يسمعوا له ، وانطلقوا به ، فلما جاء أبو بكر وعرف القصة ضحك من الثأر الذي قام به سويبط لرفض نعيان إطعامه ، وراح للمشتريين ، فرد

عليهم القلائص واستعداد نعيمان ، ولما عادوا إلى المدينة ، قص أبو بكر هذه القصة على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه ، فظلوا يضحكون منها حولا ، وكان بعضهم يقول لنعيمان كلما رآه : حمداً لله على سلامتك .

ومن التسلية واللهو البريء ما حدث في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قالت عائشة : كنت ألعب بالبنات (الدمى أو العرائس) في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكان لي صواحب يلعبن معي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل يستخفين هيبة منه ، وكان الرسول يشجعهن ، ليعدن للعب معي .

ولم يخل منهاج تعليم الأطفال من ألوان الرياضة والمرح ، وقد روى عن عمر بن الخطاب ، أنه رسم للآباء منهاج تعليم أولادهم بقوله : علموا أولادكم السباحة والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل ، وما حسُن من الشعر (١) .

الرياضة والتسلية

والدارس للتاريخ الإسلامي وللфكر الإسلامي يلحظ أن ألوان اللعب تنقسم قسمين ، قسم يتم مع حركة البدن ونشاطه ، كالعدو ، والمصارعة ، والمبارزة ، والتصويب ، والسباق بالخيول ، والصيد ، والأصل في هذه الإباحة ، بل إن الإسلام يحث عليها ، ويرى في أكثرها وسائل للقوة والعدة التي تلزم في اللود عن حياض الإسلام والصراع في سبيل الله ،

أما القسم الثاني فهو أنواع اللعب التي تتم دون نشاط بدني ، وذلك كلعب الترد (الطاولة) والشطرنج والورق (الكوتشينة) ويبدو أن هذا اللون من اللعب ارتبط في أكثر أحواله بالمقامرة ، فوردت أحاديث وآثار تنهى عنه ، وقد قبل بعض الباحثين هذه الأحاديث دون تأويل فقالوا بتحريم هذه الألعاب ، وحملها آخرون على وجود المقامرة فيها فأباحوا هذه الألعاب إذا خلت من المقامرة ، والذي يمكن أن نقرره أن المقامرة يمكن أن توجد

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٢ .

مع أى نوع من الألعاب ، وإنما إن وجدت كانت حراماً وحرمت اللعب نفسه ، أما إذا لم توجد المقامرة فإن الخوف من آثار الطاولة والشطرنج والورق واضح جداً لأنها تنهب الوقت وتقتله ، ويكثر أن تشغل الإنسان عن أداء واجبه الدينى والاجتماعى ، وهى إن فعلت هذا كانت حراماً أيضاً ، أما الألعاب الجسدية فلأنها لا تنهب الوقت ، لأن الجسم يحتاج بعد الشوط فيها إلى الراحة . فلا يمكن الاسترسال فيها كما يتم الاسترسال فى الطاولة والشطرنج والورق ، هذا إلى أن القسم الأول من الألعاب يفيد اللاعب صحياً ، ويفيد المجتمع لأنه يدرّب الشخص على أنواع من البطولات قد يحتاجها المجتمع ، أما القسم الثانى فليس إلا للتسلية والتغلب على الفراغ فينبغى ألا يتعدى هذه الغاية .

ولنعد إلى حديث به شىء من التفصيل عن هذه الألعاب والرياضات : فعن العدون ذكر أن الصحابة كانوا يتسابقون فى الجرى ، وكان الرسول نفسه يسابق عائشة ، تقول رضى الله عنها : سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، ثم عاد وسابقنى بعد أن أرهقنى اللحم (السمنة) فسبقنى ، فقال : هذه بتلك .

وكانت المصارعة معروفة عند المسلمين ، وقد روى البيهقى أن الرسول دعا إلى الإسلام ركانة بن عبد يزيد بن هاشم وكان ركانة معروفاً بقوته القائقة ، وبأنه لم يصارع أحداً إلا صرعه ، ولكن ركانة طلب معجزة واضحة من الرسول ليقبل دعوته ، فقال محمد : أرأيت إن صرعتك ؟ قال ركانة : أو من بك . وتصارعا فصرعه الرسول ، فتعجب ركانة وطلب الإقالة والعودة فصرعه الرسول مرة ثانية وثالثة ، فأسلم ركانة وحسن إسلامه (١) .

وكانت المبارزة جائزة ، وأحداث المبارزة التى جرت فى مطلع غزوة بدر وغزوة أحد معروفة فى التاريخ الإسلامى ، وكان النصر فى هذه المبارزات للمسلمين مما يدل على تدريب ناجح واستعداد كبير .

(١) عبد الحى الكشافى : التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٤٧ .

أما الفروسية فقد حث الإسلام عليها ، فقد كانت الخيالة تلعب دوراً كبيراً في الحروب . وكانت هزيمة المسلمين في غزوة أحد نتيجة لغفلة خيالاتهم مع يقظة خيالة قريش التي كان يقودها خالد بن الوليد قبل إسلامه ، وروى عن الرسول قوله : كل شيء ليس من ذكر الله فهو لهو أو سهو إلا أربع خصال : مشى الرجل بين الغرضين (للرمي) ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، وتعلمه السباحة . وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم سبّق بين الخيل وأعطى السابق ، ويقول الفقهاء إن هذا من الرهان الحلال أي أن يعطى أحد المشاهدين جُعلاً للسابق تشجيعاً له ، وقد قيل لأنس : أكنتم تراهنون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان رسول الله يراهن ؟ فقال : نعم ، والله لقد راهن على فرس يقال له « سبحة » فسبق ، فهش لذلك وأعجبه .

ويحدث الفقهاء الرهان الجائز بأن يكون الجعل (المكافأة) من غير المتسابقين كالإمام يجعله للسابق وهذا جائز بلا خلاف ، وأجاز الجمهور أن يكون الجعل من أحد المتسابقين . أما إذا كان هناك جعل من كل متسابق ويأخذها كلها من سبق فهذا حرام إجماعاً لأنه نوع من القمار (١)

وقد اشتهر سباق الخيل في التاريخ الإسلامي ولقي اهتمام أكثر الخلفاء والأمراء ، وكان هشام بن عبد الملك يقيم عدة حلبات للسباق يشترك فيها عدد كبير من الخيول ، واشتهر سباق الخيل بمصر وشغف به الناس ، وكانت حلبة السباق في عهد خماروية تقوم مقام الأعياد (٢) ، وفي الدولة الإخشيدية شرع الإخشيد في إجراء حلبة السباق على رسم الطولونيين (٣) .

ومن الرياضات كذلك التصويب أو رمي السهام ، وكان الرسول يشجع أصحابه عليه ويقول : عليكم بالرمي فإنه من خير لهوكم ، وكان الرمي

(١) الشوكاني : نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٩٠ .

(٢) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٣١٨ .

(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٥٣ نقلاً عن المغرب لابن سعيد (مخطوط)

يرتبط بالآية الكريمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » (١) فكان عليه السلام يقول : ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي .

ومن اللهو النافع الذي أقره الإسلام الصيد ، وكان المسلمون يرون أنه يحقق فوائد جمّة ، فهو بالإضافة إلى أنه متعة وكسب ، يمرّن الجند على الركض والكرّ ويعودهم الفروسية ، ويدربهم على الرمي بالنشاب ، والضرب بالسيف والدبوس ، ويقلل المبالاة بإراقة الدماء ، ثم هورياضة تساعد على المحافظة على الصحة (٢) .

وأكل الصيد مباح بالكتاب والسنة والإجماع ، بشروط نظمها الفقهاء قال تعالى : « يسألوك ما إذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلّين ، تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه » (٣) ، وفي الحديث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ما صدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكأنه ، وما صدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله عليه فكل ، وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت زكاته فكل . ومن أجل جواز الصيد أبيحت حيازة كلب للصيد ، كما أبيحت حيازة كلب الماشية وكنب الحراسة ، وحرمت حيازة الكلاب فيما غذا ذلك ، فقد ورد عن الرسول قوله : ما من قوم اتخذوا كلباً إلا كلب ماشية أو كلب صيد أو كلب حراسة إلا نقص من أجورهم كل يوم قيراطان ، وعن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعاً صوته ، يأمر بقتل الكلاب ، وكانت الكلاب تقتل إلا كلب صيد أو كلب حراسة .

ومن ألوان الرياضة التي جدّت في العصر الحديث كرة القدم وكرة السلة والريشة الطائرة وأمثالها ، وتلك لها حكم العدو لأنها تنشط الجسم ، وتقوى الصحة ، وتعلم التعاون بين أعضاء كل فريق ، كما تعلم الكر والفر والمحاورة .

(١) سورة الأنفال الآية ١٧ .

(٢) ابن طباطبأ : الفخرى ص ٥٤ .

(٣) سورة المائدة الآية الرابعة .

ونجىء الآن إلى الطائفة الثانية من أنواع التسلية واللهو ، وهى التسلية التى
تجرى والقوم جلوس كاللعب بالنرد والشطرنج . . ويقول عنها آدم متز :
ولم يكن جلوس اللاعبين صامتين بعضهم إلى بعض من عادات العرب ،
وكان العربى القمح يشعر بما فى ذلك من غرابة عن طباعه ، ويحكى أن أهل
المدينة كانوا لا يزوجون لاعب الشطرنج ، وقالت العرب إنما وضع الشطرنج
للعجم الذين لا علم لهم ، لأنهم كانوا إذا اجتمعوا تلاحظوا تلاحظ البقر ،
فجعلوا الشطرنج مشغلة (١) .

وفى النرد يقول صلى الله عليه وسلم : من لعب بالنرد فكأنما صبغ يده
فى لحم خنزير ودمه ، ويقول كذلك : من لعب بالنرد فقد عصى الله
ورسوله ، وقد حمل الشوكانى هذين الحديثين على من لعب مقامراً ،
وروى عن طائفة من العلماء الترخيص بلعب النرد على غير قمار ، أما
الشطرنج فقد ظهر فى زمن الصحابة واختلفوا فى شأنه ، فقال ابن عمر :
هو شر من النرد وقال على : هو من الميسر ، واتجه بعض الصحابة إلى القول
بكرهيته ، وأباحه عدد جهم من الصحابة والتابعين إذا بخلوا من القمار .

ويميل بعض الباحثين إلى التفريق بين النرد والشطرنج ، فيرى النرد مبيهاً
على الحظ ، وأما الشطرنج فينبى على إعمال الفكر ورياضة الذهن ، ومن
هنا أجاز الشطرنج بشرط ألا يشغله عن أداء الواجب وألا يكون به قمار ،
وأن يحفظ اللاعب لسانه من الفحش وردىء الكلام وهو يلعب ، وإلا كان
اللعب به حراماً (٢) .

ومن أنواع التسلية الحديثة دار الخيالة (السينما) وهى أداة إذا حسن
استعمالها يمكن أن تكون عظيمة النفع ، وتعرض على المشاهدين صوراً طيبة

(١) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٥٢ وانظر محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٨ .

(٢) يوسف القرضاوى : الحلال والحرام فى الإسلام ص ٢١٧ وانظر فتاوى ابن تيمية

ج ٢ ص ٥ وما بعدها .

من التاريخ والفكر ، تقوى العزيمة وتشد الأزر ، فهي في هذه الحال تجمع بين التسلية والعبرة والتعليم ، ولكن السيئ يساء استعمالها كثيراً كما يساء استعمال كثير من أمثالها كأن يجعلها الإنسان شغله الشاغل أو أن يتم بها اختلاط محرم ، أو أن تعرض روايات تثير الغرائز وتعرض على الإثم ، وهي بذلك تصبح مفسدة يلزم تجنبها .

ويتضح من هذا أن الأصل في المزارح والتسلية وأنواع الرياضة الحل ، وقد يصير بعضها مندوباً إليه إذا كانت تساعد على الإعداد للجهاد وشئون الحرب وحماية المسلمين ، وتصبح هذه الأشياء مكروهة أو حراماً إذا انحرفت عن هدفها ، بأن دخلها القمار ، أو أسىء استعمالها ، وكذلك تصبح مكروهة أو حراماً إذا أصبحت هدفاً بعد أن كانت وسيلة ، فقد أبيحت هذه الأشياء لتساعد في التخفيف عن الإنسان ليعود أكثر نشاطاً وأكثر إقبالاً على العمل ، فإذا اندمج فيها الإنسان حتى أصبحت غايته فإنه بذلك ينحرف بها عن الإباحة إلى الكراهية أو الحرمة ، فإذا شغلته عن مندوب فهي مكروهة وإذا شغلته عن واجب فهي حرام .

كرة القدم حالياً والتعصب لها :

وهذا يقودنا إلى أمر خطير تمر به كثير من البلدان في عصرنا الحاضر ، ذلك هو التعصب المقيت لكرة القدم ، والأصل في الرياضة أن يباشرها الإنسان بنفسه كما سبق ، فهو بذلك يستفيد جسمانياً وعقلياً ، يجدد نشاطه ويتعلم التعاون مع فريقه ، فالرياضة البدنية لها هدف جسماني وهدف خلقي ، والذي لا يلعب قد يشجع اللاعبين ولكن على أن يسير في الطريق الصواب ، فهو وإن فقد الاستفادة الصحية من الرياضة ينبغي أن ينال الجانب الخلقى ، بأن يتعلم التعاون من اللاعبين ، ويستفيد بذلك في حياته .

على أن الفكر السليم وضع للتشجيع أسساً ، أهمها أن تشجع من أجاد على إجادته أيّاً كان الفريق الذي تنتمي إليه ، وأنت بذلك قاض عادل ،

ومنصف ، تعطى كل ذى حق حقه ، تصفق لمن أتقن عمله وأجاده ، وتلوم من أهمل ، ولا ترجو الكسب لفريق دون إجدادة وإتقان ، بيد أن الظروف خلقت نوعاً من الانحياز لهذا الفريق أو ذاك ، فمدرسة تشجيع فريقها ، وبلد يشجع فريقه ، وناد يقف وراء أعضائه ، ونحن في هذا التشجيع المشروع ينبغي ألا ننسى العدالة ، وألا نتجاوز التشجيع ، وقد كنا في جامعة كمبردج نشجع فريق جامعتنا في سباق التجديف السنوى أمام جامعة أكسفورد وفي غيره من الألعاب ، ولكنى أشهد أنه كان تشجيعاً معقولاً لا ينسبنا أن نشئ على من أجاد من أعضاء الفريق الآخر أو نعتب على من أهمل من أعضاء فريقنا .

فماذا نرى الآن في أكثر بلاد العالم عن كرة القدم ؟

لا نرى تشجيعاً بمقدار ما نرى انحيازاً أو تحيزاً ، نرى سخرية وغيظاً من أى عمل بارع يقوم به الفريق المعارض أو أى عضو فيه ، ونسمع لذلك صفيراً ، لقد خلقت الرياضة لتعلم التعاون وإذا بها تعلم النفور والكراهية والتعصب المقيت ، ومن العجيب أن التشجيع لم يعد له أساس ينبى عليه ، فهو ليس من مدرسة تشجيع فريقها ، وليس من بلد أو ناد كذلك ، وإنما أصبح لا أساس له على الإطلاق ، فأهل البيت الواحد ينقسمون على أنفسهم ، هذا يتبع فريقاً وذاك يتبع فريقاً آخر ، ولم يعد الأمر يتوقف عند الاستحسان أو التشجيع بل تعدى ذلك إلى القول اللاذع والأسف المرير ، ثم تعداد إلى الحزن عندما يحدث ما يسمونه هزيمة ، والانزواء في ألم ممض ، وإلى سخرية أتباع المنتصرين من أتباع المهزمين ، ثم وصل الأمر إلى ما هو أبعد ، وإلى غاية مريرة كثيفة هي عراك يدور في الملاعب ، وأناس يسقطون قتلى وجرحى ، وأغرب حادث من هذه النوع وقع في تركيا حيث مات حوالى ثمانين وجرح مئات من النظارة ، وفي بروكسل سنة ١٩٨٥ قتل الانجليز عدداً كبيراً من الإيطاليين في مباراة مشؤمة ووصل الأمر بأحد الصبيان أن انتحر حزناً على هزيمة فريقه . إنه رباء يجب إيقافه .

ذلك انحراف وبيل الغاية ، ويحتاج إلى علاج سريع نرجو أن تكون هذه الدراسة جرعة منه ، ونرجو أن يعود الناس إلى رشدهم ، وينبغي أن نوجه كلمة إلى الطلاب ، فمن رأينا أن تكون متابعة الطلاب لهذه الألعاب في أوقات الفراغ فقط ، وما أقل أوقات الفراغ عند الطالب الذي يجب أن يؤدي واجبه ، وإذا كان العامل يحتاج بعد عودته من مصنعه إلى ما يشغل به فراغه ، فإن مصنع الطالب ، الذي يتمثل في كتبه ، مفتوح ليلاً ونهاراً ، وعليه عندما يريد الاستجمام أن يلجأ للهدوء في جلسة جميلة أو نزهة طيبة ، أو أن يستمع إلى موسيقى حلوة أو يقابل بعض الرفاق ، وليست مشاهدة الكرة كما نراها نوعاً من الاستجمام ، إنها في الحقيقة نوع من الصراع ينبغي على العاقل أن يتجنبه ، وإذا رآها لا يراها بعين المتعصب المتحيز بل بعين المتفرج أو الناقد التريه .

توجيه العمال للجدد بدل التعصب للكرة :

وكلمة أخرى نوجهها إلى العامل ، فنذكره بعمالة السياسة الذين بدءوا حياتهم عمالاً ، ولم يكن الطريق أمامهم سهلاً ، ولكن الكسب نقولهم من حال إلى حال ، حتى أصبحوا وزراء يديرون دفة العالم مثل بينفن الذي كان وزير خارجية إنجلترا وقد أشرنا له من قبل ، فعلى عمالنا في هذا الجيل الذي يعني عناية كاملة بهم أن يعنوا بأنفسهم ، وأن يثقوا عقولهم ، وأن يعرفوا طريقهم للعلم عن طريق الكتاب أو المدرسة في أوقات فراغهم ، حتى لا تصير أوقات الفراغ لهواً كلبها أو جلوساً على المقاهي (١) ، وحتى ينتفعوا بها في الوصول إلى مدى أبعد وأنمي مما وصلوا إليه ، إن قوى الخير في هذا

(١) من آفات المقاهي أنها تغزل الإنسان عن أسرته وتلتهم ماله ووقته ، وتحرم رواده القراءة والاطلاع ، واعتقادي أن الزوجات يشاركن الأزواج مسؤولية هذا التصرف ، فإنهن لو هيأن لأزواجهن جواً مناسباً بالبيت لجذبهم إلى حياة البيت وحياة الاطلاع فيه ، وليت المتعلمات يتجهن لتوجيه الزوجات إلى هذه الغاية ، وليت الحكومات كذلك تكثّر من الأندية وتجعلها تشع بالفكر والثقافة والرياضة والرحلات .

العهد فتحت لهم الطريق لحياة كريمة ، وعليهم أن يبرهنوا على أنهم جديرون بهذه الحياة ، وأنهم قادرون على تطويرها . ولا شك أنهم إذا سلكوا هذا الطريق قل تعصبهم المقيت لكرة القدم ولأمثالها من الألعاب .

وهكذا نجد في هذا اللون من الرياضة تعصباً وظلماً وكراهية ، وهي كلها صفات يحاربها الإسلام ويحذر منها ، ونجد شيئاً آخر هو إهمال الأعمال وإهمال الواجبات اندماجاً في متابعة هذه الرياضة ، وهذه — كما قلنا من قبل — تنقل الرياضة من الإباحة إلى الكراهية أو إلى التحريم .

ومن العجيب أن نرى هذا التعصب للاعب الكرة ولا نرى على الإطلاق متعصباً لكاتب على كاتب ولا لناقد على ناقد ، ، وحتى من يحب واحداً من هؤلاء يحبه دون صخب ويتبع إنتاجه دون أن يطعن إنتاج الآخرين ، فهل أصبح لاعب الكرة في المجتمع أهم من الباحث والكاتب والناقد ؟ إن هؤلاء يذوون وهم يغرسون الحياة الكريمة لبنى الإنسان ، ولا يمكن في مجتمع سليم أن تقل قيمتهم عن لاعب الكرة .

النطاح وصراع الديكة ، ومصارعة الثيران :

وهناك انحراف آخر في ألوان الرياضة نهى عنه الإسلام وحذر منه ، وذلك عندما يكون في الرياضة تعذيب لأى نوع من أنواع الطيور أو الحيوانات ، وقد عشت فترة من حياتي في إندونيسيا ، وكثيرون بها يهتمون بإهتمام كبيراً بصراع الديكة ، ولقد رأيت صاحب الديك يعيش له ؛ يؤثره على نفسه بالنظافة والطعام ، ويتطلع إليه في لطفة تفوق الأم بالنسبة لابنها ، ومع هذا يسلمه للصراع مع ديك آخر ، وقد رأيت كلا من أصحاب الديكة المتصارعة يربط في قدم ديكه سلاحاً حاداً يساعد على الفتك بالديك الآخر ، ثم ينطلق الطائران المسكينان إلى حلبة الصراع التي أعدها الإنسان القاسى ، ويحيط بهما النظارة للفرجة على هذا المنظر الأليم ، وبعد جولة قصيرة ينخر أحد الديكين صريعاً ، وقد ينخران معاً . يا لظلم الإنسان ! !

وفى أسبانيا صراع من نوع آخر ، يروونه بطولة وقوة ، ويراه العاقل
خبلاً وطغياناً وحيلة خبيثة ، ذلك هو مصارعة الثيران ، وهذه الحلبة تختار
أحسن المعجول ، وتربى وتدرّب عدة سنوات ثم تكون نهايتها فى لحظة قصيرة ،
فى كل حلبة صراع تسقط ستة ثيران ، يا الله ! ! وقد شاهدت مصارعة
الثيران فى أسبانيا ، ورأيت فيها طغيان الإنسان وقسوته ، فالثور يدخل الحلبة
قبل الفارس بوقت طويل ، ويتعاون عدد كبير من الناس فى إرهاب
الحيوان المسكين بطريق الجرى والضرب ، ويظل الثور يجرى فى الحلبة ،
هذا يدفعه ، وهذا يشوكة بحربه حتى يوشك أن يقع من فرط الإعياء ،
ثم يخرج على الناس هذا الذى يسمى بطلا ليكمل الجولة ، فيتعين فرصة
من الحيوان المسكين ، ويضربه بألة حادة مدمية فى مكان معين فيقضى عليه .

ومثل الديكة والثيران نطاح الكباش أو جعل طائر هدفاً فى التصويب
والرمى بالسهام ، وقد رأى عبد الله بن عمر جماعة جعلوا من طائر هدفاً
يصوبون سهامهم إليه ، فقال : إن الرسول صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ
شيئاً فيه روح غرضاً ، وعن جابر أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التحريش
بين البهائم . فذلك إيلاّم لهذه الحيوانات ، وإتعاّب لها بدون فائدة وهو مجرد
عبث ضار ، وما أقسى أن ينعم إنسان بشقاء يشيعه بين المخلوقات ، إن مثل
هذا الإنسان لا يستحق أن تنسحب عليه أوصاف الإنسانية ، فهو إلى الحيوانية
أقرب .

ولا شك أن الإسلام يحذر من تعذيب ما فيه روح ، بل يحذر من إهماله
ولو بدون تعذيب ، فقد ورد عن الرسول أن امرأة دخلت النار فى هرة
حبستها ، فلا هى أطعمتها وسقمتها ولا هى أطلقها تأكل من خشاش الأرض .

وهكذا ينحرف الإنسان غير السوى بالمباح فيحرمه ، أو ينحرف
طابع الإنسان فيجد سعادته فيما يشقى أنحاه أو يشقى الحيوان الأعجم أو
الطير الضعيف .

كلمة عن القمار :

ارتبطت المقامرة بالألعاب وأنواع التسلية والرياضة ، وقد رأيناها تسبب تحريم أي نوع من الألعاب وجدت معه ، والقمار على كل حال ظاهرة يكثر وجودها في المجتمع العالمي ، ومرض أصاب بعض الناس في المجتمع الإسلامي انحداراً من عهد الجاهلية ، أو اقتباساً من رذائل الغرب ، ومن هنا لزم أن نتحدث عن القمار حديثاً خاصاً .

والقمار محاولة للكسب الرخيص ، ويجتمع حوله جماعة لهم نفس الاتجاه ، كل واحد منهم يريد أن يربح من الآخرين وأن يبتز أموالهم ، ويخلق التربص والتحفز هز خلق الجميع ، وفرح شخص بالكسب يلزمه في نفس الوقت حزن شخص آخر بالخسارة ، بل إن هناك خسارة ضرورية تقع على كل اللاعبين ، تتمثل في الأموال التي يبتزها من ينظم القمار ، ويعد له المكان ، ويشرف على جولاته ، ويقدم الشراب للمتقمارين ، بل تتمثل في النساء اللاتي جلبن صاحب الدار ليداعبن اللاعبين ، وليخجل اللاعب من إعلان هزيمته وانسحابه أمامهن ، وتتمثل كذلك في وظيفة خلقتها حلقات القمار المملوكة بالظلام والدخان والكرامية ، وهذه الوظيفة هي وظيفة «المطمعين» أي الذين يحثون على الاستمرار في اللعب إن خسر الإنسان أو كسب ، ليعوض الخسارة في الأولى ، وليزيد الكسب في الثانية (١) ، وقد يُقرض المطمع الخاسر أو يسئل له ببيع عقاره أو داره ليظل في مكانه من المائدة المقيمة .

وكثير من البسطاء يرجون الغنى من حلقات القمار ، أو قل يرجون الغنى من دم الآخرين ، ومن مجال كله حقد وكله فقر ، وأذكر مرة وأنا في مطبخ الشياب أن رأيت فتى يلعب « الثلاث ورقات » ومعه زميل له يلاعبه ، ويكسب منه خنياً وخنياً آخر ليخدع الناس ويغريهم باللعب ووقع في حباله

(١) آدم مئز الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥٦ .

صبي بسيط لعب ببعض قروشہ فقدها ، وشجعه « المطمئع » على اللعب ثانية ليكسب ، لولا أنى التقيمت أذنه وأسررت إليه قائلاً : هل من المعقول أن فنى رقيق الحال مثل هذا جاء هنا ليوزع نقوده على الناس ؟ إنه جاء ليأخذ من الناس ، فأسرع بما تبقى معك ، واستجاب الصبي ونجا .

وطائفة المتقامرين يمكن تصورها من صورة حلقة القمار وظروفها ، فالمكان الذى يدار فيه القمار يقل فيه الضوء ، ويكثر فيه دخان اللقائف ، وتخفت فيه الأصوات وترتفع المهمة ، يتسلى له الهواة كأنما يفرون من العدالة ، ويدخلونه فى توجس وتردد ، وتلتف جموعهم حول مائدة خضراء تتصاعد حولها أنفاسهم المضطربة ، وتحقق قلوبهم المكشوفة ، والمفروض أنهم رفاق لعب ، ولكنهم فى الحقيقة أعداء ، فكل منهم يترصد بالآخر ويعمل على أن يكسب على حسابه وحساب أولاده ، ويعمل صاحب المكان على أن يخدر أحاسيس الجميع بما يقدم لهم من موسيقى حاملة ، ونساء ضائعات ، وأنواع الشراب ، وأنواع التدخين ، وتكثر حول المائدة الخضراء ضروب الغش والخداع ، فالسقاء والمطمئعون والفتيات يكشفون أوراق لاعب إلى لاعب ، ويغمزون ويهمسون لينصروا بالباطل واحداً على آخر ، وليقيموا أحياناً نوعاً من التوازن يضمن استمرار اللعب وطول اللقاء ، ويخسر الجميع بلا شك ، يخسرون بما يدفعونه ثمناً للشراب والتدخين ، وما يدفعون للسقاء والمطمئعين ، وما يقدمونه من شراب للفتيات ، وتتفاوت بعد ذلك الخسارة ، فالرابح الذى نجح فى كل الجولات أو أكثرها لا يتبقى معه من الربح شيء على الإطلاق أو لا يتبقى معه إلا مقدار ضئيل ، وأما الخاسر فقد فقد كل شيء ، وفى آخر الليل يتسللون جميعاً وقد علتهم الكآبة والحزى ، والخاسر يتوعد الرابع إلى الغد .

كم من بيوت أقفرت بسبب القمار ، وكم من بطون جاعت ، وأجسام عريت أو لبست الأسبال ، وكم من زواج فشل ، ووظيفة ضاعت لأن صاحبها اختلس ليقامر ، وكم من رجل باع دينه ووطنه على مائدة القمار ، فالقمار

يدثر كل شيء ، وهو وإن كان هدفه المال ولكنه يشمل الخمر والتدخين ورفاق
السوء والظلام والغموض والغش والكراهية والترص والاختلاس وكل
صفات السوء ، فما أجدر أن يتوقف هذا الوباء إلى الأبد ويتجه أنصاره إلى
النور بعد أن لبثوا في هذا الظلام أمداً طويلاً .

وعقب كتابة هذا الحديث بفترة ليست طويلة نشرت صحيفة الأهرام
القاهرية يوم الخميس (٩ / ١١ / ١٩٦٧) خبراً يجدر بنا أن نقتبسه ،
فهو خير دليل على ما يؤدي إليه القمار من خيل واضطراب وفقدان التحكم
في النفس ، تقول الصحيفة (التي البوليس في) نحوليم بفرنسا القبض على رجل
في السبعين من عمره بتهمة قتل ابنه البالغ من العمر أربعة وأربعين عاماً
بطلق نارى ، لأنه رفض إعطائه نصيباً أكبر عندما أراد أن اقتسام مبلغ يساوى
عشرة جنيهات ربحاه في رهان على سباق الخيل يوم الأحد الماضى) وبماذا
يمكن أن نعلق على هذا الخبر ؟ أب يقتل ابنه ، والجريمة تتم مع الربح ،
ليت شعري ماذا يحدث بين الغرباء ؟ وماذا يحدث عند الخسارة ؟

وقد جمع القرآن الكريم بين القمار (الميسر) وبين أصناف أخرى من
عظائم الأخطاء وجعلها جميعاً من الأرجاس التي يجب تجنبها ، قال تعالى
« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل
الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة
والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل
أنتم منتهون « (١) .

المرأة في المجتمع

كم تمنيت لو أن المرأة المسلمة عُنيت بدراسة تاريخ المرأة في الشرق والغرب لتعرف ماذا كانت في الهند ، وفي شريعة بوذا ، وفي أثينا ، وعند العرب في الجاهلية ، وفي العهد القديم ، ولدى الكنيسة الكاثوليكية ، وفي أوروبا العصور الوسطى ، ثم لتعرف الحقوق التي فرضها الإسلام لها .

لو درست المرأة ذلك لعرفت أن المرأة في الماضي كانت تعد لونا من الوباء ، وشيئاً من سقط المتاع ، وكانت أمر من الموت ، ومخلوقاً من الدرجة الثانية ، جاء ليمتع الرجل وليكون له تابعاً ، لا حق له في الحياة الكريمة ، ولا نصيب له في الميراث (١) .

ولو درست المرأة بالتالي المكانة التي رسمها لها الإسلام ، والحقوق التي أوجبها ، لأدركت بما لا يدع محالا للشك أن الإسلام وضع أصول الحياة الجديدة للمرأة ونمى هذه الأصول ، وأثبت لها من الحقوق ما لم تعرفه المدنيات الغربية إلا في هذا القرن أو مالم تعرفه بعد ، وذلك قول لا يقال عنوا ولا يُلقى جزافاً ، وإنما هي الحقيقة التي ليس من العسير الوقوف عليها ، وقد نعمت المرأة المسلمة بهذه الحقوق منذ العهد المبكر للإسلام . ولا تزال تنعم بها ، وليست هناك مدنيات تستطيع أن تنافس مدنية الإسلام في هذا الشأن ، ولكن بعض النساء يجلبهن الجديد من الاتجاهات ، ففي الملابس مثلاً تجلب (المودة) الكثرات منهن دون أن يفكرن ، والعاقل يعتبر هذا ضعفاً في المرأة ، لأنها بذلك تلتقي الزمام إلى جماعة خلف الستار ، أولئك الذين نسميهم مصممي الأزياء أو (المودات) ، فهؤلاء يرسمون للنساء حسب هواهم ، والمرأة تتبع كأنما تساق سقوة ، ونظرة بسيطة إلى هذا

(١) أقرعن المرأة في غير حمى الإسلام بكتاب (الإسلام) من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف ص ٢١٦ - ٢٢٠ نقلا عن مراجع رئيسية مختلفة وصفت حال المرأة في العالم قبل الإسلام

التصميم نجده متضارباً ، فمرة يبتكر الطويل ومرة أخرى يبتكر القصير ، ثم يعود للطويل بعد ذلك وهو يقترح طريقة لتصنيف الشعر ، ثم يعرض عنها ، ثم يعود لها ، مما يدل على أنه يعمل دون هدف ، ودون تبصر ، ومن حق الإسلام على المرأة ، وقد أعطاه هذه الحقوق الجملة في كل الاتجاهات (١) أن تتمسك به وبأخلاقه وتعليماته وستدرك دائماً أنه يريد لها الخير كل الخير ، بل ستدرك أنه لا يُغفل أنوثتها وما تقتضيه طبيعتها من تجمل وحسن مظهر ، وأنه سيحافظ عليها لتبقى أنوثتها موروثة ، وحسنها مصوناً .

والباحث يعيب على المرأة أن تدع نفسها في مهب الريح ، تستجيب لكل ناعق ، وأغلب من تقتدى به المرأة نجوم السينما ، ومصمم الأزياء ، وكان عليها أن تختار القدوة ، وأن تدرس كل شيء بعقلها قبل أن تقلده ، ولو أنها فعلت ل زاد ارتباطها بالإسلام ، ولوجدت فيه كل ما تحتاجه ، ومن الملاحظ أن مصممي الأزياء وخالق (المودات) لا يبتكرون للرجال إلا في أضيق الحدود ، ذلك لأن الرجال أكثر تعقلاً من النساء ، ولا يستجيبون بسهولة لكل ابتكار ، ولنبحث هنا بعض النقاط التي تبعد المرأة عن الإسلام في بعض الحالات

رأي المرأة :

في هذا البحث يجدر بي أن أقرر أن الباحث الاجتماعي الحصيف - مع اعتقاده بأن من واجبه أن يقود مجتمعه إلى عالم أفضل - لا يجب أن يخاضم هذا المجتمع أو يحاربه ، لتبقى الصلة قوية بينه وبين مجتمعه ، وليظل له تأثيره في هذا المجتمع ، وفي البحث الإسلامي نجد كثيراً من الباحثين عندما يعرضون لشأن من شؤون المرأة كزيتها مثلاً يصرخون في وجهها بأنها ارتكبت المنكر ، ومالت عن الطريق السوي ، ولما كانت المرأة سريعة الانفعال ، قلنا تفر من متابعة أمثال هذه الدراسات وما يكتب عنها فيها ، لأنها تكره

(١) اقرأ المرجع السابق ص ٢٠٦ وما بعدها .

أن يوجه لها اللوم العنيف أو الاتهام الخطير ، ومن الباحثين من يحرصون على حسن المدخل ، ويتعاملون بالصبر وحسن التأني ليعالجوا الداء بتؤدة ، وليصلوا إلى أهدافهم خطوة خطوة ، عاملين في جميع الحالات على أن يحافظوا على قرائهم من النساء وأن يجذبوا لكتاباتهم جموعاً جديدة من القارئات ، وأقرر أنني من هذا النوع من الكتاب ، وربما خطر لي - لهذا - ألا أتكلم عن زى المرأة وموقف الإسلام منه في هذا الكتاب ، لبعد الشقة بين رأى الإسلام وبين ما ساقته (المودة) اللعينة من انحراف في زى بعض النساء ، ولصعوبة الوصول إلى علاج في الوقت الحاضر .

نم عدت بذاكرتي إلى ما شاهدته وما أشاهده في كثير من الأقطار الإسلامية ، وكيف أنه جمع بين الأناقة والجمال من جانب ، وبين موافقته للإسلام من جانب آخر ، وحسب كل قارئ وقارئة أن يتصور ما يلبس المرأة المسلمة في إندونيسيا وفي باكستان وفي السودان . . . فسرى أنه زى يحفظ للمرأة أناقتها وما تحرص عليه من مظهر حسن ، وهو في الوقت نفسه يمثل الإسلام أدق تمثيل لأنه لا يُظهر من المرأة غير كفيها ووجهها ، ويستأراني مضطراً أن أذهب بعيداً عن مصر ، بل إنه في بلادى وفي المنطقة التي ربيت فيها « محافظة الشرقية » يبدو زى المرأة وقد جمع بين الترف والجمال وبين مطابقته للفكر الإسلامى . من أجل هذا استقر رأى أن أكتب عن زى المرأة وموقف الإسلام منه ، وأن أدعوها دعوة لا تريد أن تتخلي عن زينتها وأناقتها ، ولكن تريد أن تكون الزينة والأناقة في نطاق الإسلام من كل الوجوه .

وليس للإسلام زى معين ، وإنما هناك قواعد وقوانين رتبها الإسلام ويلزم أن يُصمم الزى ليطابقها ، ومعنا آية كريمة إعلها جميعت هذه القواعد وتلك القوانين ، هي قوله تعالى « . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدین زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيدهن ، ولا يبدین زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو أبناءهن أو أخواتهن أو أبناءهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن

أو نسائهن أو ما ملكت أيماهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الدين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن» (١) ، ففي هذه الآية الكريمة إشارة لما يمكن إظهاره من جسم المرأة ، وذلك هو مكان الزينة الظاهرة ، فالقصد من إبداء الزينة في قوله تعالى « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » إظهار مكان الزينة ، وليست الزينة نفسها ، ومكان الزينة الذى يتاح إظهاره هو الوجه والكفان عند أكثر الفقهاء ، وأضاف أبو حنيفة والثوري والمزني إلى ذلك ، القدمين وموضع الخلل (٢) ، ثم ذكرت الآية الجماعات التى يمكن لأفرادها أن يروا من المرأة غير هذه المواضع وهم المحارم والأطفال ، وذكرت الآية كذلك أن المرأة لا يجوز لها أن تحدث من الحركات ما يثير الفضول ويستلقت الأنظار .

وهذا ما ينبغى أن تتبعه المرأة المسلمة ، أما نوع الزى الذى يستجيب لتعليمات الإسلام فتروك لها ، فيمكن أن يكون على النسق السودانى أو الإندونيسى أو الباكستانى ، ودارس هذه الأزياء وتاريخها يدرك أنها جمعت بين الفكر الإسلامى وبين الاتجاه القومى ، فقد كانت أصولها موجودة في كل من هذه البلاد قبل الإسلام ، ثم عدلت هذه الأصول لتتلاءم مع ما اقتضاه التفكير الإسلامى ، وهذا نسق يمكن أن يتبع في كل قطر من الأقطار الإسلامية بإحداث نموذج ، يعتبر تطويراً للزى القومى ليحقق ما اقتضاه الإسلام ، مع محافظته على حاجة المرأة من الأناقة والتجمل واليسر .

وهذه السطور تكتب وهناك (مودة) حديثة خرجت من الغرب وجاءت تغزو الشرق ، إنها موضحة (المبنى جيب) وسرعان ما استجاب لها ضعاف النفوس ، فرحن يكشفن مزيداً مما كان مستوراً ، واقتحم بعض هؤلاء بهذا الزى دور العلم وأماكن العمل ، وثار لذلك الجمهور العاقل ، وطرده .

(١) سورة النور الآية ٣١ .

(٢) حسنين مخلوف : فتاوى شرعية ج ١ ص ١٣٦ و ١٤٤ .

أساتذة الجامعات بعض الطالبات اللاتي لبسن هذا الزي ، وكتب الكتاب والصحفيون بأن العلم والعمل لها قدسية ينبغي أن تُراعى ، وليست الجامعة أو إمكانية العمل معارض تعرّض المرأة فيها جسمها وزينتها ، إنها إمكانية للتشريف والإنتاج ، وينبغي ألا تكون لغير ذلك .

ولابد أن أسجل تطوراً هائلاً حدث في مصر في موضوع الزي الإسلامي ، فعند إعادة طبع هذا الكتاب (١٩٨٦) كان الزي الإسلامي قد غمر مجتمع الجامعة والمجتمع المصري كله تقريباً ، لم تتخذ لذلك قرارات وأوامر ، وإنما إرشاد هادئ واقتناع واضح ، فله الحمد والمنة ، وكم أتمنى أن يكون لهذا الكتاب وأمثاله دور في الوصول إلى هذه النتيجة .
الباهرة .

الحجاب :

كلمة الحجاب ، تشمل التزام البيت ، كما تشمل غطاء الوجه ، وبالمعنى الأول لم يفرض الحجاب في الإسلام إلا على نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفاً ، وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (١) وكان هذا تكريماً لنساء النبي ، ورغبة في مزيد من الطهر لمن كما ذكرت الآية بذلك ، ومع وجوب الحجاب على نساء النبي ، فإن الأنخذ عنهن ، ورواية الأحاديث لم تتوقف ، وكان ذلك يتم تبعاً للآية الكريمة « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب » (٢) ، ولم يكن المقصود بالاحتجاب بالبيت عدم مغادرته نهائياً ، وإنما المقصود أن يتم الخروج بصحبة الرسول أو صحبة محرم وأن يكون لضرورة ، ولم يشمل الحجاب من هذا النوع غير نساء النبي ، فقد عرف التاريخ كثيراً من

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٣٢ - ٣٣ .

(٢) الأحزاب ٥٣ .

الصحبايات والتابعيات يصحبهن الرجال في الحروب ، وكان من نساء
المسلمات من يداوين الجرحى ويحسّن المحاربين (١) ، وكان منهن من يعقدن
مجالس الأدب كسكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة (٢) .

ويروى الجاحظ أنه لم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية
والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي خاصة ، وظلت بعد ذلك بنات
الخلفاء وأمهاتهن يخرجن للطواف وغيره ، ولم ينكر ذلك منكر ، ولا عابه
عائب (٣) ، ولو كان الحجاب مفروضاً لما أمكن أن نرى هذا العدد الضخم
من النساء المتعلمات والمحدثات والواعظات والأديبات منذ عهد الصحبايات
إلى اليوم ، وما كنا نرى نساء كثيرات أسهمن مع الرجال في إدارة الممالك ،
وساعدن أزواجهن في أعمالهن العظيمة ، حتى كان شطر من توفيق الرجال
يحسب لزوجاتهم المتعلمات (٤) .

حدود الاختلاط في الجامعة والعمل :

ولكن الإسلام وهو يبيح للمرأة أن تدخل غمار الحياة ، يضع لها قواعد
وقوانين بحيث لا يسبب خروجها خسارة لها ، ولا يكون منزلةً تنزل بها
إلى ما يؤذيها ، والإسلام يدرك أن المرأة شديدة الجساسة قوية العاطفة في
الغالب ، وأن هذه الصفات الطبيعية اللازمة للمرأة ، قد تنحرف بها عند
الاختلاط الذي لا يحُدُّه حد ، فتخدع بالكلمة المعسولة ، والابتسامة
المصطنعة إذا تكررت هذه الكلمة وهذه الابتسامة ، وعلى هذا فالاختلاط
ينبغي قبل كل شيء أن يكون لضرورة ، كالاختلاط الذي نراه الآن
داخل الجامعة ، أو داخل المصانع ، ومكاتب العمل ، ويتحتم في هذا
الاختلاط أن يتم والمرأة تلبس زيها الشرعي الذي أشرنا إليه آنفاً ولا تستعمل

(١) ابن سعد : الطبقات .

(٢) انظر ذلك في الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

(٣) رسالة القيان .

(٤) محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ص ٩١ - ٩٢ .

من أدوات الزينة ما يغرى أو ما يجذب الأنظار أو يدعوا للفتنة، ويتحتم في الاختلاط ألا توجد خلوة، يخلو فيها فتى بفتاة، بعيدين عن الأنظار وعن الأسماع، ويتحتم كذلك أن يكون موضوع الحديث حول العمل الذى يربط بينهما أو حول موضوع عام، ويحرص أساتذة الجامعات على أن يشيعوا أن الاختلاط فى الجامعة ينبغى ألا يتعدى أسوار الجامعة، وأن الحديث بين الطالب وزميلته ينبغى أن يدور حول موضوع عام أو حول الدرس ومشكلاته .

أما الحجاب من النوع الثانى أى بمعنى غطاء الوجه، فلا وجود له فى التفكير الإسلامى، وقد سبق أن ذكرنا أن الوجه والكفين ليست عورة عند الجمهور .

وقد يكون الحجاب من هذا النوع أو من ذاك ظهر فى بعض المدن الإسلامية، ولكن ذلك كان انحداراً من عادات غير عربية، وغير إسلامية، أو كان تصرفاً شخصياً للبعد عن الفتنة وللمزيد من صيانة المرأة، ولذلك كان الحجاب يوجد فى بلد دون بلد، ويثقل أحياناً ويخف أحياناً (١) .

ولا ريب أن الفكر السليم يلتقى مع الفكر الإسلامى فى رفض السفور الغربى بما فيه من إباحية وخضوع لطيش الشباب؛ وقد شاهدنا فى الغرب أعياد الميلاد التى تقام فى سن الثامنة عشرة، وتكون المفاتيح هدية بها، ويرمز المفتاح إلى الحرية المطلقة للفتى والفتاة ابتداء من هذه السن، فكل منهما يغدو إلى البيت ويروح دون رقيب، ولا شك أن النتيجة كانت ضارة بهما، وبالفتاة بوجه خاص، ولا شك أن شريعة الله تضمن الخير لكل الخير للناس، وتقودهم إلى عالم أفضل .

(١) اقرأ رجلة ابن بطوطة ترى نماذج من ذلك .

المرأة وولاية الأعمال :

يرى ابن حزم أن الإباحة هي الأصل في ولاية المرأة للأعمال ، وأنها لا تُمنع إلا بما ورد فيه نص بمنعها وهو الإمامة العظمى ، وفيما يلي نص كلامه (١) ؛ وجائز أن تلي المرأة الحكم وهو قول أبي حنيفة ، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه ولي « الشفاء » ، وهي امرأة من قومه ، السوق ، فإن قيل : قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة ، قلنا إنما قال ذلك رسول الله في الأمر العام الذي هو الخلافة ، وبرهان الجواز قوله عليه السلام : المرأة راعية في مال زوجها ، وهي مسئولة عن رعيته ، وقد أجاز المالكية أن تكون وصية ووكيلة ، ولم يأت بنص من منعها أن تلي بعض الأمور .

ويرى الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة حاكما وقاضيا على الإطلاق فيما عدا الولاية العظمى تبعاً للنص ، فالأصل أن كل من يأتي منه الفصل بين الناس حكمه جائز إلا ما خصص بالإجماع وهو الإمامة العظمى .

ويرى أبو حنيفة أن المرأة يجوز لها أن تكون قاضية في الأموال فقط حملاً على شهادتها فيها التي ورد الجواز بها في القرآن الكريم : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » (٢) .

ويرى الجمهور أن الذكورة شرط في ولاية الأعمال وصحة القضاء ولا يستثنى من شرط الذكورة إلا ما ورد النص باستثنائه ، وقد كانت الذكورة شرطاً حملاً على الإمامة العظمى إذ لا فرق بين اتساع الدائرة أو ضيقها فيما يتعلق بحكمة اشتراط الذكورة (٣) .

(١) المحلى ج ٩ ص ٤٢٩ - ٤٣٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٣) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ج ٢ ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .

المرأة ونوع الوظائف التي تليق بها :

ومن أباح للمرأة أن تتولى القضاء لم يباح لها ذلك لإباحة مطلقة ، فقد ورد النهى على أن يقضى القاضى وهو مريض . . . وحمل المرأة نوع من المرض ، كما أن هناك أنواعاً من الوظائف قد لا تناسب المرأة ، كالوظائف التي تحتاج إلى المخاطرة وعمل بالليل ونحو ذلك ، ومنها الوظائف العسكرية وأعمال الشرطة . . . ثم إن هناك أعمالاً تجوز لامرأة ولا تجوز لامرأة أخرى ، فالمرأة التي لا يشغلها زوج ولا أولاد قد يباح لها من الأعمال ما لا يباح للمرأة التي تحمل مسئوليات الرضاعة والحضانة والبيت والزوج ، وهناك أعمال يتجه الفكر النسائي الحصيف إلى إبعاد المرأة عنها متزوجة أو غير متزوجة ، وذلك كوظيفة السكرتيرة الخاصة لشاب أو نحوها من الوظائف التي تحتاج في العرف إلى أناقة وشدة اتصال برجل وذلك اتقاء للزال ، وعلى هذا فإن المفكرين حينما أباحوا للمرأة أن تعمل نركوا للسبائىء الخلقية والاجتماعية أن تفرض نفسها عند التنفيذ .

تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال :

ومن الغزو المقيت الذي جاء إلى الشرق من الغرب ، هذه العادة المردولة التي تدفع المرأة إلى مظاهر الرجال فتلبس لبسهم وتبدو خشنة مثلهم ، وتقصر شعرها إلى ما يجعلها قريبة من الرجل ، وفي نفس الوقت نجد فتياتاً يميلون إلى عكس الاتجاه ، يتجهون إلى الليونة والميوعة ويطلقون شعورهم ، وأشهد لطالما وقفنا أمام إنسان وترددنا طويلاً أهو ذكر أو أنثى ، والعجيب أن الغرب قدم (للخنافس) تحية لم يقدم مثلها للأبطال ، وصدق للمسترجلات كأن ليس في الدنيا رجال ، أما الفكر الإسلامى في هذا المجال فقد عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بما رواه عبد الله بن العباس قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال ، وفي رواية أبي هريرة : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبس المرأة ، والمرأة تلبس لبس الرجل .

الخمر

ما الخمر ؟

إن أدق تعريف للخمر يؤخذ من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد عرّف الخمر بقوله : كل مسكر خمر وكل خمر حرام ، وكان عليه السلام يجيب عن حكم العسل أو الدرة أو الشعير ، تُنْبَذُ حتى تشتد . وأعلن «عمر» على الناس من فوق منبر الرسول أن الخمر ما خامر العقل ، أى اختلط به وستره ، وهذا التعريف يتفق تماماً مع معجم اللغة العربية ؛ فقد جاء في « لسان العرب » في مادة (خمر) ما يلي :

الخمر المسكر سميت خمرّاً لأنها تخامر العقل وتغطيه ، والتخمير التغطية ، ومنه خمار الرأس أى غطاؤه ، وخَسِمَ الشيء يخمره خمرّاً أى ستره ، وفي الحديث : لا تجد المؤمن إلا فى إحدى ثلاث : فى مسجد يعمره أو بيت يخمره أو معيشة يدبرها . وفى القاموس المحيط فى نفس المادة : الخمر ما أسكر من عصير العنب ، أو عام (أى ما أسكر إطلاقاً من عصير العنب أو غيره) والعموم أصبح لأنها حرمت وما بالمدينة خمر عنب ، وما كان شراهم إلا البسر (التمر قبل نضجه) والتمر ، سميت خمرّاً لأنها تخمر العقل أى تستره ، أو لأنها تركت حتى أدركت واختمرت ، أو لأنها تخامر العقل أى تخالطه (١) .

وعلى هذا فليس هناك مادة محددة للخمر ، وإنما الخمر كل ما أسكر ، ونحن بذلك نريد أن نقطع الخلاف حول ما يثار من حرمة الخمر وحل الذبيذ ، أى حرمة ما يصنع من العنب وحل ما يصنع من التمر ، والأحاديث الشريفة التى أمامنا توّضح لنا معالم هذا التفكير ، ونقتبس منها ما يلي :

(١) النظر لسان العرب والقاموس المحيط .

- إن من الحنطة خمرآ ، ومن الشعير خمرآ ، ومن الزبيب خمرآ ،
ومن التمر خمرآ ومن العسل خمرآ .
- كل مسكر حرام على كل مؤمن .
- كل مسكر حرام وما أسكر كثيره فقليله حرام .

— عن عائشة قالت : كنا ننبد للرسول صلى الله عليه وسلم في سقاء ؛
فنأخذ قبضة من تمر أو قبضة من زبيب فنطرحها فيه ، ثم نمد ب عليه الماء ،
فننبد غدوة فيشربه عشية ، وننبد عشية فيشربه غدوة — قال أبو معاوية :
أي نهاراً فيشربه ليلاً أو ليلاً فيشربه نهاراً .

— عن ابن عباس قال : كان يُنسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم
فيشربه يومه ذلك والغد واليوم الثالث ، فإن بقي منه شيء أهراقه أو أمر به
فأهريق .

ومن مجموع هذه الأخاديت ندرك أن العبرة بالتخمر وإمكانية الإسكار
للإنسان العادي ، سواء كانت المادة المستعملة عنباً أو تمرآ أو غيرهما ، فيحرم
الشرب إذا حصل تخمر ، ويباح إذا لم ينضل الشراب إلى التخمر وهو مالا
نزال نستعمله حتى الآن من نقع بعض التمر أو الزبيب في ماء للشراب دون
تخمر ، فلو حصل التخمر والسكر من عصير الليمون أو البرتقال كان خمرآ
يحرم شربه ، وبالتالي لا يحرم عصير العنب الذي لم يختمر ، فالعبرة بالتخمر
والإسكار لا بالمادة التي تستعمل ، وفي ذلك يقول ابن حزم :
كل شيء أسكر كثيره أحداً من الناس فالنقطة منه فما فوقها إلى أكثر
المقادير خمر حرام ملكه وبيعه وشربه واستعماله على كل أحد ، وعصير
العنب ونبيذ الثين وشراب القمح وعصير كل ما سواها ونقيعه وشرابه ،
طبخ أو لم يطبخ ، سواء في كل ما ذكرنا ما دام هناك تخمر وإسكار (١).

ومما يدل على ضعف الرأى الذى يقول بأن الخمر هى المأخوذة من العنب فقط أحاديث صحيحة نورد هنا بعضها :

— عن أنس قال : إن الخمر حُرِّمت وما نجد خمر الأعناب إلا قليلا وعامة خمرنا البسر والتمر (١) .

— عن أنس أيضاً : لقد أنزل الله هذه الآية التى حرم فيها الخمر وما فى المدينة شراب إلا من تمر (٢) .

— عن ابن عمر قال : نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ خمسة أشربة ما فيها شراب العنب (٣) .

ومسألة أخرى نريد إبرازها أخذاً من الأحاديث التى سقناها فى مطلع هذا الموضوع ، وهى أن الحرمة تتعلق بالإسكار حكماً ، أو ما سميناه إمكانية الإسكار للشخص العادى فإذا كان مدمن الخمر لا يسكر منها ، فهى حرام عليه أيضاً ، لأنها تسكر الشخص العادى ، ويدخل فى ذلك أيضاً ما قرره تلك الأحاديث الشريفة ، من أن ما أسكر كثيره فقليله حرام ، فمن الطبيعى أن قطرات من الخمر لا تسكر أحداً ، فهذه القطرات وإن لم يكن فيها فساد فإنها تفضى إلى الفساد ، لأن قليل الخمر يدعو إلى كثيرها (٤) ، وفى كلمات موجزة نعود لنقرر أن كل مسكر خمر وكل خمر حرام ، وأن ما أسكر كثيره فقليله حرام ، وما أسكر الرجل العادى فهو حرام على من لم يسكره الشراب .

التدرج فى تحريم الخمر وحكمته :

وقد كان العرب قبل الإسلام مولعين بالخمر ومن نتائج هذا الولع أن

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخارى .

(٤) ابن تيمية : القواعد النورانية الفقهية ص ١١٧ .

ظهر لها في لغتهم حوالى مائة اسم ، كما أنهم أكثروا وصفها في شعرهم ، ووصف أقداحها ومجالسها ، ومن أجل استحكام عادة الشرب عند العرب اقتضت حكمة الله أن يكون تحريمها متدرجاً ، ففي المرحلة الأولى أمر المسلمين بعدم الصلاة وهم سكارى قال تعالى : « . . . لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون (١) » وفي المرحلة الثانية ذكر القرآن الكريم أن في الخمر إثماً كبيراً ولم يذكر وجوب اجتنابها : قال تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما (٢) » وقد أحجم أهل الورع عن الخمر بعد هاتين الآيتين ، بل أحجم بعضهم عنها بعد الآية الأولى عند الصلاة ودونها ، وقد كان ذلك تمهيداً للتحريم الشامل الذى جاءت به الآيتان الكريمتان « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟ » (٣) ففي هاتين الآيتين الكريمتين يحىء التحريم القاطع للخمر ، وتعد الخمر كالميسر والأنصاب والأزلام أرجاساً ، وأنواعاً شديدة الفحش والقبح ، ويؤمر المسلمون باجتنابها ، والاجتناب أكثر من التحريم لأنه دعوة إلى الابتعاد عن مردول مستقبح يدعو له الشيطان ، وتوضح الآية الثانية صوراً من أضرار الخمر والميسر ؛ فهما يقطعان الصلات بين الناس ، ويثيران العداوة بينهم ، ويصدان عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، وتختتم الآية الثانية بتهديد واضح هو « فهل أنتم منتهون ؟ » وقد أدرك بعض العرب ما في هذا التهديد من عنف ، فما إن سمع الواحد منهم هذه الآية عقب نزولها حتى أراق خمره ونزع الكأس من فيه وأفرغ ما فيها على التراب

(١) سورة النساء الآية ٤٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٩ .

(٣) سورة المائدة الآيتان ٩٠ و ٩١ .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال : كنت أسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبا طلحة وأبي بن كعب شراباً من تمر ، فأبأهم أت فقال : إن الخمر قد حرمت . فقال أبو طلحة : قم يا أنس إلى هذه الجرة فاكسرها . فقممت إلى مهراس لنا فضربتها به حتى تكسرت (١) . وكما جاء التدرج في القرآن الكريم جاء كذلك في السنة ، يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : يا أيها الناس ، إن الله يبغض الخمر ، ولعل الله سينزل فيها أمراً ، فمن كان عنده منها شيء فليبعه ولينتفع به ، قال أبو سعيد فما لبثنا إلا يسيراً حتى قال صلى الله عليه وسلم : إن الله حرم الخمر ، وقرأ آية بتحريمها ثم قال : فمن أدركته هذه الآية وعنده شيء من الخمر فلا يشرب ولا يبيع ، قال أبو سعيد فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة ففستكوها (٢) . ولعل من طبقات التحريم ما يرويه أبو هريرة عن الرسول أنه قال : مدمن الخمر كعابد وثن (٣) ، فالإدمان درجة أعلى حرمة من الشرب ، وهو ينقل المدمن إلى درجة عبدة الأوثان .

ولم يكتف الإسلام بمحاربة شرب الخمر ، بل حرم كل الوسائل التي تعين عليها وتؤدي إلى شربها ، وفي الحديث الشريف عن أنس قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر عشرة ، عيها ، وعاصرها والمقصورة له ، وحاملها والمحمولة له ، وبائعها ومبتاعها ، وآكل ثمنها ، وشاربها وساقها ، وهكذا حرم الإسلام عصر الخمر وتعبئتها وحملها ، والتجارة فيها وسقيها ، كما حرم إهداءها وألزم مقاطعة مجالسها ، ومما ورد في إهداء الخمر أن رجلاً جاء إلى الرسول بعد أن سمع بتحريم الخمر ، فسأل : ألا أبيعها ؟ فقال الرسول : إن الذي حرم شربها حرم بيعها ، قال الرجل : أأكارم بها اليهود ؟ قال النبي : إن الذي حرمها حرم أن يكارم بها : فسأل الرجل : فما أصنع بها فأجاب الرسول : شنها على البطحاء (أي أرقها) .

(١) ابن القيم : الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ص ٣٢٧ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه ابن ماجه .

وعن مقاطعة مجالس الخمر ورد قوله صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يقعد على مائدة تدار فيها الخمر. وروى أنه جىء لعمر بن عبد العزيز بقوم اجتمعوا على الخمر فأمر بجلدهم ، فقبل له إن فيهم رجلاً صائماً (لم يشرب) فقال جمر إبدأوا به أما سمعتم قوله تعالى « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم » (١) .

ويورد ابن ماجه حديثين شريفيين يبرزان ما منحه الله للرسول من إلهام أو ما أوحى به إليه من بعض أمور المستقبل ، والحديثان هما :

— لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب طائفة من أمتي الخمر ، يسمونها بغير اسمها .

— يشرب أناس من أمتي الخمر باسم يسمونها به .

وقد تحقق ذلك فعلاً ، فيروى التاريخ أن بعض القضاة كانوا يجلسون على الشراب ، ويسأل الواحد منهم ساقيه كلما أتاه بقدرح قائلاً : ما هذا ؟ فيقول : المدام ، فيشرب ، وفي كأس أخرى يسأل ويقال له إنها نخندريس فيشرب كذلك ، ويظل يشرب الخمر بستة أسماء أو سبعة ، فإذا أخطأ الساق وقال إنها خمر دفعها القاضي ورفض شربها (٢) وتلك كما ترى حيلة مردودة .

عقوبة شارب الخمر :

وشارب الخمر يرتكب معصية يستحق عليها العقاب ، وقد رأينا أن عمر ابن عبد العزيز أمر بجلد شاربي الخمر ومن حضر مجلسهم ، وروى أبو داود والترمذي عن أنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم أتى بشارب خمر فأمر به فجلد بجريدتين نحو أربعين جلدة ، وقد تطور عدد الضربات ، فيروى أن

(١) سورة النساء الآية ١٣٩ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٦٠ .

عليها مثل عن عددها في عهد عمر بن الخطاب فقال : إذا شرب المرء سكر ، وإذا سكر هدى ، وإذا هدى افترى ، وعقوبة المفترى ثمانون جلدة . وهذا يتفق مع ما يرويه البخاري عن السائد بن يزيد قال : كنا نؤتى بالشارب في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي إمرة أبي بكر وصدر من إمارة عمر فنتقدم إليه فنضربه بأيدينا ونعالنا وأرديتنا ، حتى إذا عتوا فيها وفسقوا جلده عمر ثمانين (١) .

التداوى بالخمير :

إن من سماحة الإسلام أن يبيح للمضطر في حالة الاضطراب ما حرم في الظروف العادية ، قال تعالى : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم (٢) » وبناء على ذلك قيل بإباحة الخمير للتداوى عند مالا يوجد سواها ، بشرط أن يقول بذلك طبيب حاذق مسلم غيور على شرع الله ، ولا نكاد نتصور أن تكون الخمير وحدها الدواء إلا في راحة مثلاً حيث يقل الدواء ، أو في ليل وقد أفضلت أمكنة الدواء أو نحو ذلك ، أما أن يقال إنها دواء في الأحوال العادية فذلك مالا يرتضيه النظر الثاقب ، فإن عناصر الشفاء يمكن أن توجد في دواء آخر ، ولعل أدق بحث يحرم التداوى بالمحرمات هو ما كتبه ابن القيم (٣) .

فقد أورد قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم ، وقوله عن الخمير إنها داء وليست بالدواء ويقرر أن المعالجة بالمحرمات بالإضافة إلى تحريمها شرعاً قبيحة عقلاً ، فإن الله سبحانه وتعالى يحرم على المسلمين الشيء نجس ، ولا يكون الخبيث دواء ، ولا يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل ، وهذا يخلاف ما حرمه الله على بني إسرائيل ، فإنه

(١) ابن رشد : بداية المجتهد ج ٢ ص ٤٨٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٣ .

(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ١١٤ - ١١٥ .

حرم عليهم أنواعاً من الطيبات بسبب إسرافهم في الضلال قال تعالى :
« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » (١)، وقد أمر الله
بتجنب الخمر ، فأباحها للدواء حصص على الترغيب والملابسة ، وهذا
ضد مقصود الشارع ، ثم إن شرط الشفاء بالدواء تلقىه بالقبول ، واعتقاد
منفعته ، والإيمان بما جعل الله فيه من بركة الشفاء ، ولن يتوفر هذا في المسلم
بالنسبة للخمر ، لأنه يعتقد حرمتها ، وأذاها ، وقلة البركة فيها ، ولن يتم
بها لذلك شفاء .

وعلى هذا فمرة أخرى لا نقول بالتداوى بها إلا في الحالات التي لا يتيسر
فيها دواء سواها ، وبشرط أن يقول بذلك طبيب مسلم ماهر متدين .

وبعد هذا الحديث حول أحكام الإسلام عن الخمر نعود للكلام عن
مضارها كما ذكرها المفكرون ، ولا شك أن الرسول صلوات الله عليه قمة
بين المفكرين ، فهو يقول عنها موصياً أبا الدرداء : لا تشرب الخمر فإنها
مفتاح كل شر . وفي حديث آخر يقول : إياك والخمر فإن خطيئتها تفرع
الخطايا (أى تفوقها) .

وقال كليانسو من كبار ساسة فرنسا : إن الخمر بالقدر الذي يتناوله
كثير من أهل عصرنا سم زعاف ، يخرّب النشاط البشرى ويقضى على
كل مجتمع .

وقال هريو من كبار ساسة فرنسا أيضاً : إن معظم مَن في ملاجئ
المجانين جاءوا إلى هذه الملاجئ بسبب الخمر .
وقال بنتام الإنجليزي : التبذ في الأقاليم الشمالية يجعل الرجل كالأبله ،
وفي الأقاليم الجنوبية يصير كالمجنون ، وفي الأولى يكتفى بالمعاقبة على السكر
على أنه عمل سيء ، وفي الثانية يكون المنع بطرق أشد لأن التبذ يؤدي

للتشرد ، ولقد حرمت ديانة محمد جميع المشروبات المسكرة وهذا من محاسنها .

وقال القس إسحاق ثيار الإنجليزى خلال كلامه عن انتشار الإسلام فى إفريقيا : إن الإسلام حيث سار تسير معه الفضائل ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والإقدام من جنوده وأنصاره ، وقال عن انتشار المسيحية : إنه يأسف لانتشار السكر والفحش والقمار بين السكان بالنتشار دعوة المبشرين بينهم ، وصرح بأنه يختار إسلاماً لا سكر فيه على نصرانية فيها سكر (١) .

ويقول بعض الباحثين : إن الإنسان لم يصب بضربة أشد من ضربة الخمر ، ولو عمل إحصاء عام عمن فى مستشفيات العالم من المصابين بالجنون والأمراض الفتاكة بسبب الخمر ، وعمن انتحروا أو قتلوا غيره بسبب الخمر ، وعمن يشكو من آلام عصبية ومعدية ومعوية بسبب الخمر ، وعمن أورد نفسه موارد الإفلاس بسبب الخمر ، وعمن تجرد من أملاكه بيعاً أو رهناً بسبب الخمر لو عمل إحصاء بذلك أو ببعضه لبلغ حداً هائلاً نجد كل نصيح بليزائه صئبلاً (٢) .

وفى القرن الحالى أثبت العلم أن الخمر مفسدة عظيمة ، وأنها تضر بالإنتاج ضرراً بليغاً ، وتهدم الصحة ، وتقضى على التفكير وتأتى على الثروة ، وتوهن النسل ، فأخذت الدعوات لتحريم الخمر تظهر ، والجماعات لحربها تؤلف وتشجع ، وأخيراً أصدرت الولايات المتحدة قانوناً يحرم الخمر تحريماً باتاً ، وأصدرت الهند كذلك قانوناً مماثلاً ، وعمدت دول كثيرة إلى تحريم الخمر تحريماً جزئياً ، فلا تقدم الخمر فى المحلات العامة خلال النهار ولا تقدم ولا تباع لمن لم يبلغ سنّاً معيناً (٣) .

(١) انظر الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على ص ١٠٣ - ١٠٥ .

(٢) نقلاً عن يوسف القرضاوى : الحلال والحرام فى الإسلام ص ٥٥ .

(٣) إبراهيم عوضين : الإسلام والإنسان ص ٢٠٦ .

وهكذا بعد أربعة عشر قرناً بدأ العالم يتجه إلى السنة الرشيدة التي نشر لواءها الإسلام ، لذلك يقول الأستاذ Malema إن تحريم الإسلام . الخمر والموارد المخدرة كانت بين العوامل التي جذبتة للإسلام ويذكر أن المسيحية لم تحرم الخمر والمخدّرات التي يحاربها العلم الآن ، فكان موقف الإسلام من هذه المواد سبقاً عظيماً .

كلمة عن مدمني الخمر :

بقيت كلمة عن مدمني الخمر الذين يقال عنهم إنهم لم يعودوا يسكرون بشرها ، وهذه الكلمة من واقع التجربة الخاصة ، فإني أشهد الله لقد رأيت في إنجلترا في أيام الاحتفالات بالأعياد ، بعض هؤلاء المدمنين أنهارت أرجلهم ، ودارت رؤوسهم ، فألقوا بأنفسهم على قارعة الطريق واستسلموا لغيوبة يعلم الله طولها .

ورأيت رجلاً عرف بالرزانة والتعشم لعبت الخمر برأسه فراح يغازل زوجته صديق له .

ورأيت طفلة هزيلة غير متكاملة القوى جسماً وعقلياً ، وقال الأطباء لأبيها الغني إن هذا نتيجة إسرافه في شرب الخمر ، ولحسن الحظ أضعفت الخمر قواه فلم يستطع إنجاب سواها .

أيها المسلم : لقد جمع دينك القويم ما يضمن لك سعادة النفس ، وصحة الجسم ، وسلامة الأسرة ، فتمسك بدينك تبتل خير الدنيا والآخرة ، وما يذكره الأدب العربي عن الخمر أن أحد الكبراء أعجب بشعر « نصيب » فدعاه للعشاء معه ، وفي أثناء الطعام قال الداعي للشاعر : أتحب أن تكون نديمي الليلة في الشراب يا نصيب ؟ فأجاب نصيب : أنا ياسيدي أشوّد الجلد ، مشوه الخلقة ولم يرفع قدرى إلا عقلى ، وأنا أكره أن أدخل على هذا العقل ما يفسده .

البحشيش - الأفيون - الكوكايين - الهروين

ماذا يرى الفكر الإسلامى فى المخدرات بأنواعها ؟ فى تلك التى ذكرنا ، أو فى سواها مما ظهر أو سوف يظهر من مثيلاتها ؟ .

فى الإجابة عن هذا نعود لما أوردناه من أحاديث الرسول فى تحديد الخمر ، يقول صلى الله عليه وسلم : كل مسكر خمر وكل خمر حرام . فيقول : كل مسكر حرام وما أسكر كثيره فقليله حرام .

وأوردنا تعريف عمر للخمر بأن الخمر ما خامر العقل أى خالطه وستره .

وعلى هذا فكل ما يستر العقل يكون رجسا من عمل الشيطان يلزم اجتنابه ، لأنه يدمر الإنسان ، ويسبىء علاقاته بالآخرين .

فالحكم واضح لجميع هذه البلايا التى نزلت بأرض الإسلام لتضعف الناس وتدمر الاقتصاد ، وليست أرض الإسلام لها بأرض ، فقد حرمها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا ، فمن العار أن تظهر بأرض الإسلام بعد هذا المدى الطويل .

وتجىء الآن آية عامة توضح ما أحل الله وما حرم من الأطعمة والأشربة ، هي قوله تعالى : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » (١) فهذه الآية الكريمة توضح علة التحريم وعلة الإباحة ، «فحيث كان الضرر كان الحظر» ، وحيث نخلص النفع أو غلب كانت الإباحة ، وإذا استوى النفع والضرر كانت الوقاية خيراً من العلاج » (٢)

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٢) فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت : الفتاوى ص ٣٨٥ .

وقد أجمع الفقهاء على أن التحريم يتبع الخبث والضرر ، وأن المسلم لا يحل له أن يتناول من الأطعمة أو الأشربة شيئاً يقتله بسرعة أو يبطئ ، أو يضره ويؤذيه ، ولا أن يُكثر من طعام أو شراب يُمرض الإكثار منه ، فإن المسلم ليس ملك نفسه وإنما هو ملك مجتمعه ، وحياته وصحته أسمى نعم الله لديه ، وهما وديعة عنده ، لا يحل له التفريط فيهما ، قال تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » (١) .

وقد عنى الباحثون المسلمون بتطبيق هذه الأحكام على المخدرات وأجمعوا على حرمتها لخبثها وضررها البالغ على الإنسان من جهة . ولأنها تخامر العقل وتخدّره وتسلب التفكير أو تضعفه من جهة أخرى ، بل أنها في رأى بعض العلماء أسوأ من الخمر .

العلماء في جميع العصور يحرمون كل أنواع المخدرات :

يقول ابن تيمية : هذه الحشيشة الصلبة حرام سواء سكر منها الإنسان أو لم يسكر . . . وإنما يتناولها الفجّار لما فيها من النشوة والطرب ، فهي تجمّع الشراب المسكر في ذلك ، والخمر توجب الحركة والخصومة ، والحشيش يوجب الفتور والدلة ، وفيها مع ذلك من فساد المزاج والعقل وفتح باب الشهوة ، وما توجبه من الدياثة (فقدان الغيرة) مما هو شر من الشراب المسكر ، وإنما حدثت في الناس بحديث التار (٢) . وعلى تناول القليل والكثير منها حد الشرب ، ثمانون سوطاً أو أربعون .

ومن ظهر منه أكل الحشيشة فهو بمنزلة من ظهر منه شرب الخمر ، وشر منه في بعض الوجوه ، ويعاقب على ذلك كما يعاقب هذا ، وقاعدة الشريعة أن ما تشبه النفوس من المحرمات كالخمر والزنا ففيه الحد ،

(١) سورة النساء الآية ٢٩ . .

(٢) لعله يقصد انتشارها . أما ظهورها فقد سبق ذلك بكثير كما سنرى عند الكلام عن

« الحشاشين » .

وما لا تشتهي كالميتة فيه التعزير ، والحشيشة مما يشتهيها آكلوها ويمتنعون عن تركها (١) .

ويقول ابن تيمية كذلك : إن كل ما أسكر ولو كان من الجاهلادات قد سماه الرسول خمرآ ، بقوله « كل مسكر خمر » لمخاثرته العقل أي : تغطيته وسكره ، أو مخالطته وتغييره ، وعلى هذا فالحشيش من الخمر ، حكمه حكمها تحريماً ونجاسة وحداً ، وثبت في سنن أبي داود النهي عن كل مسكر ومفتّر ، إذ روت أم سامة قالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتّر ، وفتور الجسم ضعفه واسترخاؤه ونموده ، وهي مظاهر تعاطى المخدرات (٢) .

ويقول ابن القيم : إن أحاديث الرسول عن الخمر تشتمل على تحريم ثلاثة أجناس ؛ مشارب تفسد العقول ، ومطاعم تفسد الطباع وتغذي غداة خبيثا ، وأعيان تفسد الأديان وتدعو إلى الفتنه والشرك . . . وتحريم الخمر يدخل فيه تحريم كل مسكر مائعا كان أو جامدا عصيرا أو مطبونا ، فيدخل فيه عصير العنب وخمر الزبيب والتمر والذرة والشعير والعسل والحنطة واللحمة الملعونة (الحشيش) لقمة الفسق التي تحرك القلب الساكن إلى أنحبث الأماكن ، فإن هذا كله خمر بنص الحديث الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد فهم الصحابة هذا الفهم عن الرسول وهم أعلم الأمة بخطابه ومراده ، ففسروا الخمر بأنها ما خامر العقل أيا كان نوعه (٣) .

ويقول فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : إن الإسلام حين قرر حرمة الخمر وعقوبة شاربيها لم ينظر إلى أنها سائل يشرب ، وإنما نظر إلى الأثر الذي تحدثه في شاربيها من زوال العقل مما يفسد على الإنسان إنسانيته ويسلبه مكانة التكريم التي منحها الله إياها ، ويفسد عليه أيضا ما يجب أن

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٤ ص ٢٦٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٣١٥ .

(٣) زاد المعاد ج ٤ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

يكون بينه وبين الناس من صلوات المحبة والصفاء ، ويطوِّع له مع هذا ارتكاب الشر ، وكل هذا موجود في المخدرات . . . وقد كشف البحث الإنساني في ضوء هذا الوحي الإلهي الكريم أن للخمر أضراراً أخرى أجمع عليها الأطباء . في الكبد والمعدة وسائر أجهزة الجسم ، وأنها تتعدى الأضرار الصحية إلى الأضرار العقلية والروحية والأدبية والاقتصادية والاجتماعية ، وأن هذه الأضرار أشد في الفتك بالإنسان من أية أضرار أخرى ، وعندما تتحقق هذه الأضرار في شيء فإنه يلزم تحريمه ، سواء أكان سائلاً مشروباً ، أو جامداً مأكولاً ، أو مسحوقاً مشموماً ، أو نحو ذلك ، فكلها تستوي في الحكم لأنها اتحدت في الخواص ، وهذا طريق من طرق التشريع الطبيعية ، عرفه الإنسان منذ أدرك خواص الأشياء ، وقارن بعضها ببعض ، وقد أقر الإسلام ذلك طريقاً للتشريع ، وأثبت به حكم ما عُرفَ للذي لم يُعَرَفَ لاشتراكهما في الخواص ، والقاعدة العامة التي هي أول القواعد التشريعية في الإسلام ، وهي دفع المضار وسد ذرائع الفساد ، وبهذا أجمع على حرمة المخدرات فقهاء الإسلام الذين ظهرت في عهدهم ، وتبينوا آثارها السيئة ، وعرفوا أنها فوق آثار الخمر (١) .

ويقول الأستاذ يوسف القرضاوى : إن هذه المخدرات تؤثر في حكم العقل على الأشياء ، فتجعل متعاطيها يذهل عن الواقع ويتخيل ما ليس بواقع ، ويسبح في بحر من الأوهام والأحلام ، هذا غير ما تحدثه من فتور في الجسد ، ونحدر في الأعصاب ، وهبوط في الصحة ، وتخور في النفس ، وتحلل في الإرادة ، وضعف الشعور بالواجب ، وغير ذلك مما يجعل هؤلاء المدمنين لهذه السبوم أعضاء غير صالحة في جسم المجتمع ، هذا فضلاً عن إتلاف المال وخراب البيوت مما ينفق على تلك المواد من أموال طائلة ، ربما دفعها

(١) الفتاوى ص ٣٦٩ وما بعدها ملخصاً .

المدمن من قوت أولاده ، وربما انحرف إلى طريق غير شريف يجلب منه لئمتها (١) .

الحشيش والحداع :

وقد لعب الحشيش فى التاريخ دورا حقيقى خطر هذه المادة ، فقد وُجدت خلال العهد السلجوقى جماعةً اشتهرت بالتآمر والغدر ، هى جماعة الحشاشين ، حتى أصبحت الكلمة الانجليزية التى تحمل اسمهم ASSASSINS تعنى الفتكة والسفاكين ، وزعيم الحشاشين هو الحسن بن الصباح ، وقد اعتنق المذهب الإسماعيلى ، وأصبح له أتباع كثيرون كان هو لهم « داعى الدعاة » ، وكان له بستان عظيم ، به مسابح ماء ، وطيور تغرد ، وزهور عاطرة وغبابات كثيفة ، وأمكنة خلابة للاستراحة ، وفتيات ساحرات شبه عاريات ، وكان يختار من أتباعه أشدهم بأسا وأمثلهم للطاعة ويقدم لهم الحشيش وأقداحا من الشراب المسكر حتى يناموا ، ثم يأمر بحملهم إلى البستان ووضعهم هناك وهم سكارى ، ويفيق الفدائيون ليجدوا حولهم البهجة وفتيات كالحور العين ، ويظل هؤلاء فترة فى هذا النعيم ، ثم تقدم لهم الفتيات الحشيش مرة أخرى مع أقداح الشراب المسكر حتى يناموا وعندئذ يحملون مرة أخرى إلى حيث كانوا ، فإذا أفاقوا من نومهم حسبوا ما رأوه حلما أو ظنوه زيارة إلى جنة الخلد ، وكان داعى الدعاة يذكر لهم أن من أطاع أوامره أو قتل دونها حملته الملائكة إلى جنات النعيم التى رأوا بأنفسهم صورة منها (٢) .

أعداء الإسلام دفعوا المخدرات لأرض الإسلام :

وهنا بعد أن تحدثنا عن الخمر ثم عن المخدرات يتحتم علينا أن نقرر أن هذا وذاك فى العصر الحديث إنما هى بعض صور الغزو الاستعمارى

(١) الحلال والحرام فى الإسلام ص ٦١ .

(٢) انظر الجزء الثالث من « موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف

ص ٤٣٢ - ٤٣٣ .

الذى دفعه أعداء المسلمين إلى أرض الإسلام قاصدين بذلك أن يزرعوا جرثومة خطيرة تقضى على الصحة ، وتقتل الشجاعة والنخوة ، وتسلب المال وتهدد الأطفال ، وقد استطاع المستعمرون أن يشيعوا الخمر في المدن وبين الطبقات المثقفة والدبلوماسيين ، ورأى كثير من ضعاف النفوس فيها مجداً وتشبهاً بالغربيين فانصاعوا لها (١) ، ولم تستطع الخمر أن تغزو الريف وطبقات العمال ، إذ لا تزال حماسة التدين تشيع في الريف وبين العمال ، ولكن المستعمر وجد الحشيش سلاحاً يغزو به هؤلاء معتمداً على أن الحشيش لم ترد بتحريمه آية من آيات القرآن ، وقد تزعمت إسرائيل قيادة هذا الغزو فهي تزرع الحشيش وتستورده لتعمل على تهريبه بطريق أو بآخر إلى بعض البلاد العربية والإسلامية ، فنداؤنا ضد الخمر والحشيش - بجانب الدافع الدينى - دعوة للتحرر من صورة من صور الاستعمار ، وكشف للقناع الذى يستر هذه الصورة ، ثم نتجه بكامة إلى الإخوة من العمال والفلاحين الذين جذبهم هذا الداء لنذكر لهم أن العالم الإسلامى يهتم بهم فى العهد الحاضر أياً اهتمام، ويراهم من أهم عموده الاجتماعية، ولذلك ندعوهم أن يعرفوا ما يدبر ضدهم وضد بلادهم ودينهم من الشر ، وأن يقاطعوا تلك الحلقات الكثيرة التى تجتمع حول هذا الوباء المرير ، إننا ندعو هؤلاء الإخوة إلى حلقات جديدة فيها علم ومعرفة، وفيها ندوات ودراسات، وفيها تدريب عسكري وتاريخ، وفيها لهُو برىء ، وفيها جلسات عائلية طيبة ، وفيها نزهة أو رحلة ، وفيها موسيقى حنون ، وغناء عذب ، ورواية فى الراديو أو التليفزيون أو السينما ذات هدف ، نريد لهم حياة طيبة تميل بهم للطيبات وتنأى عن الخبائث ، نريد لهم أن يعرفوا أن الإسلام لا يحرم عليهم إلا ما يضرهم وبأوطانهم وأولادهم، وأن اتباعهم للإسلام اتباع للهدى والرشاد والصحة والسلامة .

(١) إن شيوع الخمر والشهوات فى الغرب أنك قوام وانحط بانسانيتهم، وقد قال كنيدي سنة ١٩٦٢ : إن من بين كل سبعة يستعدون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين بسبب انهماكهم فى الشهوات .

الديبلوماسيون والحمور :

وكلمة أخرى نقولها للديبلوماسيين ، وكاتب هذه السطور عمل في هذا النطاق ردماً من الزمن ، وقد رأيت كثيرين من الديبلوماسيين المسلمين نسوا إسلامهم ، وانساقوا في تيار الشرب والصخب ، ورأيت آخرين تمسكوا بدينهم وتقاليدهم ، وعزفوا عن الشراب في حفلات الشراب ، وأشهد أن هؤلاء كانوا ينالون كثيراً من تقدير الناس ، وكانوا يعدون نماذج طيبة تمثل بلادهم أشرف تمثيل ، ورأيت طائفة ثالثة تاجرت في الحمور وعرضوا بعض ما يجلبون في الأسواق . لأنها تترد لهم رخيصة الثمن وتباع في الأسواق بأثمان مرتفعة . وتلك كلمة مجملة لم تذكر فيها اسم دواة ولا اسم شخص لا من الذين يسيثون ولا من الذين يحسنون ، لأنها كلمة تدعو للخير وتتطلع إلى مستقبل أحسن ، ولذلك لا تعرض للماضي إلا بقدر ما يساعد على الوصول إلى مستقبل أحسن .

القات :

بقي نوع آخر من المخدرات غفل عنه الباحثون ، ذلك هو نوع من ورق الشجر يمزج وكان في القرن الرابع الهجري — بناء على رواية المسعودي — يأتي من الهند ويكثر مضغه في الحجاز واليمن (١) ، ويبدو أن هذا الشجر انتشر زرعته في اليمن ، ولعله « القات » الذي يئخذ مستعمليه ، ويدعهم في خمول أو غيبوبة ، لا نشاط لهم ولا حركة جسمانية أو فكرية يعتد بها ، وعلى هذا فالقات وأمثاله ألوان من المخدرات ، ينطبق عليه حكم الحمر في تحريمه وفي عقاب متعاطيه .

وقبل أن ندع الحمور والمخدرات نتساءل : أما آن لحكومات العالم الإسلامي أن تقف من الحمر وقفة صارمة كما وقفت من المخدرات ؟ وأن تطهر بلادنا الإسلامية من هذا الرجس الذي يمس المسلمين في أخلاقهم وصحتهم وأموالهم ؟ .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٨١ .

تحذير من السموم البيضاء

وكلمة أخيرة هي أن مؤامرة قاسية تحاك ضد الوطن وضد المواطنين ،
وتدفع السموم البيضاء إلى أرضنا المقدسة ، ولا بد أن نتيقظ لمقاومتها والقضاء
عليها ، وفي سبيل ذلك لابد من تعاون كامل يشترك فيه رجل الدين ، ورجل
القانون ، ورجل الشرطة ، ورب الأسرة ، والأستاذ في الجامعة ،
والصحفي حتى نقضي على اليد الأثيمة التي تحاول أن تزرع الدمار
في أرضنا الطيبة ، وأن تنال من شبابنا الذي حقق النصر ضد الصليبيين
ضد الصهاينة مما يجعلنا نؤكد إن هؤلاء الأعداء يعملون للثأر من الشباب
وإضعاف قوة المستقبل ، لكن شبابنا أسمى من أن يقع في حبال هؤلاء
الأعداء .

وننبه إلى أن تعاطى السموم البيضاء ، مرة واحدة يخلق الإدمان ، وفي
الإدمان هلاك الإنسان ، إلا إذا أسرع للعلاج وابتعد عن هذا الداء الويل .

ويذهب تجار السموم البيضاء ومن خلفهم أولئك الأشرار من أعدائنا
وأعداء الإنسانية إلى خديعة ضحاياهم ، فهم يقدمون الجرعة الأولى مجاناً ،
وربما قدموا الثانية ، فإذا أدمن من يستجيب لهم بدءوا يتحكمون فيه
ويسلبونه النهاية المريرة .

فباسم الدين وباسم الوطن نحذر ، واللهم قد بلغت ، فاشهد .

الدخان

إن الأبحاث العلمية الحديثة نسبت للدخان أشد الأمراض وأكثرها فتكاً بالإنسان ، إذ قررت أن سرطان الرئة وسرطان الخنجرية أثر من آثاره ، والسرطان — رحاك الله — مرض لا علاج له أو ينذر الشفاء منه ، وبالإضافة إلى السرطان يُسبب التدخين اضطراباً في القاب والرئتين ، وقد عمدت أكثر الدول ومنها مصر إلى تنبيه الناس إلى ما في التدخين من خطر ، ووصل بها التحذير إلى أن تسجل على علب السجائر خطر المادة التي بداخل هذه العلب على الصحة ، وأن مستعملها يتحمل مسئولية الأضرار التي تنزل به بسبب استعمالها .

وتسألني : لماذا لم تمنع الدول استعمال هذا الداء وتصدر قانوناً بذلك لتحمي به الناس من هذا الشر ؟

وأجيب بأن اليهودي الذي يفتح جيبه الواسع ليتلقى أثمان الدخان يقف للناس بالمرصاد ، يدفع الرشوة ، ويهدد ببطالة آلاف العمال الذين يعملون في مصانع الدخان . . . وتزول بذلك حماسة المتحمسين للقضاء على صناعة التبغ وبيعه ، ويكتفون بالعبرة التي يسجلونها على علب السجائر ، بل يتنازلون عن هذه العبرة بحجة أن الناس يعرفون ذلك فلا داعي لتسجيله على العلب .

والعجيب أن الذي يدخن لا يقرأ هذه العبرة ، فقد أصبحت مألوفة لديه ، وهو أعمى القلب والبصيرة فلا يحس بالخطر ، وكثير من الناس دهمهم الخطر ، وكان أهم جانب في العلاج أن يتوقفوا عن التدخين ، وتوقفوا فعلاً ، فلماذا لا يتوقف المدخنون عن التدخين قبل أن يصلوا إلى مرحلة الخطورة ؟

وقد حقن الأطباء كلبا بمادة النيكوتين فمات المسكين بعد قليل ، وأعلن الأطباء أن التدخين يؤثر على الجهاز العصبي تأثيرا واضحا ويحدث اضطرابا في الجهاز الهضمي ، وفيه خطورة واضحة لدى المرأة الحامل بوجه خاص ، فكثيرا ما تكون الولادة مبكرة عند المدخنات ، وكثيرا ما تغيرت القدرة التنفسية عندها مما يجعل الولادة صعبة متعبة .

وفي باريس أعلن الطبيب الفرنسي دكتور شوارتز في أكتوبر سنة ١٩٧١ أنه لم يعد هناك أدنى شك الآن في أن التدخين يؤدي في جميع الحالات تقريبا إلى الإصابة بالسرطان . وقال البروفيسور شوارتز في مؤتمر علمي عقد في باريس أن الأرقام تثبت وجود زيادة هائلة في مرضى سرطان الحنجرة وتجويف الفم والبلعوم والرئة من بين المدخنين ، وواضح أن استخدام الفلتر لا يقلل من خطر الإصابة بالسرطان إلا بنسبة قليلة . وقال إن التدخين مسئول عن تخفيض متوسط أعمار الفرنسيين عدة سنوات .

تلك بعض أضرار الدخان ، وهناك في الأوساط المتوسطة والفقيرة الأضرار المادية التي تسبب الأزمات المستمرة ، إذ يحرق عن طريق السيجارة أو (الجوزة) أكثر إيرادات الأسرة ، ولا شك أن ضرر التدخين أشنع عند الفقراء لعدم التغذية أو ضعفها ، وبمناسبة الحديث عن (الجوزة) في الريف نقرر أن عود الغاب الذي تلتقمه عدة أفواه ، ويدور على عدد من الناس ينقل العدوى من شخص إلى شخص ، حتى لا تكاد تجد مرضياً ينزل قرية حتى يعم جميع سكانها في مدى وجيز بسبب هذه (الجوزة) اللعينة .

أسباب ساذجة للتدخين :

ولماذا يعني بسطاء الريف بهذا الوباء ويقبلون على هذا النوع من التدخين بنهم ؟ سألت مرة فتي تبدو عليه البساطة ، هذا السؤال ، فأجاب : لقد رأيت كل الرجال يشربون ، فقلت لنفسي أأست رجلًا مثلهم ؟ ودخل (م ١٨ - الحياة الاجتماعية)

المسكين دائرتهم . وهكذا ينحدر الناس إلى هذه الهوة انسياقاً مع العادة ، وانجذاباً إلى الجموع المتردية فيها ، دون حاجة إلى التدخين ، ودون اقتناع بفائدته .

وزميل لي على درجة كبيرة من الثقافة لم يكن يحب التدخين ولا يميل إليه ، وانقطع عني حيناً من الزمن ، ثم التقيت به وهو يحرق سيجارة تلو أخرى ، فسألته عن السبب فقال : زاملني في الخارج بعض الرفاق ، كانوا يدخنون بشراهة ، وأعطوني سيجارة إثر أخرى من حين إلى حين ، واضطرت أن أشتري علبة لأقدم لهم السجائر كما يقدمونها لي ، ودخلت المصممة من ذلك الحين ، ولا أستطيع الفكاك منها .

وشيخ من علماء الأزهر يدخن بشغف وكثرة ، قال له ابنه الصغير : أعطني سيجارة لأدخنها . فصرخ أبوه فيه : إن التدخين قبيح ، فأجاب الصبي إجابة ساذجة صريحة : لماذا تدخن إذا ؟ ولم يستطع الأب إلا أن يرسم لابنه طريق الداء حين قال له : إن التدخين قبيح للأطفال والصبيان ، جائر للكبار .

وهكذا لا نجد إلا الوراثة وإلا العادة أو رفاق السوء سبباً في هذا الوباء وتساؤلي : لماذا لا يصدر قرار بتحريمه كتحريم المخدرات مثلاً ؟

وأجيب : من الذي يقترح هذا القرار أو يصدره ؟

هل يقترحه العلماء ورجال الدين ؟ إن الكثيرين منهم للأسف يدخنون ولا يستطيعون أن ينهوا عن شيء وهم يتعاطونه علناً وبشكل مستمر .

هل يقترحه الأطباء ؟ إنهم أيضاً يدخنون ، بنسبهم ومنهم من لا تكاد تختفي السيجارة من فمه .

هل يصدره الحكام ؟ إنهم أيضاً يدخنون أو على الأقل أكثرهم يدخنون ؟

وهكذا لم يبق إلا صبيحة كتلك التي نتقدم بها في هذا الكتاب ، وربما كان إلحاحي عليها لأنني لم أدخن قط ، ولست أدري كيف نجوت من

التدخين مع ضغط المحيطين بي من المدخنين أن أأخذوا نحدوهم ، ولكنى أشهد أنى كنت صلباً ، فلم يستطع أحد منهم أن يثنينى عن عزيمتى ، ولا مرة واحدة ، وكنت أجيب قبل أن تظهر نتائج الأبحاث الطبية أو قبل أن أعرفها : أية فائدة فى دخان يتصاعد فى الجوف مع ضرر مالى محقق وأزمات اقتصادية نراها فى الكثيرين ؟

وكلمة أخيرة عن حكم الإسلام فى التدخين نقتبسها من فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت ، فهو يقول : يرى بعض العلماء حِلَّ تدخين التبغ (الدخان) لأنه ليس مسكراً ولا من شأنه أن يسكر ، ولأنه ليس ضاراً لكل من يتناوله وقال آخرون بحرمة أو كراهته ، نظراً لما عرف عنه من أنه يحدث ضعفاً فى صحة شاربه ، ويفقده الشهوة للطعام ويعرض أجهزته الحيوية أو أكثرها للخلل والاضطراب ، ويصبح التحريم هو الحكم بعد أن أكدت الأبحاث الجديدة أن التدخين يسبب ذلك المرض الخبيث (سرطان الرئة) ثم هناك إنفاق الأموال عندما يكون صاحبها محتاجاً إليها لنفسه أو لأسرته وهذا يحتم خطر التدخين وعدم إباحته (١) .

ويقول مفتى الديار المصرية السابق : لقد قال الفقهاء بحل الدخان عندما ظهر ، لأن الأصل فى الأشياء الإباحة ، ولم يكن قد ظهر من الدخان ما يوجب القول بكراهته أو تحريمه وكان ثمنه يسيراً للغاية ، والقاعدة أنه إذا ظهر ضرر كثير أو قليل من تعاطى أى شيء ، أو ظهر منه ما يؤدى إلى إفساد الطباع وضياع الأموال بغير حق فإن الحكم يتغير من الإباحة إلى الكراهية أو الحرمة حسب مقدار الضرر ومدته ، وقد كتب علماء أمريكا يثبتون أن التدخين يسبب السرطان وهو أخطر الأمراض وأفدحها ، كما يسبب أمراضاً أخرى وبيلة ، وأصبحت تكاليفه عبثاً على الأكثرين وبذلك يصبح التدخين حراماً (٢)

(١) الفتاوى ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٢) حسنين مخلوف : فتاوى شرعية ج ١١٢ و ١٢٧ .

وفى إيجاز يمكن أن نؤكد أن التدخين حرام قطعاً لأنه يسبب الأمراض الفتاكة، ولأنه يؤثر على الاقتصاد تأثيراً سيئاً ، وبخاصة إذا التهم من المال ما تحتاجه الأسرة . ومثل هذا يقال للأغنياء الذين لا يتأثر اقتصادهم بالتدخين ، لأن الواحد منهم لا يعرف اقتصاد الغد ، ولأن من لا يتأثر اقتصاده يفرى من يتأثر ، فكأنه يساعد على انتشار ما يؤذى صحة الناس واقتصادهم .

ولهذا نقولها كلمة حاسمة : إن التدخين حرام وإن التساك به إثم عظيم .

ونختم هذا البحث بخلاصة لبيان طبيّ أصدره المجلس العلمى الاستشارى التابع للغرفة الطبية الألمانية ، وينص البيان على أن الإفراط فى التدخين له آثار قاتلة ، وأنه كلما بدأ الشخص التدخين فى سن مبكرة زاد الخطر .
ويقرر البيان أن آلاف الأشخاص يموتون بصورة مبكرة لأنهم يفرطون فى التدخين (١) .

وفى الرابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٧٦ نشرت صحيفة الأهرام خبراً خطيراً يقول : أكد تقرير طبيّ استغرق إعدادة عشرين عاماً أن احتمالات وفاة المدخنين (من جميع الأعمار حتى السبعين) ضعف احتمالات الوفاة بين غير المدخنين .

وأوضح التقرير الذى تم إعدادة طبقاً لعادات تدخين الأطباء فى بريطانيا (الذين أجريت عليهم الدراسة) أن ما بين نصف وثلث المدخنين يموتون بسبب التدخين .

وأخيراً نثبت فيما يلى نصّ تقرير للصحة العالمية عن أحدث ما ظهر من مخاطر التدخين :

(١) صحيفة الأهرام فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٦٧ .

تقرير للصحة العالمية

عن خطر التدخين بوجه عام وخطره بمصر بوجه خاص

نشرت صحيفة الأهرام في ١٢ / ٢ / ١٩٨٤ تقريراً خطيراً عن خطر التدخين ، وأنه مسئول عن وفاة عدد هائل من البشر كل عام ، وأن شباب مصر معرض للإصابة بأمراض القلب والسرطان بسبب السجائر . وفيما يلي نص ما نشرته الصحيفة :

أصدرت منظمة الصحة العالمية أحدث وأخطر تقرير علمي حول التدخين في دول العالم النامي وآثاره المتوقعة حتى عام ٢٠٠٠ .

يؤكد التقرير الذي يحمل رقم ٦٩٥ والذي اشترك في إعداده ١٠ من خبراء المنظمة العالمية المهتمين بالتدخين والأمراض الناجمة عنه ومن بينهم الطبيب المصري الدكتور شريف عمر أستاذ جراحة الأورام بالمعهد القومي للأورام بالقاهرة أن التدخين وانتشاره في الدول النامية مسئول عن وفاة مليون إنسان سنوياً نتيجة للأمراض الناتجة عن التدخين والتي تبدأ من الإصابة بأمراض القلب المختلفة، وأمراض الجهاز التنفسي، وإصابات الشعب الهوائية وتصل إلى الإصابة بأخطر أمراض العصر . . السرطان ، وبخاصة سرطان الرئة الذي تزيد نسبة الإصابة به بين المدخنين في الدول النامية إلى ٩ أضعاف نسبة الإصابة بالنسبة لغير المدخنين .

وبالنسبة لمصر فقد ركز التقرير الذي اشترك في إعداده مجموعة من المنظمات والاتحادات العالمية كالاتحاد العالمي للسرطان والاتحاد العالمي ضد الدرن والوكالة العالمية للتجارة والتنمية ومنظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية أن خطورة التدخين في التزايد بعد انتشاره في القرى والمدن على حد سواء بالنسبة للجنسين وبالذات في مرحلة الشباب وحتى سن السبعين وإن الأخطار الناجمة عن التدخين في مصر تتزايد بصفة خاصة لتداخلها مع

واحد من اكثر الامراض المتوطنة انتشاراً في مصر . . . البلهاريسيا والذي يؤدي إلى زيادة الإصابة بسرطان المثانة وذلك لما يحدثه التدخين من تغيرات بيولوجية ينتج عنها كثير من المركبات الضارة التي تفرز عن طريق المثانة وبالتالي تؤثر في خلاياها تأثيراً ضاراً يساهم في زيادة نسبة الإصابة بسرطان المثانة ومن ناحية أخرى ، أشارت نتائج الأبحاث التي تضمنها التقرير أن نسبة الإصابة بأمراض الشعب المزمنة بين المصريين وصلت إلى ٨٩٪ كنتيجة مباشرة لانتشار ظاهرة التدخين وذلك بالنسبة للمدخنين والمخالطين لهم على حد سواء .

أما بالنسبة لأشكال التدخين المختلفة والمنتشرة بين طبقات الشعب المصري والتي نعتمد على اشتراك مجموعة في استخدام وسيلة معينة للتدخين في نفس الوقت (كالجوزة والشيخة وغيرها) فقد أثبتت مساهمتها في انتقال أمراض الجهاز التنفسي بكافة أنواعها وانتشارها بين مستخدميها وبصفة خاصة الدون الرئوي .

استهلاك للطاقة البشرية :

وأكد خبراء المنظمة العالمية في مناقشتهم كما يقول الدكتور شريف عمر أن اتجاه بعض الدول النامية إلى تشجيع زراعة التبغ على أساس العائد الاقتصادي والذي يتمثل في صورة الضرائب المفروضة على السجائر والتي ينظر لها بصورة خاطئة على أنها زيادة للدخل القومي ، هذا اتجاه خاطيء لأن هذه الضرائب ليست إضافة حقيقية للدخل القومي الإجمالي نتيجة لعمل وإنما هو انتقال للأموال من المواطنين إلى خزينة الدولة يصاحبه استهلاك مباشر للطاقة البشرية تظهر آثارها في الأمراض التي تنتشر نتيجة لانتشار التدخين وبالإضافة إلى ذلك فإن حكومات هذه الدول النامية تتكلف أيضاً نفقات علاج هؤلاء المرضى فهو خسارة مضاعفة للحكومات سواء عن طريق الغياب وعدم مواصلة العمل بصورة منتظمة نتيجة لإصابات الأفراد أو عن طريق تكاليف العلاج .

وعلى سبيل المثال أشارت اللجنة إلى حقيقة هامة واجهتها إحدى الدول المتقدمة حيث تتوافر الرعاية الصحية لمواطنيها بصورة متكاملة وبالرغم من ذلك واجهت خسارة واضحة نتيجة لانتشار التدخين فيها . . . وهي كندا . . . فبينما وصلت حصيلة الضرائب عن بيع السجائر إلى ١٩٠٠ مليون دولار أمريكي وصلت الأموال المنصرفة على الرعاية الصحية الواجبة نتيجة للأمراض ناتجة عن التدخين إلى ٢٤٠٠ مليون دولار أمريكي نتيجةً للتوقف عن العمل بسبب الإصابة بأمراض ناتجة عن التدخين . . .

وفي تقرير لمجموعة من الخبراء وُجِدَ أنه من ١٥ ٪ إلى ٢٥ ٪ من حرائق المنازل تنتج عن السجائر والإهمال الناتج عن التعامل معها نظراً لأنه من المعروف أن السيجارة مضاف إليها مادة تساعد على استمرار اشتعالها .

وفي الولايات المتحدة وبالرغم من أنها أكثر دول العالم تقدماً وجد أن ٤٤ ٪ من الوفيات تنتج عن حرائق سببها الأول السيجارة ، فلنا أن نتصور مدى الأضرار التي يمكن أن تنجم عن مثل هذه الأسباب في دول العالم النامي .

وقد ركز الخبراء في نهاية تقريرهم على ضرورة وضع استراتيجية متكاملة للحد من التدخين في الدول النامية بوجه خاص لأن انتشار التدخين بالصورة الوبائية التي بدأ ينتشر بها في الدول النامية أصبح يفوق في خطورته الأمراض المتوطنة والمعدية وأمراض سوء التغذية كموامل أساسية في تدهور هذه المجتمعات النامية صحياً واقتصادياً وإن أي عائد سريع نتيجة لزراعة التبغ في هذه الدول أو فرض ضرائب على بيع السجائر سوف يعقّبها على المدى الطويل دمار فعلي لهذه الدول .

جهاز خاص لمكافحة التدخين :

ولمواجهة هذه الأخطار حث الخبراء على ضرورة تكوين أجهزة متخصصة لمكافحة انتشار التدخين كما هو الحال في السويد وإنجلترا تدرج مهمتها

من مراقبة التبغ الموجود في الأسواق للوقوف على مدى التزام الشركات المنتجة للمواصفات المحددة عالمياً، وكذلك إعداد برامج توعية خاصة بجميع الفئات سواء أكانوا طلبة أو عمالاً، أو موظفين أو سيدات، وفي نفس الوقت متابعة الزيادات الإحصائية في عدد المدخنين والأمراض التي يصابون بها، وقد اشترطت لجنة الخبراء على ضرورة إلحاق مثل هذه الأجهزة بجهات رئاسية في الدول النامية تضم خبراء في الصحة والتعليم والإعلام ومتخصصين في المسائل التشريعية والتنفيذية حتى تستطيع هذه الأجهزة متابعة المشكلة بمختلف أبعادها .

ومن بين المقترحات التي أيدها خبراء المنظمة العالمية اقتراح بإصدار تشريعات خاصة لمنع التدخين في أماكن العمل، وذلك لحماية المدخنين من زيادة التدخين على الأقل في فترات معينة خلال اليوم من جهة ، ومن جهة أخرى حماية غير المدخنين من الآثار الناجمة عن استنشاق الغازات السامة الناتجة عن احتراق التبغ في أثناء التدخين ويمكن اتباع هذا النظام في المدارس والجامعات والمستشفيات والأماكن التي يغشاها الجمهور طلباً للخدمات .

هذا مع التركيز على دور القيادات السياسية والدينية كقدوة تحتذى خاصة للشباب على الأقل من خلال اجتماعاتهم في التخلي عن هذه العادة لتغير الصورة الحاطة التي بدأت تستتب في عقول الشباب وهي أن التدخين ظاهرة طبيعية تحمل معها معاني النضوج والتفوق والرقى .

التدخين والحكومات بالدول الإسلامية :

لقد أصبح ثابتاً لدى كل الحكومات أن التدخين خطر على صحة الشعوب ، وعندما أذيعت التقارير التي تثبت خطورة التدخين توقف عدد كبير من الناس بالدول المتحضرة عن التدخين ، ومن أجل هذا اتجه تجار المادة إلى الدول الضعيفة بآسيا وأفريقية ليجذبوهم إلى التدخين ، واتخذوا لذلك صوراً من الدعاية والإعلان .

. والعجيب أن الحكومات الإسلامية لم تقم بواجبها تجاه الشعوب في هذا المجال ، فالواجب الذي لا محيص عنه أن تحرّم الحكومات التدخين وتعاقب عليه ، وقد اكتفت حكومة مصر بمنع الإعلان عنه في التلفزيون والإذاعة ، ولكنها تركت « الفيديو » والصحافة مجالا واسعا للدعاية للتدخين ، كما تركت الإعلانات الكبيرة في الشوارع والطرق تُرفع الدعاية للتدخين على نحو شديد الإغراء ، وهو موقف يدعو للعجب فلا ندري الفرق بين التلفزيون والفيديو أو الفرق بين التلفزيون والإعلانات الضخمة بالطرق .

إننا نطالب بمنع الإعلان عن التدخين بأية وسيلة من الوسائل ، ونطالب بتحريم التدخين تماما أو في الخطوة الأولى تحريم التدخين علنا وفي الأماكن العامة .

إن التدخين هو أساس الموبقات المختلفة التي تحدثنا عنها ، وأكاد أجزم إنه لا يقدم على تعاطي الحشيش أو السموم البيضاء إلا إنسان مارس التدخين أولاً وانتقل من التدخين إلى سواه ، أما الذي يتعفف عن التدخين ، فيقل جدا أن يقدم على سواه من هذه الآفات .

ملاحظة للحقيقة والتاريخ وبدون تعليق :

في مدينة الخرطوم وفي شهرى سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٦٧ كنت أعيش مع الموضوع السابق (موضوع التدخين) أقرأ عنه ، وأجمع مادته ، وأدوّنه ، وكنت كالعادة أعمل في صمت ، قل أن يعرف أحد الموضوع الذي أشغل نفسى به ، وعندما انتهيت من الموضوع في الأيام الأخيرة من أكتوبر قابلتني مفاجأة ضخمة ، فقد وجدت أن مجموعة من الرفاق حولي يصل عددهم إلى عشرة من أساتذة الجامعات بالعاصمة المثابة قد توقفوا عن التدخين خلال هذه الفترة ، وكان قد مضى على بعضهم ربع قرن أو أكثر وهم يدخنون بانتظام ، لم يتمّ بينهم إتفاق ، وبعضهم لا يعرف البعض الآخر على

الإطلاق ، فإن منهم من يعمل بجامعة أم درمان الإسلامية ، ومنهم من يعمل بجامعة الخرطوم ، ومنهم من يعمل بجامعة القاهرة (فرع الخرطوم) ولم أتحدث لأى منهم عن هذا الموضوع الذى كنت أشغل نفسى به .

هل هى مصادفة ؟

هل عاشوا معى بطريق أو بآخر وأنا أنفعل بهذا الموضوع وأعمل جاهداً للقضاء على التدخين ؟

لست أدري ، وعلى كل حال فكم يسعدنى أن يتخلص الناس من هذه العادة أياً كان الدافع لهم على سلوك هذا الطريق ؛ والشكر لله العلى العظيم أن أرى نوعاً من التوافق بين الدعوة التى أخدمها وبين المجتمع الإسلامى الذى أعمل له ، وهذا يطمئنى فى مزيد من توفيق الله ، آملاً أن يستجيب أكثر الناس إلى ما ندعو إليه ، سواء أكانت الاستجابة عن طريقنا أو عن طريق آخر ، فالمهم عندنا هو الهدف الذى نعمل ليتحقق ، والله نعم المولى ونعم المعين

النظافة

هناك خطأ شائع في تصور النظافة ؛ ذلك أن الكثيرين يظنونها نظافة الظاهر فقط ، أو نظافة الجسم واللباس والحق أن النظافة قسمان لا ينبغي أن يُنسى أى منهما ، وهما نظافة الباطن ونظافة الظاهر .

نظافة الباطن والظاهر :

ويقصد بنظافة الباطن صفاء النفس وإبعادها عن كل ما يشين فإذا كان الإنسان حقودا أو كارهها للناس ، أو متمنيا لهم الشر ، أو متكبرا ، فهو ليس نظيف الباطن ، وهو محتاج إلى دواء ليغسل به نفسه ويطهرها من هذه الآفات ، لتعود للصفاء والظهر الذي يريده الإسلام للإنسان المسلم .

يقول الله تعالى « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (١) والمقصود طبعاً نجاسة الباطن ، فالإشراك بالله أكبر جوانب النجاسة الباطنية ، واستعمال كلمة « نجس » يدل بوضوح على أن النجاسة ليست فقط ما يمس أثوابنا وأجسامنا من أقدار ، ولكنها تشمل وساخة الباطن ، ووساخة النفس والعقيدة .

ويقول صلى الله عليه وسلم « الطهور شطر الإيمان » أى أن النظافة الظاهرية نصف الإيمان ، أما النصف الآخر فهو نظافة العقيدة و صفاء النفس .

وفي قواميس اللغة يقولون : الطهارة تكون من النجاسة ومن العيوب . وعلى هذا فمِنْ النظافة تطهير النفس من الصفات الكريهة المحرمة وبدون ذلك يتعرض الإنسان للخطر ويبعد عن الغاية المأمولة . ويقول الرسول صلوات الله عليه : النظافة تدعو إلى الإيمان والإيمان مع صاحبة في الجنة (٢)

(٢) رواه الطبراني .

(١) التوبة ٢٩ .

ومعنى هذا أن الاهتمام بنظافة الظاهر وحده نقص ، فالنظافة الحققة تهتم بالإيمان والتزاماته ، كما تهتم بنظافة الجسم والملبس والمكان .

ويقول الرسول كذلك : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر . فالكبر نوع من النجاسة تبعد صاحبها عن الجنة .

ويقول : لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا . . فهذه أنواع من النجاسات يتحتم على كل مسلم أن ينظف نفسه منها .

وعندما بشر الرسول صلوات الله عليه سعد بن أبي وقاص بأنه من أهل الجنة ، اتجه شباب الصحابة إلى سعد يسألونه عن الأعمال والعبادات التي يقوم بها والتي ضمننت له الجنة ، فأجاب : لا شيء أكثر مما نقوم به جميعاً ، غير أنى لا أحمل لأحد ضغنا ولا سوءاً ! فكان هذا النقاء وذلك الصفاء الذى التزم به سعد هو الذى ضمن له الجنة وجعله يسبق سواه .

نظافة الظاهر

ونجىء الآن للحديث عن نظافة الظاهر ، وتمتد نظافة الظاهر فتشمل البدن والثياب والبيت والشارع ، ومصادر الإسلام الأولى تولى هذه الأشياء اهتماماً كبيراً ، فعن نظافة البدن فرض الإسلام الغسل والوضوء وسن السواك .

ويقول الرسول عليه السلام : خمس من الفطرة . . وعدّ تقليم الأظافر واحداً منها .

وعن رائحة الفم يقول عليه السلام : من أكل ثوماً أو بصلاً فلا يغشى مجلسنا حتى يزول منه الريح .

وعندما رأى شخصاً أشعث الشعر قال : أما وجد هذا ما يمشط به شعره .

وعن نظافة الثياب يقول الله تعالى « وثيابك فطهر »

وعندما رأى الرسول رجلاً يلبس ملابس ليست نظيفة قال : أما وجد هذا ما يغسل به ثوبه .

ومن أروع ما يروى عن الرسول قوله في الرجل يباشر مهنة تأسخ بها الملابس : ما على أحدكم إن وجد أن يتخذ ثوباً للقائه بالناس سوى ثوب مهنته وعن نظافة المكان يروى أن الرسول أمر أن تنظف المساجد وتطيب .
ويهتم الرسول بنظافة البيوت فيقول : إن الله طيب يحب الطيب ، فنظفوا أفنيتمكم .

وعن نظافة الشارع يقول صلوات الله عليه : عرضت على أعمال أمتي حسننها وسيئها ، فوجدت من محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق .

وحدث الرسول الناس أن يزيلوا الأذى والعوائق عن الطريق ، وهو في ذلك يقول : إن شجرة كانت تؤذى المسلمين فجاء رجل فقطعها ، فدخل الجنة .

وسأل أبو برزة رسول الله أن يعلمه وسيلة يثيبه الله عليها ، فقال له : اعزل الأذى عن طريق المسلمين .

إن أصحاب العمارات ينفقون عشرات الآلاف أو مئات الآلاف في بناء عمائرهم ، ولكنهم يخلون بالقليل من الأسمنت لإصلاح الطريق ، أمام هذه العمائر ، ليت هؤلاء يتعرفون على الفكر الإسلامى ويعملون بما يحث عليه .

التسول

التسول ظاهرة اجتماعية خطيرة توجد في شتى البلاد ، وهي في العالم الإسلامي بارزة واضحة ، وجيوش المتسولين يطاردون المارة أو يعترضون طريقهم ، وأكثرهم أجاد هذه الصنعة وذرب بنيه عليها ، وهم يوزعون مناطق الاستغلال فيما بينهم ، وقد يتصنعون العاهات أو يحدثونها فعلا بأجسامهم ليكون ذلك وسيلة للاستجداء واستدرار عطف الناس ، وفي أحد أحياء القاهرة حيث كنت أتردد من يوم إلى يوم رأيت رجلا مقطوع اليد ، يربط ما تبقى منها بشريط من الشاشن الأبيض وعليه آثار المطهرات ذات اللون الأحمر (الميكروم) مما يوهم أن الإصابة حديثة ولقد رأيت على ذلك عشر سنوات أو أكثر كأنما الجراح لا تلتئم ، وهذا المنظر يمكنك أن تراه في كل مكان .

والسؤال داء وبيل ، من أصيب به قلما يجد منه فكاكا ، فالفرد يجده صناعة سهلة ، فيها ربح بدون جهد ، يبيح للمتسول أن يشارك الأغنياء غناهم ، ولا يشارك الكادحين في كدحهم ، وهناك أسرٌ ارتبط تاريخها بالتسول ، فالرجل ذو العاهة أو متصنعها يجلس في مكان ، وامرأته تتخذ لها مكاناً آخر ، وأطفالهما ينقضون خلف المارة ، ويعترضون الناس في الطرقات ، ويلتقي هؤلاء إذاً جن الليل ، يصفقون لمن كان أكثر نجاحا ، وأكثر خداعا للناس ، وأكثر استغلالا لغفلتهم ، ويهزءون من قل نشاطه ، ومن لم يستطع أن ينال من أموال الناس بطريق أو بآخر .

وهناك مدربون على التسول ، أو قل مدارس توجه الأطفال هذا التوجيه ، تعلمهم ماذا يقولون ، ومن يعترضون ، وتختار لهم الأمكنة التي

تتغلب فيها عاطفة الناس على عقولهم ليرتادوها ، ويطلق المدربون هؤلاء المريدین صباحاً ويستقبلونهم مساءً ، كعصابات اللصوص حذوك النعل بالنعل .

نماذج من المتسولين المحترفين :

وهناك متسولون يتوارون خلف قطع من الحلوى الرخيصة ، يعرضونها للبيع ويتسولون عن طريقها ، بل أذكر أن زميلاً من الغرب كان في زيارة للقاهرة ، وقال لي وهو يشير للترام : أما آن للقاهرة أن تتخلص من هؤلاء المتسولين ؟ وسألته أين هؤلاء الذين يشير لهم ؟ فأجاب : كل هؤلاء الذين يطوقون عربة الترام ، يحملون الإبر والحلوى والأمشاط وأمثالها من الأشياء التافهة ، هم في الحقيقة متسولون يتوارون خلف هذه الأشياء .

وهناك متسول تعود أن يدق بابنا مساءً كل خميس ، كما تعود أن يدق أبواب الجيران في نفس المساء ، وقد استطاع بذكائه أن يعرف أسماء أكثر الأطفال في كل بيت ، فإذا دق الباب سأل عنهم واحداً واحداً ، وبوجه خاص في أيام الامتحانات أو أيام الأعياد ، وكان الأطفال يعطونه بعض قروشهم ، ويعطونه بعض السكر والشاي وذلك ما تعود أن يطلبه ، وربما كنت شخصياً لا أعترض على ذلك إذ ظننت أنه محتاج مسكين ، وحدث أن رأيته ليلة يجمع الشاي الذي أخذه من هنا ومن هناك ويجمع السكر كذلك ، وأشهد لقد كان قدراً كبيراً لا بد أنه يعرضه للبيع ، لأنه يزيد جداً عن حاجة استهلاك فرد أو أسرة وعرفت بعد حين أن الرجل يقسم الضاحية التي نساكن فيها إلى مناطق ، وأنه يخصص ليلة من ليالي الأسبوع لكل منطقة ، وكم من ضحايا لهذا الرجل كان هو أوسع منهم ثراء وأكثر غنى .

ورجل آخر كان يأتي لنا من حين إلى حين ومع أنه يبدو صحيح الجسم إلا أنني كنت ألحظ فيه نوعاً من البلاهة تدفني لمساعدته ، وحدث أن رأيته مرة يحمل حقيبة لأحد المسافرين ، ولما وصل بها إلى محطة المعادى أعطاه المسافر أجراً

كافياً ولكنه صرخ في وجهه : ما هذا ؟ لقد كان أيسر أن أدق باباً أو بابين في لحظات فأنا أكثر مما أعطيتني .

وتقضى العادة عند بعض الناس أن يطلبوا عوناً لأطفالهم في بعض المناسبات ، وهم يقومون بذلك لا عن حاجة ولا احترافاً للتسول ، ولكن يطلبون بذلك طول العمر للأطفال في زعمهم ، وأعرف أكثر من امرأة خرجت لهذا النوع من السؤال ، ثم استطابت حياة التسول وهذا الكسب الوفير الذي يتم دون عناء ، فوهبت لذلك العمل نفسها ، وربت عليه أطفالها .

وهناك خطورة خاصة تضاعف مسئولية الباحث المسلم في موضوع التسول ؛ ذلك أن الإسلام يُتَّخَذُ وسيلة للمتسولين : فكتاب الله الكريم ، والأعياد الإسلامية ، وشهر رمضان ، والمساجد ، وسائل ومواسم تضاعف محصول هؤلاء المتسولين ، فكم من رجل جلس يقرأ القرآن يتسول به ، أو وقف بباب المساجد يستجدي المصلين ، أو راح في الأعياد يُنشِدُ مديحاً للرسول ، بل يقتحم بعضهم المسجد في صلاة الجمعة أو في صلاة عيد ، يصلي مع المصلين ثم يقف عقب الصلاة ليتكلم مستجدياً ، ولقد رأيت مرة أحد هؤلاء يرفع صوته بأنه دخل الإسلام فطرده أهله وحرموه من الميراث ، وجذب الرجل من جيبه وثيقة رسمية بدخوله الإسلام ، وانهالت التبرعات على الرجل من الأغنياء والفقراء ، كأن الرجل من المؤلفة قلوبهم ، ولفت نظري أن الوثيقة مهلهلة ، فتقدمت لرؤيتها ، وظهر منها أن الرجل دخل الإسلام أو ادعى دخوله منذ ربع قرن ، وما كان له أن يطلب العون إلا فترة قصيرة ريثما يستعيد نفسه ونشاطه ويكدح مع الكادحين ، ولكن الرجل اكتفى بهذه الوثيقة وسيلة لتدبر عليه المال والرحمات على مر السنين .

ومن هنا كان على الباحث المسلم أن يبرز رأى الإسلام في التسول حتى لا يقع المسلمون في حبال الخادعين ، وفي هذا المجال نتكلم كلمة للسائل وكلمة للمعطي ، وكلمة لولى الأمر .

الإسلام يحذّر المتسولين :

أما حديثنا للسائل فتقتبسه قبل كل شيء من القرآن الكريم ، ومن أحاديث الرسول ، يقول الله تعالى مادحا الفقير المتعفف ومعرضاً بأولئك الذين يسألون الناس : « وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله . وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظالمون ، للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً » (١) .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

— لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتى الجبل ، فيأخذ بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها فيستغنى بثمنها ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه .

— عن ثوبان قال : قال صلى الله عليه وسلم : من يتقبل لى (يتعهد) بواحدة أتقبل له بالجنة ، قلت : أنا أتقبل بها . قال : لا تسأل الناس شيئاً . فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب ، فلا يقول لأحد ناولنيه ، بل ينزل فيأخذه .

— من سأل الناس أموالهم تكثراً ، فإنما يسأل جمر جهنم ، فليستقل منه أو ليكثر .

— لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذي مرة سوى .

— من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً في وجهه ، قيل يا رسول الله : وما يغنيه ؟ قال : خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب .

— لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله وليس في وجهه مُزعة لحم (أى قطعة لحم) .

(١) سورة البقرة الآيتان : ٢٧٢ - ٢٧٣ .

— الذى يسأل من غير حاجة كمثل الذى يلتقط الجمر .

— اليد العليا خير من اليد السفلى .

وهكذا صور الإسلام السائل المحترف صورة كريهة عفنة ، ولسنا نراه فى ضوء هذه التعاليم السامية إلا سارقاً ، يأخذ بدون حق بعض مال الغنى ، ويأخذ بدون حق بعض ما كان ينبغى أن يذهب إلى الفقير ، فهو يغتصب من الغنى بطريق الخداع ، ويسلب حق المحتاج المتعفف ، والسائل — بالإضافة إلى هذا — قضى على نفسه بالفقر ، يتخذ مظهراً له وإن كان غنياً ، فهو يلبس خلق الشيا ب ، ويأكل فضلات الآخرين وعنده مال يجمعه لسواه ، وذلك جزاء عادل لما يتظاهر به من فقر ، فقد أصبح الفقر حقيقة واقعة له ، وإن لم يكن فى واقع الأمر فقيراً .

والتفكير الإسلامى يحدد الضرورة التى يمكن للإنسان أن يسأل عندها ، قال صلى الله عليه وسلم : لا تحل المسألة إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة (غرامة للتوفيق بين اثنين) أكثر من طاقته ، ورجل أصابته حائجة اجتاحت ماله ، حتى يصيب قواماً من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يفيق ، وما سواه من المسألة سُحَّتْ يأكلها صاحبها سحتاً .

وهكذا تكون المسألة للضرورة القصوى ، كما تكون مؤقتة حتى تزول أسبابها ، ويمكننا أن نضيف أنها لا تكون إذا أمكن الاستدانة ، والله سيساعد المستدين على أداء دينه ويهيء له عملاً شريفاً لذلك .

وبمناسبة ما ذكرناه عن اعتبار المتسول عن غير حاجة سارقاً لمال الغنى ولحق الفقير ، نستطرد قليلاً لنذكر أن سرقات كثيرة كهذه لا يضبطها قانون الأرض ، لكنها لا تفلت من قانون السماء ، فالعامل أو الموظف الذى يأخذ مرتبه ولا يؤدي به عملاً سارق لما يأخذ من مال ، وكم اشتكى هؤلاء ضيق المال أو مشكلات الحياة ، وليس ذلك إلا لأن السماء نزعَت البركة من المال الحرام

فلم يستمتع به ذووه ، وضاع أكثره في علاج مريض أو إصلاح حال بعض الأولاد ، ولو عمل هؤلاء بما يأخذون من مرتبات لسارت أحوالهم على حال غير ما يعانون من شقاء .

لا تعط محترف التسول :

وأما حديثنا لمن يعطى السائل دون أن يعرف حاجته ، فهو حديث لوم ، لأنه بذلك يشجعه على هذه الحرفة الدنيئة ، ولو أمسك الناس بحزم عن إعطاء هؤلاء المتسولين ، لانكشت جيوشهم ، وعاد هؤلاء إلى رشدهم يكدحون كما يكدح الناس ، ويعملون ليحصلوا على الطعام الشريف ، وعلى هذا فلا يعطى الإنسان إلا عندما يتحقق من حاجة المحتاج ، وليس ذلك بعسير على أحد ، فكل واحد حوله من المحتاجين من يستوجب فضل ماله ؛ هناك ذوو القربى المحتاجون ، وهناك الجيران المحتاجون ، وهناك المحتاجون من أهل القرية أو الحى ، فإن لم يعرف الغنى هؤلاء أو إن بقى عنده فضل بعد هؤلاء ، فليؤم ملاجئ الأطفال وملاجئ العجزة ، وليدفع هناك ما يجود به ، ومرة أخرى إن الفكر الإسلامى يقرر إن الدال على الخير كفاعله ، والمعين على الشر كفاعله ، والذي تثار عاطفته فيعطى من لا يستحق ، أو يُخدع أمام هؤلاء المتسولين يشارك هؤلاء في إثمهم ، ويشاركهم في الوصمة الكبرى التى يضمنون بها وطن الإسلام .

واجب على الأمر :

أما حديثنا لولى الأمر فهو تنبيه للواجب الذى ألزمه به الإسلام ، فعليه أن يتعرف على المحتاجين ويسد حاجتهم ، والتاريخ الإسلامى يسجل أن عمر ابن الخطاب رأى رجلاً من أهل الكتاب يسأل الناس ، فقال له : ما الذى حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله حيث أعطاه عطاء سخياً ثم أرسله إلى خازن بيت المال مع رسالة قال فيها : انظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذه عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل

الكتاب (١) ، وعلى هذا ينبغي أن تتعهد الحكومة العجزة المحتاجين بسد حاجتهم في منازلهم أو في ملاجئهم وتعهد بهم .

أما غير المحتاجين فينبغي لولى الأمر أن يضرب على أيديهم ، وأن ينزل بهم التعزير الذى تستحقه خطيئتهم ، ويتضاعف هذا التعزير بمقدار عدم استجابتهم للكف عن هذا العمل ، ويوجه الصبيان توجيهاً سديداً يكفل لهم مستقبلاً شريفاً ، فيُعَلِّمون بعض الصناعات أو الحرف ، كما توفر أبواب العمل للعاملين .

وينبغي على ولى الأمر كذلك أن يدرس حالات التشرد ، ويصف لها العلاج ، وكثيراً ما تكون من قسوة العمل ، أو قسوة الصانع والمخدوم ، أو سوء التربية أو انعدامها ، مما يدفع ببعض الصبيان إلى الشارع يلتقطون الفتات أو يسألون الناس ، وكثيراً ما ينحرف هؤلاء من السؤال إلى السلب ، فالسؤال كما قلنا نوع من السلب ، ومحاولة للحصول على ما لا يستحق ، فهو فى الواقع تدريب على الحصول على أموال الآخرين خلال التسول ، وكثيراً ما يقود إلى السرقة أو النصب ، فهذه مراحل لهدف واحد ، تتفاوت بتفاوت السن والتدريب .

وفى التاريخ الإسلامى تكونت جماعات للتسول ، منها جماعة الكرامية أتباع محمد بن كرام ، وكان من مبادئ هؤلاء الزهد وترك الكسب الدنيوى ، ويقول عنهم المؤرخون إنهم كانوا لا يختارون من أربع خصال : التئى والعصية والدل والكدية (السؤال) (٢) ، ولت شعري كيف تتفق فى الإسلام هذه الخصال المتعارضة ، ولكنه لون من الانحراف الذى ظهر ولا يزال يظهر فى العالم الإسلامى .

(١) الخراج : أبو يوسف ص ١٥٠ .

(٢) انظر الحاضرة الإسلامية لأدم مئز : ج ٢ ص ٢٤ .

المساواة وحياة الطبقات

وقف الإسلام من المساواة موقفاً فريداً بين الاتجاهات القديمة والاتجاهات الحديثة ، فالهندوسية قسمت أتباعها أقساماً متميزة ، وجعلت الحقوق تتفاوت بتفاوت هذه الأقسام ، وجاءت البوذية فألغت الطبقات ولكن بشرط الدخول فيها فلم تتخذ البوذية المساواة مبدأ لذات المساواة ، ولكنها جعلت كل البوذيين — لا كل البشر — متساوين . وفي بلاد فارس وجدت نظرية « الحق الإلهي المقدس » التي تجعل الملوك آلهة أو ممثلين للآلهة ، وتقول بأن دماً إلهياً يجري في عروقهم دون سائر البشر ، وجاءت اليهودية فجعلت اليهود شعباً مختاراً يفوق كل الشعوب ، ثم راح اليهود داخل الشعب نفسه يكوّنون الطبقات ، فباركوا أبناء يعقوب ولعنوا أبناء أخيه الأكبر عيسو ، وسار اليهود على مبدأ التفريق بين البشر إلى أبعد الشوط ، فجعلوا الرحمة والعطف والإخاء والمودة وقفاً على فقراء اليهود ومحرمات على سواهم ، وحرّموا الربا مع اليهود وأباحوه مع غيرهم ، وورد بالعهد القديم عن ذلك : « للأجنبي تقترض برّبا ، ولكن لأخيك لا تقترض برّبا ، لكن يباركك الرب إلهك في كل ما تمد إليه يدك » (١) .

وجاءت المسيحية لترد اليهود عن جشعهم وتعلقهم بالمادة ، ولتحت على إطعام الفقير ورعاية البائس ، ولكن سرعان ما تحولت المسيحية بفعل رجال الكنيسة إلى خلق الطبقات والتفريق بين شعب وشعب ، وكذلك إلى عزل الكنيسة عن المجتمع وعزل الدين عن الحياة ، وطالما ناصرت الكنيسة الباطل ورعت الحكام الجائرين ، وأباحت لهم الشهوات واللذائذ،

(١) سفر الخروج : الأصحاح الثاني والعشرين .

وجعلتهم طبقة أرفع من طبقات البشر ، كما فعلت الكنيسة القيصريّة (١) .
ذلك هو الاتجاه القديم ، فكيف اتجهت المدينة الحديثة حيال المساواة ؟
إن الإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج إلى كبير عناء ، فالتفرقة العنصرية
التي يعامل بها البيضُ سكان المستعمرات تدل دلالة واضحة على الطبقية
المسعورة التي خلقتها هذه المدينة الزائفة ، ومن ذلك ما يعانيه الزوج بأمريكا
من اضطهاد وعسف .

فماذا كان موقف الإسلام من المساواة ؟

إن موقف الإسلام من المساواة حددته طبيعة الإسلام ، الذي جاء ديناً
للعالمين . أياً كان اللون والجنس ، وتبعاً لذلك سوى الإسلام بين معتنقيه
ليكون منهم وحدة واحدة يكون الدين قوامها ، ومن أجل ذلك كان موقف
الإسلام من المساواة حاسماً ، حدده القرآن الكريم والسنة الشريفة كما حدده
التشريع الإسلامي وعمل الصحابة الأبرار ، فالقرآن الكريم يفتح عشرات
الآيات هاتفاً « يا أيها الناس » كما وردت آيات كثيرة أخرى تتحدث عن
« الإنسان » وذلك واضح الدلالة على أن هدى الإسلام يتجه للبشرية
ويخاطب الناس والإنسان غير معترف ببطقة ، ولا مبال بتفرقة ، فالناس
هدف الإرشاد ومادة العمران ، ولم يكتف القرآن الكريم بهذا التوجيه العام ،
ولنما راح ينص على أن طبيعة البشر المساواة ، وأن العمل وحده هو الذي
يفضل بعض الناس على بعض قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من
ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٢)
فهذه الآية تقرر المساواة متخذة من وحدة المنشأ دليلاً على ذلك ، وتقرر
كذلك أن التفاضل قد يحدث ، ولكنه لا يتخذ أساسه العنصر واللون ، بل
ما يقدمه الإنسان من عمق الإيمان والعمل الصالح ، وكما تفتح الآية بنداء

(١) انظر « الأديان » للأستاذ محمد فؤاد الهاشمي ص ١٢٧ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

للناس عامة ، فإنها تشمل تعليلاً دقيقاً للشعب ، ذلك هو التعارف والتعاون ، فالناس ينحدرون من أصل واحد ويتشعبون بطبيعة الحال ، ليعودوا إلى الالتقاء عن طريق التعارف والتعاون ، وليتذكروا وهم في هذه الرحلة أن العمل الصالح هو أساس التفاضل .

ومن السنة ينطلق قوله عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع : أيها الناس إن ربكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

وروى أن أبا ذر الغفاري كان يناقش عبداً في خضرة الرسول فغضب أبو ذر وصاح بالعبد : يا ابن السوداء . فالتفت له المعلم الأعظم وألقى في وجهه بـتعبير يعد غاية في الاستنكار هو : طف الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح . وقد أدرك أبو ذر من كلام الرسول مدى الخطأ الذي ارتكبه بتفكيره الطبقى ، فهو من استعلائه في لحظة قصيرة ، ووضع نعله على الأرض وقال للعبد : قم فطأ على نحدي (١) .

وقد سوى التشريع الإسلامي بين الناس أمام القانون ، كما سوى بينهم في الحقوق المدنية والحقوق العامة ، وعلى هذا جاءت كل آيات التشريع في مختلف الشئون . قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء

(١) بهذه المناسبة توجه دعوة خير للإخوة في السودان فن بقايا الاستعمار هناك أن بعض سكان الشمال يستعملون كلمة « عبد » مشيرين إلى الخدم من أهل الجنوب ، وليس هؤلاء إلا من المواطنين الأحرار الذين لهم كل حقوق المواطنين وليس في عالمنا سادة وعبيد ، ولذلك ننصح المثقفين أن يعملوا على القضاء على هذا التعبير الذي يشيع بين الجماهير و اتخذ أساساً من أسس العنصرية والتفريق داخل الوطن الواحد .

بالقسط ولا يجرم منكم شتان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى» (١)

ويقول Edmund Burke : إن القانون الإسلامى يطبق على جميع المسلمين لا فرق بين الملك المتوج والخدام الفقير وكان ذلك الاتجاه الإسلامى جديداً على البشرية (٢).

ولما سرقت فاطمة بنت الأسود المخزومية ، جاء أسامة بن زيد يشفع لها ، فأنكر الرسول على أسامة شفاعته لها وقال للناس حوله : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

ويقول صلى الله عليه وسلم لبني هاشم ولعمه العباس ولا بنته فاطمة : يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من عذاب الله ، يا عباس يا عم محمد اعمل لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة يا بنت محمد اعملى لا أغنى عنك من الله شيئاً .
ومن وصايا عمر لولاته قوله :

— سو بين الناس فى ونجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى تجنبك ، ولا يئأس ضعيف من عدلك .

— اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، إياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله .

وفى ضوء هذه الدراسة يتضح أنه ليس من الإسلام أن يتعالى شخص بنسبه أو جاهه أو ماله ، فكل هذه أعراض قضى الإسلام عليها «إن الله قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم» والذى يتحدث عن آبائه وأجداده أو عن ماله وسلطانه بجلدير بالسخرية ، فكل هذه أشياء سريعة الزوال ، ويقرر ابن

(١) سورة المائدة الآية الثامنة .

(٢) الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره (ترجمة المؤلف عن الإنجليزية) ص ٥٧ .

خلدون أن دورة النسب لا تزيد عن أربعة أجيال غالباً (١) ، وكذلك دورة المال ، وفي تاريخنا وحياتنا الحاضرة يمكن أن نرى أحفاد ملوك أصبحوا رعية ، وأحفاد سلاطين أصبحوا صعاليك ، وأحفاد أغنياء أصبحوا يتكففون الناس ، كما نرى أحفاد فقراء أصبحوا على جانب كبير من الغنى وأحفاد سوقة صار لهم السلطان ، فالإنسان جزء في دائرة سيمر بها الفقر والغنى والضعف والقوة ، فعليه ألا يغتر بذلك إن كان حسن الحظ ، وألا ييأس إن كان حظه بائساً ، فإنه إن فاتته الحظ فقد يلحق الحظ بأولاده . وإن نال الحظ فلا يملك بحال استمرار الحظ في حفدته .

ولكن ليس معنى التسوية ألا تفاضل بين الناس ، فإن القرآن الكريم الذي سوى بينهم في الأصول والقانون فتح الطريق أمامهم ليفضل الإنسان الإنسان بجهده وكده ، قال تعالى :

— إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٢) .

— هل يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون ، إنما يتذكر أولو الألباب (٣) .

— فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (٤) .

— فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأما هاهنا (٥) .

(١) ومن كلامه في ذلك « كل شرف وحسب عده سابق عليه ولاحق به ولا بد للرياسة والشرف أن تنتهي إلى الضعة والابتدال وعدم الحسب . . . » ونهاية كل من العظمة والضعف أربعة أجيال (الفصل الخامس عشر من الباب الثاني من المقدمة .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٣) سورة الزمر الآية التاسعة .

(٤) سورة الزلزلة الآيتان ٧-٨ .

(٥) سورة القارعة الآيات ٥-٨ .

— . . . الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب المشأمة (١) .

فالتبعية التي يحاربها الإسلام هي التبعية التي تأتي عفواً دون جهد أو كدح ، والتي تحاول إيقاف دورة الكون ، بأن تقف في وجه المسجد وتبقيه في طبقة أقل مما يستحق ، أو تعطى المهمل مكانة لا يسمو لها ، فليست هناك مكانة بسبب المال أو الأسرة ، وإنما مكانة الإنسان هي التي يعمل لها الإنسان ويصل لها بجهد وجدته ، قال تعالى « كل امرؤ بما كسب رهين » (٢) وقال « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم » (٣) .

وكان التطبيق التاريخي لهذه التعاليم واضحاً تمام الوضوح ، فالرسول يجعل أسامة بن زيد قائداً لجيش فيه كبار رجالات قريش ، وعمر يسوى بين جبلة بن الأيهم وبين رجل من السوق ويقضى بأن يقتص من جبلة للسوق ، وعندما قال جبلة : أنا ملك وهذا سوق أجابه عمر : الإسلام سوى بينكما ، وفي جميع مراحل التاريخ الإسلامي نجد مبدأ المساواة واضحاً طالما كان التفكير الإسلامي سائداً .

* * *

وليس معنى هذا اختفاء درجات الناس في العالم الإسلامي ، لا ، ليس هذا هو المقصود ، ففي العالم الإسلامي يوجد الأمير والخفير ، يوجد السيد والخدام ، وبين هذين طبقات متعددة ، ولكن كل هذه المناصب نالها أصحابها بقدر جهدهم ، وليست ميراثاً يورث ، فابن الخدام يمكن أن يصبح بمجهوده أميراً ، وابن الرئيس ينحدر إن أهمل ليصبح مرءوساً ، فالتبعية الثابتة هي التي يرفضها الإسلام ، أما الطبقة المتحركة فشئ طبيعي لارتباطها بالجهاد الشخصي .

(١) سورة البلد الآيات ١٧-١٩ .

(٢) سورة الطور الآية ٢١ .

(٣) سورة المتعنة الآية الثالث .

القضاء والقدر

فكرة القضاء والقدر فكرة قديمة ، وُجِدَتْ قبل الإسلام ووجدت في الإسلام ، وقد أغرت هذه الفكرة كثيرين من الناس أن يخوضوا فيها على غير علم ، وأصبح يسيراً أن تراها في المجتمع يتحدث عنها أناس من مختلف الطبقات ، وأذكر أنه منذ بضع سنوات كان فتي ريفي يقود جملة من المدينة إلى القرية محملاً بشيء من البضائع لأحد التجار ، فالتقى به قرب حافة المدينة رجل آخر يقود جملاً أيضاً وسارا معاً في اتجاه واحد ، وتحدثا ، وقبل أن يتخطيا حدود المدينة اقترح الرجل الثاني على الريفى أن يذهب لشراء طعام لهما وأعطاه جنياً ، وكان الريفى فرح بذلك الطعام الذى هبط عليه من السماء فذهب لشرائه تاركاً جملة مع صاحب الجنية ، وسرعان ما انساب الرجل بالجمالين بين المزارع واختفى ، ورجع صاحبنا يبحث هنا وهناك دون جدوى ، وعاد للقرية مغتماً . وطالب صاحب البضائع بعوض لبضائعه من ذلك الفتى الغرّ المهمل ، وفى إحدى جلسات التقاضى هبّ شخص يتصل بصلة قرابة بالفتى الغرّ ، وهذا الشخص يحفظ القرآن الكريم ويرتبط اسمه فى الريف بلقب «شيخ» فيحسب أنه جمع من العلم أطرافه ، صاح ذلك الشيخ قائلاً : أى عوض تطلبون ؟ أليس ذلك قضاء الله ؟ وهمهم آخرون مؤيدين للشيخ أو معارضين له ، وكان بين الحاضرين شاب مثقف جرىء فطلب من أحد الحاضرين أن يصفع الشيخ صفعة موجهة على مسئوليته ، ففعل ، وثار الشيخ وأمسك بتلابيب من صفعه ، ولكن الشاب المثقف سرعان ما تدخل فى الأمر وقال للشيخ : لماذا تغضب ؟ أليس ذلك قضاء الله كما قلت ؟ وضج الحاضرون بالضحك ، وانسحب الشيخ من الجلسة تاركاً مالا يعرف لمن يعرفون .

وفى حفل ساهر يضم مجموعة من عِلْيَةِ القوم ، قالت زوجة وزير :

لقد حرت في ابني ، إنه دائماً يسألني كيف يقدر علينا الله ارتكاب المعاصي فإذا ارتكبتها تبعاً لذلك حاسبنا عليها ؟ وأيد رجل من الحاضرين هذا السؤال ، وانتظرت حتى أوشكت الحلقة كلها أن تأخذ هذا الاتجاه ، ثم تعرضت للإجابة في هدوء ، خطوة إثر خطوة حتى انجلى الأمر على ما سئري في الدراسة التالية . قالت زوجة الوزير : ليت ابني حاضراً لسمع منك . قلت لها : انقلي له الرشد بنفس الإصرار الذي التزمه وهو يريد أن يجعل من حكاية القضاء والقدر وسيلة للغواية .

وهكذا جهل أكثر الناس هذه القضية ، وأوشك أن يشترك في الجهل بها السوقة والمثقفون . واتخذ البعض من جهلهم بهذه العقيدة وسيلة لترك العمل ، وللتهاون في واجب السعي والكدح ، بحجة أن ما قدره الله سيكون عملوا أو أهملوا ، وقد يما روج مدعو التصوف لهذا الاتجاه منذ القرن الرابع ، وجاء في كلامهم « إن لكل عبد رزقاً هو آتية لا محالة ، ولو هرب العبد من رزقه لكان كمن يهرب من الموت ؛ يدركه لا محالة . . . ولا يزداد في الرزق بحول ولا حيلة ، وإن الأرزاق قد قسمت قبل الأجسام بزمان طويل (١) » . وهذا خلاق مدعو التصوف باب التواكل وأقحموه على الفكر الإسلامي ، ويدل على تواكل بعض الصوفية تلك الحكاية المشهورة التي تُروى عن الدرويش الذي وقع في دجلة ، فأبصره رجل من المارة ورأى أنه لا يعرف السباحة فهمم بالنزول له لإنقاذه ، فقال له الدرويش : لا تفعل ، قال الرجل : أتريد أن تغرق ؟ فأجاب الدرويش : لا . فعاد الرجل يسأل : فماذا تريد إذا ؟ قال : أريد ما يريد الله لي (٢) .

وهذا خلط هؤلاء بين الرضا والتوكل من جانب وبين التواكل أو الاستسلام من جانب آخر ، والرضا الذي يقول به التفكير الإسلامي الصحيح هو قبول الواقع

(١) المكي : قوت القلوب ج ٣ ص ٧ وما بعدها .

(٢) كشف المحجوب نقلاً عن الحضارة الإسلامية لآدم مئز ج ٢ ص ٢٩ .

دون سخط بعد بدل الجهد لنيل الأحسن ، فالذى يريد شيئاً ويعمل جاهداً للوصول إليه دون أن يدخر وسعاً ، ثم لا يصيب ما يتمناه ، عليه أن يرضى بالنتيجة دون سخط أو اضطراب ، وذلك بعيد عن التواكل الذى لا يعرف العمل ولا يألف الكفاح . وقد شاهد عمر بن الخطاب مرة رجلاً يطيل التأمل فى السماء ويرفع يديه داعياً ، فقال له عمر : ماذا تريد ؟ قال الرجل : أريد رزقى . قال عمر : من أين ؟ قال الرجل : من السماء أليس الله يقول : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » (١) فعلاه عمر بالدرة وقال له : يا جاهل اسع واكدهج لتنال ما قدر الله ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وتلا عمر قوله تعالى « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » (٢) .

ومما لا نزاع فيه أن سوء الفهم فى عقيدة القضاء والقدر ، والانحراف بها إلى التواكل ينحدر بالناس إلى الضعة والضعف والامتهان ، وقد حذر الإمام محمد عبده من نتائج هذا الانحراف ، مؤكداً أن من يتبعه لن ينال عزاً ولن يعيد مجداً ، كما أنه لن يدفع الاعتداء ولن يسعى للأخذ بحق (٣) .

وليس التواكل وحده هو الانحراف بعقيدة القضاء والقدر عن أصلها ، بل هناك انحراف من نوع آخر ، ذلك أن كثيرين اتخذوا من هذه العقيدة وسيلة يدافعون بها عن أخطائهم وينسبون لها ما ارتكبوا من آثام ، والعجيب أن الواحد منهم إذا أحسن عملاً نسب الإحسان لنفسه وطلب الجزاء والمثوبة عليه فى الدنيا والآخرة ، وإذا أساء وارتكب المعاصى نسب ذلك إلى القدر وراح يتملص من تبعه ما ارتكب ، ومن أجل هذا وذاك كان لابد أن نصحح الرأى حول هذه العقيدة وأن نورد فى هذه الدراسة الفكر الإسلامى الصحيح ، ليهتدى من يهتدى عن بينة وليضل من يضل عن بينة .

(١) سورة الداريات الآية ٢٢ .

(٢) سورة النجم الآية ٣٩ .

(٣) محمد عبده : الإسلام والمسلمون ص ١١٠ .

وبادىء ذى بدء نقرر أن الإنجيل به من آيات القدر عدد يربو على ماورد
فى القرآن الكريم من هذه الآيات ، ولكن المسيحيين عندما أهملوا دينهم ،
أهملوا مع الدين هذه العقيدة ، واهتم المسلمون بالقرآن الكريم وانتهز مدعو
التصوف هذه الفرصة فأقحموا على السذج من الناس هذا الانحراف فى
العقيدة ، ودفعوهم بذلك إلى التواكل والكسل .

ونذكر بعد ذلك أن مذهب جهنم بن صفوان وهو مذهب الجهمية
أو الجبرية مذهب هاجمه كل العلماء وعدوه خرافة ، وفى هذا المذهب
يقول جهنم : إن الإنسان لا يقدر على شىء ولا يوصف بالاستطاعة ،
ولنما هو مجبور فى أفعاله ، لا قدرة له ولا اختيار . . . (١) وقد انبرى
المفكرون وجمهور المسلمين على مر الأجيال يهاجمون بالنص وبالعقل
هذا الاتجاه ويسفّهُونه ، ومن النصوص الواضحة فى تفنيد هذا الرأى
وردّه قوله تعالى :

— سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمتنا
من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم
من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون(٢) .

— لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لما كسبت وعليها ما اكتسبت(٣) .

— وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم(٤) .

— نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبيخسون(٥) .

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٨٥ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٤) سورة هود الآية ١١١ .

(٥) سورة هود الآية ١٥ .

- ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون (١) .
- وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم (٢) .
- فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (٣) .
- وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى (٤) .

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشهير : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

ويقول الإمام جعفر الصادق رداً على الفهم المنحرف لعقيدة القضاء والقدر : إن الله تعالى أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً ، فما أراد بنا طواه عنا ، وما أراد منا أظهره لنا ، فما بالناس نشتغل بما أراد بنا عما أراد منا ، أو ما بالناس نشتغل بالباطن عن الظاهر (٥) .

وهذا قول واضح تمام الوضوح ، فالإنسان عندما يقدم على ارتكاب معصية لا يعرف عند الإقدام عليها أنها مكتوبة عليه ، لأن ما كتب على الإنسان مستور عليه وعلى سواه ، ويعرف معرفة تامة النهى عن ارتكاب هذه المعصية ، وتدفعه دوافع خاصة يحسها في نفسه إلى ارتكاب هذا المنكر ، قال تعالى « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تبييناً » (٦) فمن الناس من يقهرون أنفسهم ويعدون عن المعصية بعد أن كانوا على وشك أن يقترفوها ، فالاختيار واضح يحس به كل من له عقل ، ولا يمكن أن نسوى بين رجل يشرب الخمر بنفسه ولذته ، وبين رجل يرغمه شخص

(١) سورة الأحقاف الآية ١٩ .

(٢) سورة الشورى الآية ٢٠ .

(٣) سورة الزلزال الآيتان السابعة والثامنة .

(٤) سورة النجم الآية ٣١ .

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٧ .

(٦) سورة النساء الآية ٦٥ .

آخر أو مرض أو عطش على شربها ، ولا أن نسوى بين من يربض لشخص ليقتله ، وبين من يقع على شخص فيقتله ، وعلى هذا الاختيار الواضح يكون الحساب ثواباً أو عقاباً .

والله سبحانه يسهل للإنسان سلوك ما اختاره ، فالإنسان يتجه ، ثم يهيء الله له السبيل ليسير في الطريق الذي أرادته لنفسه خيراً أو شراً ، قال تعالى :

— فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى . (١) .

— إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم (٢) .

— ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد ثباتاً ، وإذن لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً (٣) .

— فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم (٤) .

— ويضل الله الظالمين (٥) .

أما قوله تعالى : « ولو شاء لهداكم أجمعين » (٦) وقوله « ولو شاء الله ما أشركوا » (٧) فالمعنى ولو شاء الله لألزم الهداية أو عدم الشرك ، ولكنه تعالى لم يلزم ، وإنما ترك ذلك للاختيار والكسب .

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت شارحاً اتجاهه في اختيار الإنسان

(١) سورة الضحى الآيات ٤ - ٩ .

(٢) سورة يونس الآية التاسعة .

(٣) سورة النساء الآية ٦٥-٦٨ .

(٤) سورة الصف الآية الخامسة .

(٥) سورة إبراهيم الآية السابعة .

(٦) سورة الأنعام الآية ٤٩ .

(٧) سورة الأنعام الآية ١٠٧ .

وَجَبْرِهِ مَا يَلِي : إن الله يعلم ما سيكون عليه الإنسان باختياره من هدى أو ضلال ، خير أو شر ، وليس في علم الله بذلك أى معنى من معانى القهر والإلزام ، وإنما هو مجرد انكشاف لما وقع وما سيقع على السُّنَّةِ الدائمة ، وهى سنة الاختيار التى بنى عليها التكليف والثواب والعقاب (١) .

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : كما يشهد سليم العقل والحواس أنه موجود ، ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته ، ويعتد إنكار شئ من ذلك مساوياً لإنكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل وواهب الوجود يهَبُ الأنواع والأشخاص وجودها ، ويهب لها توابع الوجود ، ومن توابع الوجود فى الإنسان أن يكون مفكراً ، مختاراً فى عمله على مقتضى فكره ، فأعمال الإنسان حاصلة عن الكسب والاختيار ، وعلم الله بها ليس بسالب للتخير فى الكسب (٢) .

ويجب الإمام عن القول الزائف الذى يدعى أن كسب العبد لأفعاله يؤدى إلى الإشرak بالله ، بأن الإشرak هو الاعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج على قدرة المخلوقين ، أما أن يسير الاعتقاد فى هذا المجال كالاستنصار فى الحروب بقوة الجيش والاستشفاء من الأمراض بالأدوية التى هدانا الله إليها ، فليس من الشرk بشيء (٣) .

وفى مكان آخر يقول الإمام : إن كل الطوائف المسلمة تعتقد بأن للإنسان جزءاً اختيارياً فى عمله ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب ،

(١) الإسلام عقيدة وشريعة : ص ٤٧ .

(٢) رسالة التوحيد . ص ٥٧ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق .

والمسلمون مطالبون بامتثال الأوامر الإلهية والنواهي الربانية ، فإن خالفوا هذه الأوامر لوهم وهموه استحقوا من الله العقاب (١) .

ومن العجيب أن عقيدة القضاء والقدر التي استحالت في عهود الضعف إلى عقيدة التواكل والاستسلام ، أو إلى عقيدة التخلص من المسؤوليات ، هذه العقيدة كانت في العهود الأولى ، عهود الإسلام الصحيح مبعثاً للقوة والشجاعة وسبباً من أسباب احترام النفس ، وعدم الخضوع للظلم ، وهناك بيتان من الشعر عن القضاء والقدر كان الإمام على كرم الله وجهه ينشدهما في مطلع كل معركة ، ويخوض بعد ذلك المعركة بقلب لا يهاب ، وهذان البيتان هما :

أَيُّ يَوْمِيٍّ مِنْ الْمَوْتِ أَفِرُّ يَوْمٌ لَا يُقَدَّرُ أَوْ يَوْمٌ مُقَدَّرٌ
يَوْمٌ لَا يُقَدَّرُ لَا أَرْهَبُهُ وَمَنْ الْمَقْدُورِ لَا يُنْجِسِي الْخَذِرُ

وهكذا كان الإمام يدخل المعركة بشجاعة فائقة لأنه إن كان قد مُقَدَّرَ له الموت فلن يحميه الجبن من الموت ، وإن كانت قدرت له السلامة ، فلن يستطيع أحد أن ينال منه مكروها .

ويقول الإمام محمد عبده : إن الذي يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، لن يرهب الموت ، ولن يخاف أحداً وهو يدافع عن حقه ويعلى كلمة أمته ، وهذه العقيدة انقضت المسلمون الأول على أعداء الإسلام فنالوا منهم ، وحققوا في تاريخ الإسلام أشرف ما يحققه إنسان لدينه ووطنه (٢) .

ومن مزايا الاعتقاد بالقضاء والقدر أن الإنسان لا يبالغ في الحزن إذا نزل به مكروه ، وأنه يبدأ من جديد إذا فشل في عمل ، آملاً أن يحقق في المستقبل ما عجز عن تحقيقه في الماضي .

(١) المسلمون والإسلام : ص ١٩١ .

(٢) المرجع السابق : ص ١١٣ - ١١٤ .

وهكذا يطمع الباحثون في الدراسات الإسلامية أن يصححوا أفكار
الناس تجاه هذه العقيدة ، ليدروا عنهم الانحراف المذموم ، وليدفعوهم لكي
يأخذوا لهم عن طريقها زاداً ينتفعون به في الدنيا والآخرة .

ونضيف مزيداً من الشرح لهذا الرأي الذي نؤيده ، فنقول إن الله سبحانه
وتعالى يعلم ما كان وما سيكون من أعمال البشر جميعاً ، فما هو مكتوب
في الأزل ليس إلا سجلاً لكل تصرفات الإنسان التي ستحصل منه باتجاهه
هو ، وليس في ذلك أى أمر له بأن يفعل أى خطأ نهى الله عنه ، فالله
سبحانه ليس كاتباً على الإنسان أن يعمل هذا ، بل كاتب أنه سيعمله من
تلقاء نفسه .

صورة المجتمع الإسلامي

كما ينبغي أن يكون

وضع الإسلام قوانين لاتباعه، وقيماً لمعتقية، ومن بين هذه القوانين وتلك القيم ما رسمه لحياة اجتماعية تكفل السعادة للمسلمين، بيد أن المسلمين - كما رأينا - بعدوا في كثير من الحالات عن الأسس الحكيمة التي وضعها الإسلام، وراحوا يتخبطون على غير هدى، أو شوّهوا الفكر السليم ومزجوه بأفكار منحرفة تسربت لهم من هنا ومن هناك، وقد وضعنا فيما سبق موقف الإسلام من أبرز المشكلات الاجتماعية، ونود هنا أن نرسم بإيجاز صورة للمجتمع الإسلامي كما رسمه الإسلام، لنرى ما به من جمال وإبداع، وروعة وخير، ولنبحث المسلمين على العودة له لينعموا بحياة سعيدة طيبة.

وأولى ملامح المجتمع الإسلامي تتمثل في التكافل الاجتماعي الذي يتسع من دائرة إلى دائرة مبتدئاً من التكافل بين أفراد الأسرة الذي شرحناه من قبل، ثم يتسع نطاقه بعد الأسرة فيشمل الجار، فأهل القرية أو الحى، فأفراد المجتمع بالوطن، فأفراد المجتمع بالعالم الإسلامي كله، والإسلام بهذا يرتفع بالمسلم من الحيوانية إلى الإنسانية، فالحيوانات والطيور تحب أبناءها وتساعدوا وتدافع عنها، ولو وقف الإنسان هذا الموقف في مجتمعه، فوجه كل نشاطه وجهه لصالح أولاده وتناسى مسؤولياته تجاه المجتمع، فإنه بذلك يعيش في نطاق الحيوانية، على أن بعض الحيوانات يتسع نشاطها فتكون لها جماعة متعاونة، وعلى ذلك يتحتم على المسلم أن يدرك أن مسؤولياته تجاه أولاده ليست إلا جزءاً من مسؤولياته تجاه وطنه وعالمه، ولن يستطيع

أولاده أن يسعدوا في عالم ينتشر فيه الشقاء ، ولنسكب بعض الضوء على
دوائر التكافل الاجتماعي كما يراها الإسلام .

حق الجار :

يقرر الإمام الغزالي (١) أن حق الجار في الجملة أن يبدأه جاره بالسلام
ويعوده في المرض ، ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في الضراء ، ويهنته في
الفرح ، ويشترك معه في السرور به ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع
إلى عوراتِه ، ولا يضيق طريقه إلى الدار ، ويستتر ما ينكشف من أخطائه ،
ولا يغفل عن ملاحظة داره إن غاب ، ولا يسمع عليه كلاماً ، ويتلطف
بولده ، ويرشده إلى ما يجهله في أمر دينه ودنياه .

ويقرر كذلك أن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة فيقول :
يا رب سئل هذا لم منعي معروفي ؟ وسد بابي دوني ؟ وشبع وكنت جائعاً ؟

وهذه الآداب نتجت عن الوصايا الواسعة الشاملة التي ذكرها القرآن
الكريم ورصدها الرسول صلى الله عليه وسلم لرعاية الجار ، قال تعالى :
« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى واليتامى
والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب » (٢) .

والمقصود بالجار ذي القربى هو الجار من الأسرة ، أما الجار الجنب ،
فهو الذي يجاور في منزل أو زراعة دون رحم يربط بينه وبين جاره إلا رحم
الجوار ، والصاحب بالجنب هو الرفيق في طريق أو المجاور في جلسة .

وقال صلى الله عليه وسلم :

— ما آمن بي رجل بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم .

(١) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٥ .

— أتدرى ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ،
وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر أعطيته ، وإن مرض عدته ، وإن
أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن مات تبعته جنازته .

— ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

— قيل للرسول إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ، وتكثر الصدقة ،
ولكنها تؤذى جيرانها ، فقال : هي في النار .

ويروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود ، فقال : إن لي جاراً يؤذيني
ويشتمني ويضيق عليّ ، قال إذهب فإن هو عصى الله فيك فأطيع الله فيه .

ويروى أنه كان لأبي حنيفة جار بالكوفة يغنى ويطيل الغناء بالليل ،
وربما ضجر أبو حنيفة من غنائه وهو يشرح لتلاميذه أو يملأ عليهم ، وفي
إحدى الليالي قبض العسس على هذا الرجل لإقلاقه الناس وقادوه إلى
السجن ، ولم يسمع أبو حنيفة صوته في الليلة التالية ، فسأل عنه فأخبر خبره ،
وسرعان ما ارتدى ملابسه وذهب إلى عيسى بن موسى أمير الكوفة وقال له :
إن لي جاراً أخذه عسسك البارحة وحبسوه ، وما علمت عنه إلا خيراً :
فقال عيسى : سلموا إلى أبي حنيفة كل من أخذه العسس البارحة . فأطلقوهم
جميعاً من أجله . قال الرجل لأبي حنيفة : جتهدت لإنقاذى وطالما أزعجتك
بغنائى . قال أبو حنيفة : أرجو أن أكون بذلك قد أديت معك حق الجار (١)

ولعل القرى لا تزال تحافظ على حق الجار أو بعض هذا الحق ، ولكن
المدن أو المدينة أغفلت هذا الحق تماماً ، حتى أصبح الإنسان يعيش في المدينة
ولا يعرف اسم جاره ، ولا يؤدي له حقه ، وتلك واحدة من الشرور
التي طغت على الناس باسم المدينة والحضارة .

التعاون في نطاق القرية أو المدينة :

يتسع التكافل الاجتماعى في الإسلام من دائرة الرحم إلى دائرة الجوار

إلى دائرة أوسع ؛ فيلتزم المسلم بمساعدة أهل قريته أو المدينة التي يعيش بها ، وفي الحديث الشريف : إنما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله . ويقضى الفكر الإسلامى بأن يتعاون أهل القرية ، فإن مرض منهم واحد زرعوا أرضه وسقوها ، وإن نفقت ماشيته حرثوا أرضه وأداروا ساقيته ودرسوا قمحه وأعطوه من ألبان أبقارهم ، وإن نزلت بأحدهم نازلة حملوا معه عبأها ، وعلى سكان المدن أن يتعاونوا في نطاق ظروفهم .

ويخرج التكافل عن نطاق القرية أو المدينة إلى مجتمع الوطن ، ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : خرج رجل من قرية يزور صديقاً له في قرية أخرى ، فأرسل الله إليه ملكاً اعترض طريقه وسأله : أين تريد ؟ قال : أريد زيارة صديق في هذه القرية . قال الملك : هل بينك وبينه رحم أو عمل ؟ قال : لا وإنما أحببته في الله . قال الملك : إني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببت صديقك فيه .

وتنزل أحياناً نائبة ببلدة ، غرق أو حريق أو نحو ذلك فيلتزم أهل الوطن وبخاصة أهل البلاد المجاورة بأن يهبوا إليهم حاملين مما عندهم من كساء وغطاء وطعام ومال ، بالإضافة إلى جهودهم الجسدية إن كانت هناك حاجة لمثل هذه الجهود . وهذه الكلمات تكتب وقد اجتاحت قوى العدو الصهيوني بعض أرضنا الغالية ، فشردت الإخوة السكان ودمرت مساكنهم وأرضهم ، وأشهد لقد فتح المصريون قلوبهم وبيوتهم للمهاجرين وآوهم وواسوهم ، طيلة فترة غربتهم .

التعاون في نطاق المجتمع الإسلامى :

أما التكافل بين أفراد المجتمع الإسلامى كله فيقرره قوله تعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة » (١) وقوله « إنما المؤمنون إخوة (٢) » ، وقوله « وإن

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٢ .

(٢) سورة الحجرات الآية العاشرة .

استنصروكم في الدين فعليكم بالنصر » (١) وقوله صلى الله عليه وسلم :
المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وقوله : المؤمن للمؤمن
كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وسئل الرسول عن أفضل الأعمال فقال :
إدخال السرور على المؤمن ، قيل : وما إدخال السرور على المؤمن ؟ قال :
سد جوعته ، وفك كربته ، وقضاء دينه . وقال : المسلم أخو المسلم لا يظلمه
ولا يخذله ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن
مسلم كربة من كرب الدنيا ، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

وهذه التعاليم الحكيمة ترشدنا إلى ضرورة التعاون الكامل بين بلاد العالم
الإسلامي ، بحيث إذا وقع حادث في قطر إسلامي علا صدها قوياً في جميع
الأقطار الإسلامية ، وهب المسلمون ليقسموا حمل العبء ويشد بعضهم أزر
بعض ، أما أن يحتاج الفيضان بلداً إسلامياً ويسكت الآخرون ، أو يتعرض
بلد لعداؤون ولا تهب البلاد الأخرى لردّه . . . فذلك شيء لا يعرفه الإسلام ،
وأشهد أنه على الرغم من تفكك العالم الإسلامي إلى دول ، واختلاف بعضها
عن البعض الآخر في المذاهب والاتجاهات اختلافاً قليلاً أو كثيراً ، فقد
وقفت كلها حاسمة في وجه العدوان الصهيوني الذي أشرنا إليه من قبل ، وأعلنت
استعدادها لتقديم كل المساعدات العسكرية والأدبية والمادية ، وتناسى
زعماؤها ما بينهم من خلاف ، وهبوا هبة رجل واحد ، يدفعون الأذى
والعدوان ، ويعدون عدواناً عليهم جميعاً ، وهو في الحقيقة كذلك ، فإن
انتصار قوى الشر لن يقف عند حد ، ولا بد من تكاتف القوى ارد العدوان
والقضاء على مكن الأذى .

ومن التعاون بين الأقطار الإسلامية أن تتم عملية تكامل في إمكانيات

هذه الأقطار ، أما أن يوجد عمال عاطلون في بلد ، وبياد آخر مشروعات أو قدرة على إنشاء مشروعات ، فذلك شيء لا يعرفه الإسلام ، وأما أن يوجد في بلد فلاح لا يجد أرضاً وفي بلد آخر أرض لا تجد من يفلحها ، فذلك شيء لا يعرفه الإسلام ، وأما أن توجد ببلد جامعة لا تجد طلاباً وفي بلدة أخرى طلاب لا يجدون جامعة فهذا شيء لا يعرفه الإسلام . فالمسلمون وحيدة يلزم أن يتعاونوا في كل المجالات وفي كل الظروف .

رعاية المحروم من العائل أو المال أو الوطن :

ومن ملامح المجتمع الإسلامي رعاية المحروم ، سواء كان محروماً من العائل أو محروماً من المال أو محروماً من الوطن ، وهؤلاء الثلاثة (اليتامى والمساكين وابن السبيل) أوصى بهم القرآن الكريم في عدة آيات ، كما أوصى بهم الرسول في عدة أحاديث ، ويقرر علماء الاجتماع أن أكثر الجرائم التي ترتكب يقوم بها أولئك المحرومون عندما لا يكفكف أحدٌ دموعهم ، ويهمل المجتمع حقوقهم ، فيصبح هؤلاء أعداء للمجتمع ، ويثأرون منه بالاعتداء عليه كلما وجدوا سبيلاً لذلك .

إغاثة الملهوف :

ومن ملامح المجتمع الإسلامي إغاثة الملهوف ، والملهوف شخص تمسه حاجة عارضة ، كالرجل يهاجمه المرض في الليل ، والمرأة يضيع طفلها ، والآمن يهاجمه اللصوص ، وراكب السيارة يصيبها عطب في الطريق ، والمسافر تسرق نقوده ، وهكذا دواليك ، والفكر الإسلامي يحتم تفريغ هذه الكربة ، وتقديم العون لهذا المحتاج في كل الحدود الممكنة ، وقد سبق أن أوردنا الحديث الشريف الذي يقرر أن « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . وقد سبق أن أوردنا هذا الحديث الشريف .

ضمان الحرية . . . :

ومن ملامح المجتمع الإسلامى الحرية؛ سواء كانت حرية الفكر، أو كانت حرية الدين، أو الحرية السياسية، أو حرية الملك، فعن حرية الفكر نجد الدين الإسلامى يحترم العقل ويدعو للانتفاع به فى عدة آيات منها قوله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » (١) وقوله صلى الله عليه وسلم : الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له .

وعن حرية الدين يشتمل القرآن الكريم على مجموعة من الآيات تقرر هذا الحق، منها قوله تعالى « لا إكراه فى الدين » (٢) وقوله « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » (٣) .

وعن الحرية السياسية جعل الإسلام للمسلمين حق اختيار الحاكم ومناقشته، والاعتراض على ما لا يُقبل من تصرفاته وحق عزاه (٤) ،

وعن حرية الملك يقرر الإسلام مبدأ الملكية الفردية، ويحرس هذه الملكية وينقلها من المالك بعد موته إلى ورثته ما دامت ملكية عن عدل وحق، وعلى هذا فالحرية فى الإسلام من أبرز ملامحه .

مجتمع سلام :

ومن ملامح المجتمع الإسلامى أنه مجتمع سلام ما سَلِمَ من العدوان والتهديد، فطبيعة هذا المجتمع أن يعمل ليسود الأمن فى الداخل والخارج، وهو لهذا يحارب الإرهاب وينزل بالسارق وقاطع الطريق أقصى عقاب،

(١) سورة الزمر الآية التاسعة .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .

(٤) النظر السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى للمؤلف .

ويرى الفكر الإسلامى أن الأمن يعدل الطعام والرزق أو يفوقهما ، قال تعالى : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١) وهكذا كان الأمن منحة مع الرزق ، وأصبح الخوف عقوبة مع الجوع . وفى آية أخرى يتكرر نفس المعنى تقريباً فإذا رضى الله عن قوم أعطاهم الثراء والجاه بعد الحرمان ، وأعطاهم مع ذلك الأمن بعد الخوف ، قال تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » (٢) ومن وسائل الأمن من العدو الخارجى أن يعد المسلمون العدة لمواجهة حتى لا يقوى على العدوان قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (٣) فإن مال الأعداء إلى المسالمة وعدلوا عن العدوان فالقرآن الكريم يلزم المسلمين بالاستجابة لذلك الإحساس قال تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (٤)

مجتمع متحاب :

ومن ملامح المجتمع الإسلامى أنه مجتمع متحاب وإذا أحب المسلم المسلم اختفت الحاجة إلى القوانين ونعم المجتمع بحياة سامية جميلة ، وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى : « وجبت محبتي للمتحابين فى » والمتجالسين فى » والمتزاورين فى . ويقول صلى الله عليه وسلم : لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ،

(١) سورة النحل الآية ١١٢ .

(٢) سورة النور الآية ٥٥ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٤) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

ولا تؤمنون حتى تحابوا . ويقول : ما تحاب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه . وإذا أحب المسلم المسلم تمنى له ما يتمناه لنفسه ، ودفع عنه ما يدفع عن نفسه . ويقول عليه السلام : لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

إصلاح ذات البين :

ومن ملامح المجتمع الإسلامي أن يشيع به خلق إصلاح ذات البين . وليس من الإسلام في شيء أن يقف الناس موقفاً سلبياً من المتخاصمين . فتزداد بينهم الخصومة ، بل يتحتم على المسلمين أن يتقدموا ليقولوا الكلمة الطيبة ، وليزيلوا أثر النفر ، وليعيدوا الود بين الناس ، ويمثلوا مجتمع الحياة بالحب قال تعالى « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » (١) . وقال « إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم » (٢) . وقال « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » (٣) وللرسول في هذا المجال أحاديث جامعة . قال صلى الله عليه وسلم :

— ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله ؟ تصلح بين الناس إذا تباغضوا .

— كل سلام تقيمه بين الناس صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة .

— ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا : بلى . قال : إصلاح ذات البين .

(١) سورة الأنفال الآية الأولى .

(٢) سورة الحجرات الآية العاشرة .

(٣) سورة النساء الآية ١٤٤ .

— ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله ؟ صلّ بين الناس إذا تفرّسوا
وقرب بينهم إذا تباعدوا .

بل إن الإسلام يرخّص أن يكذب المصلح وهو في سبيل إصلاح ذات
الدين ما دامت الكذبة تعيد القلوب إلى الإلف وتوحد الصفوف ، وفي ذلك
يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا أعده كاذباً ؛ الرجل يصلح بين الناس
يقول القول ولا يريد به إلا الإصلاح ، والرجل يقول في الحرب فإن الحرب
خدعه ، والرجل يحدث امرأته (يَعدُّها ليرضيها وإن لم ينور الوفاء) .

إنعاش أخلاق الإسلام :

ومن ملامح المجتمع الإسلامي أن تبرز فيه أخلاق الإسلام ، فلا يسخر
مسلم من مسلم ، ولا يوجد فيه حسد ولا كبر ولا تجسس ولا غش ، ولا
رشوة ولا شهادة زور ولا عصبية (١) . . . وفي القرآن الكريم وأحاديث
الرسول نهى ووعد لمن تخلّق بهذه الأخلاق ، ووعد بالخير لمن تخلّق بصفات
الخير تلك التي أَلَمْنَا بها وتلك التي لم نذكرها هنا لشهرتها ، فالتخلّق الكريم
يعرفه الناس ، ويعرفون كذلك الخلق الرديء ، وليس من الإسلام في شيء
أن يبعد المسلم عن الضوء ويعيش في الظلام .

ما أجمل الصورة التي رسمها الإسلام للمجتمع ، وما أسعد الناس
لو طبّقوا هذه الصورة في حياتهم .

(١) ليس من العصبية ما نسميه الآن القومية أي أن يحب الرجل قومه ويساعدهم . ويجب
وطنه ويتفانى في رفته والدود عنه ، وإنما العصبية التي نها عنها الإسلام هي أن يأخذ الإنسان
جانب قبيلته أو قومه وهم على باطل ، وقد سأل أبي بن كعب الرسول : أمن العصبية أن يحب
الرجل قومه ؟ فأجاب عليه السلام : لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم .

لمسات سريعة بالمجتمع

في ثنايا المجتمع تبدو ظواهر ذات بال لا تكوّن كل ظاهرة منها موضوعا يمكن أن يستقل بعناصر ودراسة مستفيضة ، وإنما كل منها لمسة سريعة لجانب من جوانب النفس أو من جوانب الحياة ، وقد رأيت أن أجمع بعضها هنا ، وأبين رأى الإسلام فيها رجاء أن نغير من سلوكنا لنلتقي مع السلوك السامي الذي رسمه لنا ديننا الحنيف :

العلم والعمل به :

من أهم أهداف العلم أن ينقلب عملا ، فالطبيب يعمل ليزيل أمراض الناس ، والمهندس يخطط للناس ما يساعدهم على حياة أسعد ، والمعلم يرفع الجهالة عن النفوس ويحثها على الخير والإيثار ، وهكذا ، والعلم الذي لا ينقلب عملا ليس إلا كالشجرة التي لا ثمار لها ، فالذي يمدح الصديق وبر الوالدين ثم يكذب أو يعق والديه يعيش في هراء وضلال .

وهكذا ينبغي أن يعمل العالم بعلمه وأن يعلمه للآخرين ليعملوا به ، قال تعالى « أأأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » (١) وقال صلى الله عليه وسلم : من علم علما فله أجر من عمل به ، ولا ينقص من أجر العامل . وإذا عجز العالم لسبب أو لآخر عن أن يعمل بكل ما يعلم ، فليس معنى ذلك أن يتوقف عن تعليم ما يعلم للناس ، فلعل الله يهدي به من يعمل بهذا العلم ، ولكن بشرط ألا يعرف المتعلم أن المعلم لا يعمل بعلمه ، وقد روى في ذلك أن الحسن بن علي قال لمطرف بن عبد الله : يا مطرف ، عظم أصحابك . فقال مطرف : أخاف أن أقول مالا أفعل : فأجابه الحسن : يرحمك الله ،

(١) سورة البقرة الآية ٤٤ .

وأينا يفعل ما يقول ؟ إن الشيطان ليود أن يقول كل مسلم ما تقوله يا مطرف ؛
وحيث لا يوجد من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر .

ويبدو لي أن هناك نوعاً من العلماء لا يستطيعون أن يبعدوا عن أفكارهم ،
أولئك هم الكتّاب والمؤلفون ، فإن الواحد منهم يعيش مع معارفه أطول
وأعمق مما يعيش سواهم ، فالعالم يقرأ ويفهم ، ولكن الكاتب يضيف
إلى ذلك أنه يتمثل ما يقرؤه ، ثم يسكب قطرات من قلبه ودمه ، فالكاتب
الذي لا تنعكس عليه كتابته ، صلد معتم ، وينبغي أن يكون هذا النوع
قليلاً أو غير موجود .

الله والإنسان في السراء والضراء :

صور القرآن الكريم النفس البشرية أدق تصوير إذا مسها الضر وإذا
كشف عنها الضر ، كيف أنها في الأولى تهرع إلى الله داعية ضارعة ، وفي
الثانية تنسى الضراعة والخضوع وتنفلت تجاه النسيان والجمود ، قال تعالى :

— وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه
ضره مَرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا
يعملون (١) .

— وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا
كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون (٢) .

— وإذا مس الناس ضرٌ دعوا ربهم منيبين إليه ، ثم إذا أذاقهم منه
رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون (٣) .

(١) سورة يونس الآية ١٢ .

(٢) سورة النحل الآيتان ٥٣ - ٥٤ .

(٣) سورة الروم الآية ٣٣ .

— وإذا مس الإنسان ضرر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل (١) .

والذى يتمتع بهذه الآيات الكريمة ينجل لنكران الجميل الذى أصبح طابع الإنسان تجاه ربه ، وهل أمن الإنسان مكر الله « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » (٢) وماذا لو تركه الله فى ضرائه مرة بعد أن ظهر منه الجحود أو كان النسيان خلقه ؟ إنه يتردى فى الألم ولا تستطيع قوة أن تنقله ، وما أحلى أن يتطلع الإنسان إلى ربه فى ساعات سرائه وفترات نجاحه ويناجيه : يارب . . . هذا النجاح أنت مانحه ، وهذا الخير أنت معطيه ، يارب أشكرك فى سرائى وسرورى كما ألبأ إليك فى ضرائى وهومى ، فأنت كاشف الضر ومانح الخير . . . إن عبارات كهذه فيها اعتراف بالجميل ، وهى توحى بالأمل أن يرفع الله الضر إذا نزل ، ويكشف الغمة إذا أملت .

أيها المسلم إن فائك هذا فى الماضى فلا يفوتك فى الحاضر والمستقبل ، واجعل صلتك بخالقك قوية ، واتجه له يتجه لك ، وتذكر أن خلق الوفاء طبيعة الإنسان الكريم ، والوفاء لله أوجب الواجبات ، فعطاياه أسمى العطايا ومنحه أجل المنح .

علاقة الإنسان بالإنسان :

ما موقفك من فكرة كونها عن إنسان فى الماضى ؟
كثيرون من الناس يكوّنون فكرة ويظنون عيباً لها ، لا ينفكون عنها ولا يحيدون . وأحب أن أسألك : هل أنت متأكد من صحة الأسس التى بنيت عليها فكرتك ؟ فالشخص الذى تتحاشاه أو لا تحسن الظن به ، هل هو حقيقة يستحق مجافاتك ؟ والشخص الذى تقبل عليه وتحسن الظن به ، هل هو حقيقة يستحق حبك ؟ .

(١) سورة الزمر الآية الثامنة .

(٢) سورة الأعراف الآية ٩٩ .

هل سمعت عن شخص شيئاً فبنيت رأيك على هذا السماع ؟ وألا يمكن أن يكون ما سمعته كذباً أو مبالغاً فيه ؟ . .

وهل رأيت من شخص تصرفاً لم يعجبك فحكمت عليه بحكم استولى عليك ؟ وألا يمكن أن يكون هذا الشخص واقعاً تحت ظروف غير عادية حينما تصرف على النحو الذى أخذته عليه ؟ .

ثم أتظن أن السنين التى تمر ، والعلم الذى يحصل ، والتجارب التى تكتسب ، لا تغير من طبيعة الإنسان ؟ .

بودي لو وقف الإنسان من حين إلى حين ليراجع قائمة معارفه ومن حوله ، وأغلب الظن أنه لو فعل لحصلت حركة تنقلات قد تكون واسعة ، ونرجو أن تكون إلى الخير أقرب .

البخل بالكلمة :

يُكثر الناس من الحديث عن البخل بالمال ، ويعللون ذلك بأن المال عزيز على صاحبه ، وصاحبه به ممسك اليد « وكان الإنسان قثوراً » (١) ولكن هناك نوعاً من البخل أكثر شيوعاً فى المجتمع وأكثر خطراً من البخل بالمال ، وهو البخل بكلمة الحق أو بالكلمة الطيبة ، والفقراء الذين يحتاجون الصدقة أقل جداً من الناس الذين يحتاجون للكلمة الطيبة ، وإذا كان هناك عذر لصاحب المال أن ممسك به ويقتر ، فأى عذر للإنسان أن يمسك بكلمة الحق ويحول بينها وبين أن تنطلق ؟ .

والمجتمع يخدع بالرجل الصامت ويرى الصمت فيه طيبة ومحمدة ، ولكن المفكرين يجمعون على أن الصمت عند لزوم الكلام أخطر من الثثرة عند ضرورة السكوت ، وطالما كانت الكلمة تحل أزمة ، أو تُحقق حقاً ،

(١) سورة الإسراء الآية ١٠٠ .

أو تقلل خصومة ، ولكن قلة من الناس أولئك الذين يمنحون الكلمة حيث تلزم ، والكثرة البالغة تبخل بها حتى على الأصدقاء ، عندما يحتاجون إليها ولا يعنى الفكر الإسلامى هؤلاء من المسئولية التى يتحملونها وهم يضمنون على المجتمع بما لا يحتاج منهم إلى جهد أو عناء ، استمع إلى المعلم الأعظم يأمر بالكلمة الطيبة ويحث عليها :

— من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه
— الكلمة الطيبة صدقة .

— إن من الناس مفاتيح للخير ، مغاليق للشر ، وإن من الناس مفاتيح للشر ، مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه .

— إن هذا الخير خزان ، ولتلك الخزائن مفاتيح ، فطوبى لعبده جعله الله مفتاحاً للخير ، مغلاقاً للشر ، وويل لعبده جعله الله مفتاحاً للشر ، مغلاقاً للخير .

والرجل الذى يبخل بالكلمة الطيبة طالما قفل بذلك باباً للخير كان يستطيع أن يفتحه ، أو ترك باب شر كان يستطيع أن يغلقه .

البر والأرقام :

عرفته وهو يقتطع من قوته بعضه لينقذ بعض أقربائه من برائن الجهل والضياع ، ويدفع بهم إلى عالم النور ، وطال كدحه ، لأن مراحل التعليم طويلة ، وتكاليفها على مثله ثقيلة ، وأمدده الله بالعون وأفسح له فى الرزق فتأبر حتى تم له ما أراد أو أكثره ، وكان صاحبنا يتمثل بمخلق القرآن فلا يريد من أحد جزاء ولا شكوراً ، بل كان يعتقد أنه وجد الجزاء خير الجزاء من الله العلى العظيم ، ومرت الأيام ، وأصبح بعض هؤلاء الأقارب ينعمون بالوإن من الجاه والمال ، وأشهد لقد كان صاحبنا سعيداً بذلك كل السعادة ، ولكن أحد هؤلاء بدا منه عقوق فى بعض المواقف . قال له

زميل له : أنسيت أن هذا أسبهم في تربيتك ؟ فأجاب : ماذا دفع لي ؟
احسب معي كل ما دفعه لي وأنا مستعد لرده فوراً حتى لا يكون لأحد على
فضل . قلت له : يا أخى لقد نقلت البر والتعاون والحب إلى أرقام ،
وهيات أن تؤثر هذه الأشياء بالمال ، أن الذى رباك أو أسهم في تربيتك
لم يدفع لك قروشاً أو جنيهات ، بل دفع لك حياتك ، وحولك من لا شيء
إلى شيء كبير .

وشخص آخر كان في غربة مليئة بالأعمال والأحداث ولكنه لم ينس
ذويه ، وراح يبحث بجد عن هدايا تلائمهم وتبعث السرور في نفوسهم ،
وتكون تذكاراً طيباً لرحلته ، وقد رأته غير مرة يغشى الأسواق والمتاجر
باحثاً هنا وهناك عن أحسن ما بها مما يناسبهم ، وعاد من رحلته فوزع هداياه
وخص أسرة حبيبة له بمجموعة من الهدايا ، ولكن أحد أفراد هذه الأسرة
شغل نفسه في عملية حسابية يرى كم تساوى هذه الهدايا . قلت له : هل
استطعت أن تحول إلى أرقام تفكير هذا الشخص فيكم ؟ وإهتمامه بكم ؟ وسعيه
للبحث عن الهدايا ؟ والجهد الذى بذله ؟ وحمله لها ؟ وتخطيه الحدود بها ؟ ..
إن هذه الأشياء لا ترجع إلى أرقام ، وهى انفعالات أسى من المال ، وإن
البر لا يوزن بثقل ، ولا يقدر برقم ، والعواطف الطيبة أغلى من الذهب
والجواهر .

البر في نظري حياة نابضة طيبة والأرقام جسم كليل أو هامد ، فلنقابل
البر بالبر والحب بالحب فذلك وحده هو الغرض الصحيح .

التقليد في الشر والخير :

في أبحاثنا السابقة رأينا التقليد مستعراً وقوياً في أكثر الأبواب التي
طرقناها ، فالإسراف في مظاهر الأفراح ، وفي عادات المآثم ، والإسراف
في استعمال مكبرات الصوت ، وشرب الخمر ، واستعمال المخدرات ،
والتدخين . . . كلها انحدرت للإنسان عن طريق التقليد ، وباسم التقليد

يصعب الفكاك منها ، وعلى هذا يسرى التقليد في الشر سريانا شاملا ، وإن كان الموضوع يخالف الدين ، أو يعارض الخلق ، أو يستنفد المال .

تعال بنا إلى أعمال الخير ، هناك رجل يبني مسجداً ، ولكن قل من الناس من يخلو حذوه ، ورجل يكثر الصدقات وقل من الناس من يأثم به ، ورجل يسعى بالمعروف وقل من يسير على منواله .

وأنت يسىء إليك إنسان فلا تنسى إساءته ، وتحسن لك آخر فتنبى الإحسان ، تحاول مرة أن تقرض مالا فيضن عليك صاحب المال فتبقى طول عمرك لا تقرض أحداً كأنك تثار من المجتمع بسبب خطيئة فرد ، ولكن قد يصادفك شخص طيب يمد يده إليك بالقرض الحسن ، ولكنك لا تمد بالقرض الحسن من يستقرضك عند حاجته واستطاعتك .

لماذا ساد هذا الاتجاه ؟ لماذا يسرع الإنسان للتقليد في الشر ويتراجع عن التقليد في الخير ؟ .

هل فطر الإنسان على الشر ؟ « إن الإنسان خلق هلوياً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصابين الذين هم على صلاتهم دائمون . . . » (١) .

وقد احتجت مرة إلى قليل من النقد الأجنبي لشراء بعض المراجع الضرورية ، فكتبت إلى أحد الأصدقاء بالخارج ، ولكنى أحسست عدم حماسه للاستجابة لرجائى ، وفى نفس الوقت تقدم لى صديق يطلب قرضاً ، وأشهد لقد خطر لى أن أقبض يدى عن عونه كما قبض صديقى بالخارج يده عن عوفى ، ولكنى سرعان ما تذكرت هذا الموضوع الذى كان يساورنى منذ مدة طويلة ، فكرهت أن أقلد فى الشر ، وهزمت ذلك الحاطر ، وقدمت

(١) سورة الماعز الآيات ١٩ وما بعدها .

لصديقي ما أراد . والعجيب أن المراجع التي كنت أحتاجها وردت لي بعد ذلك بألوان من اليسر تفوق كل ما كنت أتوقع .

دعوة نسجلها في هذا البحث للقارئ الكريم أن ينتفع باتجاهات الخير في الناس أكثر مما ينتفع باتجاهات الشر فيهم ، وإذا تمَّ هذا الاتجاه غلب الخير على الشر وسعد المجتمع الإسلامي .

هل تسعد بنجاحك أو تشقى به ؟

قابلت في مطلع حياتي العلمية أحد الناشرين ، وقد نشر لي كتابين من أهم كتبي ، وراج الكتابان ونفدا ، ولكنه لم يوف بوعوده لي ولا بالعهد التي بيننا ، وحسني أحد المحامين على رفع الأمر للقضاء ، ولكنني أجبت بأني لا أريد أن أشقى بنجاحي .

وجاء لي أحد أقربائي يشكولي سوء ما يعاني من مستأجر بأحد طوابق بيته الذي يسكن فيه ، وذكر أنه على وشك أن يتشاجر معه وليكن ما يكون قلت له : إن هذا الطريق يقودك إلى أن تشقى بثرائك ، والأجدر بك أن تصفح عن هذه الهنات حتى يكون ثراؤك سبباً في إسعادك لا في شقائك (١)

وزوجة جاءت تشكو زوجها الذي اتسعت تجارته وتفرغت ، فاستسلم لأعمال التجارة والمال وأهمل بيته وأولاده ، وحادثت الرجل في ذلك وقلت له لقد شقى أهلك بثرائك وكان من حقهم أن ينعموا به ، فأجاب الرجل : في يأس واعتراف قاثلا : أنا أول من شقى بهذا المال . لقد فقدت نفسي منذ وجدت الغنى .

(١) يفرق الفقهاء بين الواجب والحق في الدفاع ، فيرون أن الدفاع واجب لو كان العدوان متجهاً إلى الوطن أو نفس أو عرض أو إلى مال أو دعة عند المعتدي عليه ، أما إذا كان العدوان ضد مال الإنسان فالدفاع حق له . يجوز له أن يقوم به ويجوز له أن يدعه (انظر كتاب الجهاد في التفكير الإسلامي للمؤلف) .

. وفي القرآن الكريم قصة رجل اسمه ثعلبة بن حاطب ، طلب الغنى وعاهد الله أن يؤدي حقه ، فلما جاءه الغنى ضل وبخل فكانت الهاوية مآله وشقى بهذا الغنى في دنياه وآخرته ، استمع إلى قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن وانكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » (١) .

ومثات المؤلفين والأطباء والثنائين ورجال الأعمال يشقون بنجاحهم ، ومن حق الإنسان أن يسعد بنجاحه . وطبيعة الرجل الناجح أن تكثر مشكلاته ومشئوياته ، ولو أراد فيها جميعاً أن يأخذ حقه غير منقوص اضحى بالكثير من سعادته في سبيل هدف يصعب الوصول إليه ، ولو ربح نفسه وتنازل عن بعض حقوقه ، وصرف جهده لإنتاج الجديد لاستطاع أن يعوض ما فقده منه وأكثر منه ، وليفترض ما يضيع منه زكاة هذا النجاح ..

. إن من الحكمة أن يسعد الإنسان بنجاحه وأن يسعد به الآخرون ، وإن دائرة سعادته تتسع كلما اتسعت دائرة معرفته ، وإن من الجهل أن يشقى الإنسان بنجاحه ، ويبيت حانقاً مغيظاً ، بل إن من الخطأ أن نعد أمثال هؤلاء من الناجحين ، فالنجاح مجال واحد ، والذين يشقون بنجاحهم تعساء مهما كان ثراؤهم أو جاههم .

طريقك لقتل الحسد :

من الذي يحسدك على جاهلك أو مالك أو صحتك أو أى نعمة تحل بك ؟

إن صورة الحسد في أبشع صورها ، أى في تمني زوال النعمة ، أو في صورة أخف أى في استكثار النعمة ، هذه الصورة أو تلك لا تخطر إلا في نفس القريب أو الصديق أو الجار أو الزميل ، ولا يوجد من يحسد شخصاً لا تربطه به صلة ، ففي الدنيا من يملكون ثراء واسعاً ، أو من هم أبطال في

كمال الأجسام أو قوتها . . ولكن الحسود لا يتجه لهم ، وإنما تنفعل نفسه وتحترق كمداً إذا نجح أخوه ، أو أثرى صديقه دونه ، أو اتسع جاه جاره ، وهكــذا . .

إن المفكرين يرون ذلك شيئاً طبيعياً ، فالحسد خطوة تعقب المنافسة ، والمنافسة تكون بين اثنين بينهما علاقة قربى أو جوار أو صداقة أو زمالة ، فإذا قفز أحدهما وتخلف الآخر بدأ الحسد يدب .

إننا لا نلتقي المسئولية على الحاسد وحده ، بل نُشرك معه المحسود في المسئولية ، ولو أذى المحسود واجبه تجاه رفيق الأمل لحجب الحسد ، وأوقف الحقد ، وربما أحل محله دعوة خير تنطلق بها نفس ذلك الذى تخلف وتقهقرت به الحياة ، ويتمثل واجب المحسود فى أن يمنح المحروم جزءاً مما نال من نعمة ، فإن كان علاجه عاونه بهذا الجاد فيما يعترضه من مشكلات ، وإن كان نال غنى فك عسرتة وأضنى عليه وأهدى له ، وإن كان صحيح الجسم عاده وحمله وأعانه ، ولن يتمنى الحاسد زوال نعمة له فيها نصيب ، وكلما اتسع هذا النصيب كلما أحس المحروم بضرورة هذه النعمة له ، وتبنى لها النماء والدوام .

مراجع الكتاب

ملحوظتان :

١ - المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت في ذيل صفحاته ، أما المصادر الأخرى التي أسهمت فيه بطريق غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة .

٢ - الطريقة التي اتبعت في تنظيم هذه القائمة بُنيت على الترتيب الأبجدي لاسم المؤلف الذي اشتهر به ، مع عدم اعتبار الملحقات (ابن - ال)

-
- | | |
|---|-------------------------------------|
| ١ - القرآن الكريم . | ١٠ - كتب الأحاديث الستة . |
| ٢ - تفسير البيضاوي . | ١١ - مجموعة من كتب الفقه الإسلامي . |
| ٣ - « الأستاذ الإمام محمد عبده ١٢ - عدة أبحاث في مجالات إسلامية | |
| ٤ - « أبي السعود . | ١٣ - عدة أبحاث في مجالات علمية . |
| ٥ - « المنار | ١٤ - العهد القديم . |
| ٦ - « الفخر الرازي . | ١٥ - العهد الجديد . |
| ٧ - « الألوسي . | ١٦ - Lncyclopaedia of Islom |
| ٨ - « النسفي | ١٧ - دائرة معارف البستاني . |
| ٩ - « القرطبي | ١٨ - مجموعة من القواميس العربية . |

- ١٩ — دائرة معارف القرن العشرين ألفريد وجلى .
- ٢٠ — إبراهيم عوضين الإسلام والإنسان
- ٢١ — ابن الأثير الكامل فى التاريخ
- ٢٢ — دكتور أحمد شلبى موسوعة التاريخ الإسلامى بأجزائها العشرة .
- ٢٣ — دكتور أحمد شلبى سلسلة مقارنة الأديان : اليهودية - المسيحية - الإسلام - أديان الهند الكبرى .
- ٢٤ — دكتور أحمد شلبى الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره .
- ٢٥ — دكتور أحمد شلبى المجتمع الإسلامى .
- ٢٦ — » » » تاريخ التربية الإسلامية .
- ٢٧ — » » » السياسة فى الفكر الإسلامى
- ٢٨ — » » » الاقتصاد فى الفكر الإسلامى
- ٢٩ — » » » العلاقات الدولية فى الإسلام
- ٣٠ — أبو الأعلى المودودى (الأستاذ) الربأ
- ٣١ — » » » حركة تحديد النسل
- ٣٢ — أبو بكر البغدادى السماع
- ٣٣ — أبو عبيد الأموال
- ٣٤ — أبو يوسف الخراج
- ٣٥ — آدم متر الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى
- ٣٦ — الأصفهاني (أبو الفرج) الأغاني

- ٣٧ — الأصفهاني (حسين) محاضرات الأدباء
- ٣٨ — ابن بطوطة الرحلة
- ٣٩ — البهي الحولي منهاج الإسلام في الزواج والطلاق --
- ٤٠ — Poul Bureau Toworls Moral Bankrnpcy
- ٤١ — ابن تغري بردي النجوم الزاهرة
- ٤٢ — تقي الدين أبو بكر كفاية الأخيار
- ٤٣ — التنوخي نشوار المحاضرة
- ٤٤ — ابن تيمية القواعد النورانية الفقهية
- ٤٥ — » » كتاب العقود
- ٤٦ — » » فتاوى ابن تيمية
- ٤٧ — الجاحظ رسالة القيان
- ٤٨ — » البيان والتبيين
- ٤٩ — ابن جماعة تذكرة السامع والمتكلم
- ٥٠ — جون خلاط أعمال البورصة
- ٥١ — ابن حجر الإصابة في تمييز الصحابة
- ٥٢ — ابن حزم المحلى
- ٥٣ — حسنين مخلوف (الأستاذ) فتاوى شرعية
- ٥٤ — ابن خلدون المقدمة
- ٥٥ — الخوارزمي رسائل الخوارزمي
- ٥٦ — ابن رشد بداية المجتهد ونهاية المقتصد

- | | |
|------------------------------|-----------------------------------|
| طبقات الشافعية | ٥٧ - السبكي |
| الطبقات | ٥٨ - ابن سعد |
| المغرب | ٥٩ - ابن سعيد |
| كشف الغمة | ٦٠ - الشعراني |
| الملل والنحل | ٦١ - الشهرستاني |
| نيل الأوطار | ٦٢ - الشوكاني |
| الغرر وأثره في العقود | ٦٣ - دكتور صديق الضير |
| الفخري | ٦٤ - ابن طباطبا |
| حديث الأربعاء | ٦٥ - دكتور طه حسين |
| سيرة عمر بن عبد العزيز | ٦٦ - ابن عبد الحكم |
| التراتب الإدارية | ٦٧ - عبد الحى الكتانى |
| العقد الفريد | ٦٨ - ابن عبد ربه |
| الفقه على المذاهب الأربعة | ٦٩ - عبد الرحمن الجزيرى (الأستاذ) |
| المعاملات الحديثة وأحكامها | ٧٠ - عبد الرحمن عيسى (الأستاذ) |
| التجارة في ضوء القرآن والسنة | ٧١ - عبد الغنى الراجحي |
| الدلالات في سماع الآلات | ٧٢ - عبد الغنى النابلسي |
| الرسالة القشيرية | ٧٣ - القشيري (الإمام) |
| السياسة المالية في الإسلام | ٧٤ - عبد الكريم الخطيب (الأستاذ) |
| العقود المسماة | ٧٥ - دكتور عبد المنعم البدر اوى |
| السياسة الشرعية | ٧٦ - عبد الوهاب خلاف (الأستاذ) |

- ٧٧ — غريب بن سعد صالحة تاريخ الطبرى
- ٨٨ — الغزالي (الإمام) إحياء علوم الدين
- ٧٩ — ابن القيم زاد المعاد
- ٨٠ — « » أعلام الموقعين
- ٨١ — محمد أبو زهرة (الأستاذ) تنظيم الإسلام للمجتمع
- ٨٢ — محمد عبده (الإمام) رسالة التوحيد
- ٨٣ — « » المسلمون والإسلام
- ٨٤ — دكتور محمد عبد الجواد عقد التأمين (مذكرات جامعية)
- ٨٥ — دكتور محمد عبد الله العربى محاضرات فى الاقتصاد الإسلامى
- ٨٦ — محمد فؤاد الهاشمى الأديان فى كفة الميزان
- ٨٧ — محمد كرد على الإسلام والحضارة العربية
- ٨٨ — محمد المبارك ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد
- ٨٩ — دكتور محمد يوسف موسى الإسلام والحياة
- ٩٠ — محمود شلتوت (الأستاذ) الفتاوى
- ٩١ — محمود شلتوت (الأستاذ) الإسلام عقيدة وشرعية
- ٩٢ — المسعودى مروج الذهب
- ٩٣ — المقرئى الخطط والآثار
- ٩٤ — المكي قوت القلوب
- ٩٥ — نديم الجسر فلسفة الحرية فى الإسلام
- ٩٦ — النوى تهذيب الأسماء

- | | |
|---------------------------|-------------------------------|
| السيرة | ٩٧ — ابن هشام |
| رسائل الهمداني | ٩٨ — الهمداني |
| تاريخ هيرودوتوس | ٩٩ — هيرودوتوس |
| قصة الحضارة | ١٠٠ — ول ديورانت |
| معجم الأدباء | ١٠١ — ياقوت |
| تاريخ يحيى بن سعيد | ١٠٢ — يحيى بن سعيد |
| تاريخ اليعقوبي | ١٠٣ — اليعقوبي |
| الحلال والحرام في الإسلام | ١٠٤ — يوسف القرضاوي (الأستاذ) |

مطبعة التقدم

٤٤ شارع المواردى بالمنيرة ت ٨٢١٤٢١

رقم الإياع ٨٦/٢٨٧٧

ISLAMIC INSTITUTIONS AND CIVILIZATION



II V

SOCIAL LIFE IN ISLAM

BY
AHMAD SHALABY,

B. A. (Hon.) Cairo University,

Ph. D. Cambridge University,

Professor

of Islamic History and Civilization

Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Fifth Edition (1986)

Published by :

THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo.

دكتور أحمد شلبي

- تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كمبردج .
- زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوربا وآسيا وأفريقيا ، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية .
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الانجليزية والاندونيسية .
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية — وقد حاضر — منتدبا وزائرا ومعارا — في جامعة الأزهر ، وعين شمس ، واندونيسيا ، والسودان ، وماليزيا ، والمملكة العربية السعودية ، وليبيا ، وفي معهد الدراسات الاسلامية ، ومعهد البحوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات الدبلوماسية .
- مؤلفاته — غير المكتبة الاسلامية — تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الثامنة عشرة من بعضها ، وأهم هذه المؤلفات :
- ١ — موسوعة التاريخ الاسلامي في عشرة أجزاء .
- ٢ — موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة أجزاء .
- ٣ — مقارنة الأديان في أربعة أجزاء .
- ٤ — كيف تكتب بحثا أو رسالة .
- ٥ — المكتبة الاسلامية لكل الأعمار :
- ١٠٠ جزء من السير والتاريخ وقصص القرآن ، الأولاد والشبان والسيدات والرجال .
- ٦ — ISLAM : Belief Legislation Morals
- ٧ — History of Muslim Education
- كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجمت أكثر مؤلفاته الى الوردية والتركية ، والاندونيسية والماليزية والفرنسية والفارسية .